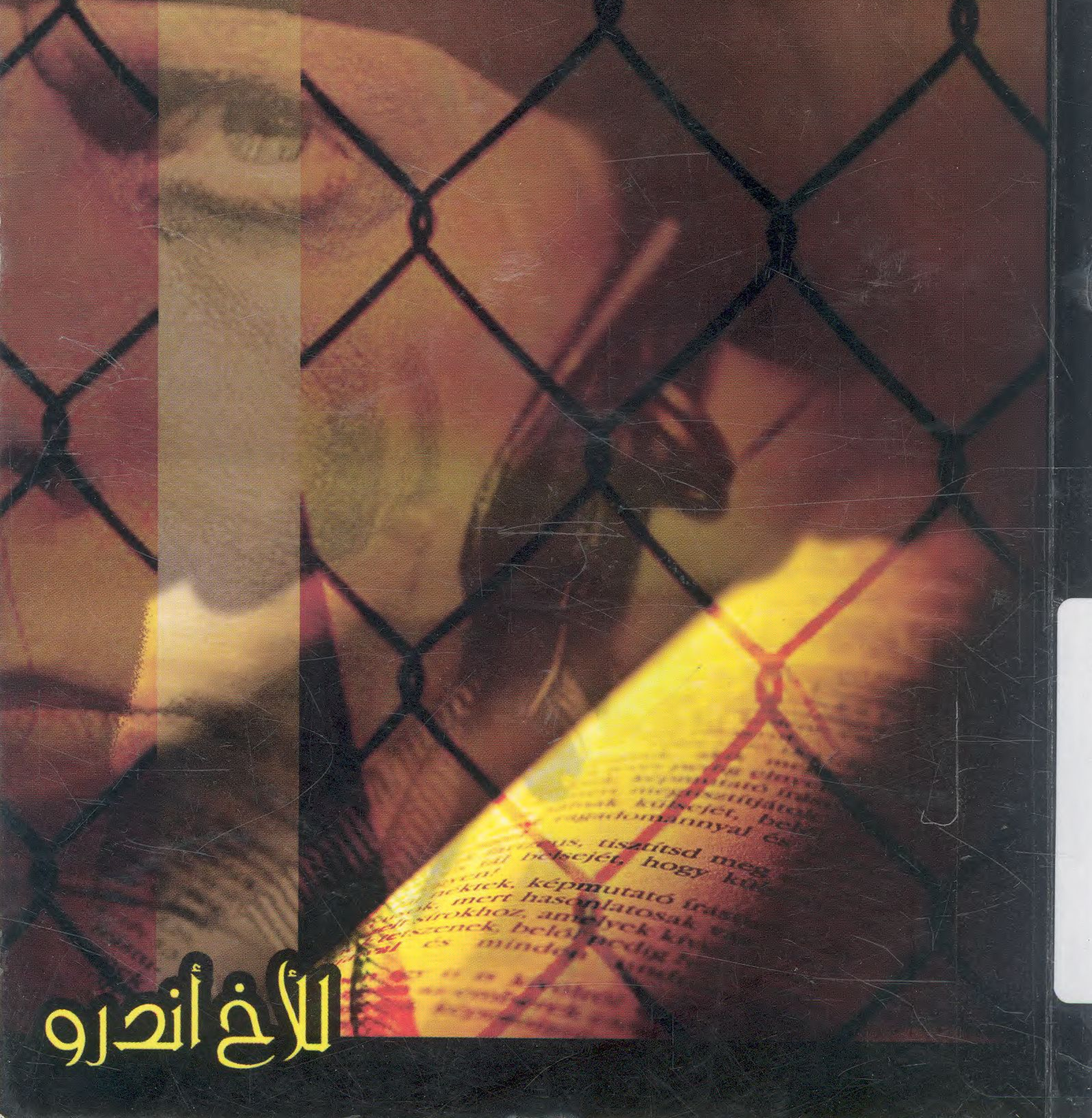
رغم المستحيل

قصص واقعية من وراء الستار الحديدي



للأخ أندرو

رغم المستحيل

الأخ أندرو

رغم المستحيل

المــــؤلــــف : الأخ أندرو

الــنــاشــــر : الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة

المــطــبــعــة : شركة الطباعة المصرية ت: ٤٦١٠٠٥٨٩

رقــم الإيــــداع : ١٩٨٣٦ - ٢٠٠٧

المراجعة والجمع التصويري و الإعداد الفني والتوزيع

P.T.W للترجمة و النشر

ت: ٢٦٦٧٨٩٨٠ - ٢٦٦٧٨٩٨١

المحتويات

إهـــداء

إلى أصدقائي الأعزاء، قرّاء هذا الكتاب،

ليتكم ترون حياتكم الآن في ظلال الكنيسة المضطهدة

هم لا يقدرون على الكلام، أما أنتم فتقدرون.

إنهم يحتاجون صلواتكم، ومحبتكم، واهتمامكم.

وتذكروا أن الكلمة المقدسة تعلن في ٢تيمو ٣: ١٢ أننا أيضاً سندفع ثمناً لإيماننا بيسوع.

"وجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطهدون." (٢تيمو ٣: ١٢)

الأخ أندرو

بيروت – أغسطس

١٩٨٦

مقدمة الناشر

ما إن أنهيت قراءة الصفحة الأخيرة من كتاب "رغم المستحيل" حتى أدركت سبب نفاد جميع الطبعات، والحاجة إلى طبعة جديدة رابعة.

رغم المستحيل كتاب يروي قصة إنسان استسلم لمشيئة الرب فتحول إلى مهرب!!

فقد انتشر اسم "الأخ أندرو" على اللائحة السوداء في جميع نقاط التفتيش الحدودية في بلدان الستار الحديدي (الدول الشيوعية سابقاً). الأخ أندرو مهرب نعم (مهرب الله) والبضاعة التي يهربها هي: الكتاب المقدس.

ابتدأ منفرداً بعدد ضئيل من الكتب وإمكانيات ماديّة محدودة ومعنويات متواضعة، لكن الذي أرسله لم يتركه بل كان معه وشجعه وهكذا اتسعت هذه الخدمة لتروي ظمأ العطاش إلى كلمة الحياة بعد سنوات من الحرمان والشوق للحصول ولو على صفحة من صفحات الكتاب المقدس.

روى الآخ أندرو هذه القصة المؤثرة. كان أحد رعاة الكنائس في واحد من أكثر البلدان تشدداً ضد كلمة الله، يخدم رعيته دون أن يكـون لديه نسخة من الكـتاب المقدس وكان يعظ ممّا كان قد حفظه من آيات الكتاب، وكان يصلي راجياً الله أن يرسل له ولو نسخة واحدة من كلمته المقدسة، وأخيراً استجاب الله الصلاة بواسطة الأخ أندرو. كان فرح

الراعي لا يوصف بكنزه الجديد وبعد أن قدم عظته الأولى مستشهداً بكلمات الكتاب الذي حصل عليه، حدث ما لم يكن بالحسبان وما لم يتوقع أحد حدوثه، إذ أخذ يمزق صفحات تلك النسخة الوحيدة التي طالما تاقت نفسه للحصول عليها، ذهل الأخ أندرو ذهولاً عظيماً إذ رأى المستحيل، لأن الراعي ابتدأ بتوزيع الصفحات الممزقة على أفراد رعيته الذين يفتقدون مثل هذه الثروة. اقتسم معهم كلمة الحياة مع أنه انتظر سنوات طوال لتحقيق أمنيته بالحصول على هذا الكنز الثمين. كم نحن أغنياء لأننا نملك من نسخ الكتاب المقدس ما يعتبر ثروة لا تقدر بثمن بالنسبة لمؤمني تلك الدول. كل واحد منا يملك نسخته الخاصة بينما كثيرون من أولئك مستعدون لدفع راتب شهر كامل في سبيل الحصول على نسخة واحدة من كلمة الله، فهل نقدر هذا الامتياز؟

رغم المستحيل قصة إيمان نشعر بعد قراءتها بأننا أمام تحدى إيمان المؤلف وهذا يشجعنا على الاتكال والاستسلام كلـيًّا بين يدي الرب لنخدمه بقوة وثقة وشجاعة ومحبة. هذه هي روح الكتاب.

نعم إنها قصة واقعية ليست من نسج الخيال مع أنها "رغم المستحيل".

الناشر في ٢٠٠٧/٩/١

(١)

فتات من الخبز

منذ أن لبست الحذاء الخشبي الهولندي، المعروف باسم "كلومبن"، حلمت بالبطولة والإقدام. فقد تخيلت نفسي جاسوساً أزحف تحت الأسلاك الشائكة، والرصاص يمزّق أجواء الفضاء من حولي.

لم يكن لنا أعداء في بلدتنا الصغيرة، "فتي"، فرحنا كأولاد نعادي بعضنا بعضاً ونتضارب بـــ "الكلومبن". ولن أنسى يوم كسرت حذائي الخشبي على رأس صديقي "العدو كيز"، ففزعنا وارتعبنا، لا للأذى الذي أصاب صديقي بل لهول الأذى الذي لحق بالحذاء. حاولت وكيز إصلاح الشق، ولكن العمل كان يتطلب مهارة وتدريباً، فاضطر والدي المنهك القوى أن يُمضي جزءاً طويلاً من تلك الليلة في تصليحه. ثمَّ استيقظ في الصباح الباكر لتشذيب الأعشاب وريّ الحديقة التي كانت مورد رزق أولاده الستة، ثم ركب دراجته وقطع مسافة أربعة أميال إلى محلٍ الحدادة في الكمار (ELKMAR) حيث أخذ يصلح الحذاء الخشبي بإدخال بعض الأسلاك من هنا وهناك لئلا أغيب عن المدرسة في صباح اليوم التالي.

وبعد عناء وتعب، قال أبي: "عليك أن تكون حريصاً يا أندرو". كان والدي أصمّ وكان كلامه صراخاً أكثر منه حديثاً عادياً. وقد قصد بقوله أن على المرء أن يحرص على ما يقتنيه بالتعب والمشقة.

كنت، في أيام حداثتي، أكنّ العداء لجيراننا عائلة "وتسترا". لماذا؟ لست أدري. قد يكون أحد الأسباب أنهم كرروا ذكر الحرب مع ألمانيا، وهو موضوع غير محبب في "فتي"؛ والثاني أنهم عائلة مسيحية إنجيلية ترددت على أفواههم عبارات مثل: "إن شاء الله" أو "يباركك الله" وغيرها، لم تعجب بطلاً نظيري، لذلك كنت أضمر لهم العداء.

وأذكر يوم مررت بمطبخ السيدة "وتسترا" وهي تضع بعض الكعك في الفرن، فلاحظت لوح زجاج قريباً مني، فما كان مني إلا أن خطفته، ونزعت حذائي الخشبي، وبسرعةٍ فائقة تسلقت السلم إلى السطح ووضعت اللوح فوق المدخنة، وعدت أدراجي لأختبئ خلف إحدى السيارات. وكان من الطبيعي أن يعود الدخان إلى المطبخ فيملأه، وتسرع السيدة "وتسترا" تصرخ مذعورة لتفتح باب الفرن مستغيثة وقد لحق بها زوجها ونظر إلى السقف ليتفحص مدخنته. وما إن رأى لوح الزجاج يغطيها حتى فهم السبب. غير أنه ملك لسانه ولم يتفوه بالشتائم والكلمات البذيئة التي توقعتها، فشعرت بالخزي والفشل.

أما عدوي الثاني فكان أخي الأكبر "بن"؛ لأنه سيطر علي وعلى باقي إخوتي فزين غرفته بألعابنا ومقتنياتنا، ولا أذكر بماذا استبدلها منا. بين هذه الألعاب كان صندوق أخذه من شقيقتنا مارجي وحرص عليه كثيراً، إذ ادخر فيه دريهمات حصل عليها مقابل بعض الأعمال التي قام بها مثل خدمة شيخ القرية، أو العناية بحديقة معلمة المدرسة، وغيرها. وفي هذه الأثناء ازدادت الحوادث الألمانية وشاعت أخبارها، وكثرت أحاديث الناس عنها. فتصورت "بن" بخيالي الصبياني وقد أصبح ثرياً كبيراً بفضل

معاملاته مع الألمان. وذات يوم صعدت إلى غرفته وأنزلت الصندوق من مكانه، وبعد محاولات عديدة تساقطت من فوهته بعض الدريهمات. ماذا أعمل بها؟ كان المبلغ كبيراً على صبيٍّ صغير مثلي. فلو دخلت دكان بائع الحلوى لأثرت أسئلة كثيرة. إذاً سأقول إنني وجدتها. وهكذا في اليوم التالي فتحت يدي أمام المعلمة قائلاً: "انظري يا آنسة ميكل ماذا وجدت".

فتحت الآنسة ميكل عينيها وأجابت: "يا عزيزي أندرو هذه كمية من النقود أكبر من أن يحملها صغيرٌ مثلك."

سألتها: "أيحق لي أن أحتفظ بها؟"

فأجابت: "ألا تعرف صاحبها؟"

فأجبت: "لا"، كنت مصمماً ألا أبوح بالحقيقة مهما كلفني الأمر.

فقالت: "إذاً عليك أن تستودعها دائرة الشرطة، وهم يقولون لك ماذا تفعل."

دائرة الشرطة؟ اقتراح لم يخطر ببالي قطعاً. شعرت بالرعب يدب في قلبي واثقاً أن السرقة لابد أن تُكتشف. ولكن حدسي لم يتحقق إذ اكتفى الشرطي بوضع دريهماتي في ظرف، وكتب اسمي عليه قائلاً: "إن لم يطالب أحد بهذه الدراهم لمدة سنة، تصبح من حقك."

وهذا ما حدث بالفعل، أخذت الدراهم بعد سنة، وابتعت بها ما راقني من الحلوى التي لم أتذوق منها سوى طعم السرقة؛ لأن أخي "بن" لم يعلم بفقد دراهمه؛ وكأن شيئاً لم يحدث.

كثيراً ما كنت أحاسب نفسي متسائلاً: "لماذا أجد لذة في هذه الأعمال

الصبيانية غير المجدية؟" لماذا أبالغ في معاكسة الآخرين وأذيتهم؟ لعل السبب يعود إلى رغبتي في الهرب من سماع راديو أمي المزعج إذ أقعدها قلبها المريض واضطرها أن تقلل من الحركة بقدر المستطاع، فكان الراديو سلواها الوحيدة فلا تسمع من إذاعاته سوى الوعظ الديني أو الترنيم، مما جعلني أشعر بالملل من البيت وأبحث عن تسلية صبيانية في خارجه. أما بالنسبة لوالدتي فقد كان الدين حياتها، ورغم فقرنا حتى في نظر أهل قريتنا الصغيرة "فتي"، فلم تكن لتمنع سائلاً أو فقيراً يقف على بابنا من الجلوس على مائدتنا ومشاركتنا في طعامنا، (وكانوا يفدون إلى بيتنا كأفراد وكجماعات؛ منهم الأشرار، والمتسولون، والوعاظ لعلمهم أنهم يُقابلون بالترحاب) فكانت قطع الجبنة تصغر، والحساء يزاد ماء، وحصة الواحد منا تقل؛ وطارق الباب لا يخيب؛ فحسن الضيافة مبدأ من مبادئ أمي الثابتة.

أما مبدأها الثاني فكان التوفير والتقتير. واذكر أنني في الرابعة من عمري تعلمت تقشير البطاطا دون إسراف، وفي السابعة تنازلت عن تقشير البطاطا لـ "كرنيليوس" أخي الأصغر، ورُفِّعت لوظيفة تنظيف الأحذية، لا الأحذية الخشبية "الكلومبن" بل تلك التي كنا نلبسها في صباح يوم الأحد، والويل لمن يبلى حذاؤه قبل انقضاء خمسة عشر عاماً.

ونظراً لضعف والدتي وعدم تمكنها من القيام بأعمال شاقة كان أخي "بن" يقوم بغسل ثياب العائلة وذلك بآلة تدار يدها على الثياب المنقوعة في الماء الساخن إلى أن تنظف، فينال كل منا دوراً ليدير تلك اليد ولا يفلتها إلا بعد أن يصيبه الإعياء. وهكذا تعلمنا جميعاً ما عدا أخي الكبير

"باستيان" مشاركة والدتي في الأعمال المنزلة كلها. ماذا كان باستيان يعمل وهو يكبر أخي "بن" بعامين ويكبرني بستة؟ لم يتعلم العمل قطعاً، بل كان يقف تحت إحدى أشجار الدردار (مفخرة أهل فتي) النابتة على حافة الطريق يشاهد أهل القرية في ذهابهم إلى أعمالهم وإيابهم منها، ويظل واقفاً هناك إلى أن يمر به أحدنا مساء ويعيده إلى البيت لتناول العشاء.

لم أحب أحدا بعد والدتي بمقدار محبتي لباستيان. أثناء وقوفه تحت شجرته المحببة التي لم يغيرها قط سنة بعد سنة، اعتاد كل من يمر به من أهل القرية تحيته قائلاً: "مرحباَ باس". وهكذا، تكررت هاتان الكلمتان على سمعه يوماً بعد يوم إلى أن حفظهما وصار قادراً على ترديدهما بدقة، وهما الكلمتان الوحيدتان اللتان استطاع التفوه بها. غير أنه، مع عجزه عن الكلام والقيام بأي عمل حتى ارتداء ملابسه، تمتع بموهبة موسيقية فذّة. كان نملك آنذاك، كعادة أهل هولندا جميعهم، أرغناً خشبياً وضعناه في إحدى زوايا غرفة استقبال الضيوف. فكان والدي يجلس إليه كل مساء ويعزف بعض الأنغام الكنسية بينما نقف جميعنا حوله مرنمين، رغم أخطائه الموسيقية العديدة بسبب افتقاره إلى الأذن موسيقية، وخشونة يديه وصلابتهما بعد عمله في الحدادة طول النهار، وبالتالي صعوبة تنقلهما على أصابع الأرغن الصغير.

أما "باس" فلم يكن يشاركنا في الترنيم وإنما يجلس عند أرجل الأرغن يستمع إلى أنغامه وإيقاعها حتى ينتهي والدي من العزف ويترك الأرغن فيجلس هو إليه، وبعد تقليب صفحات كتاب الترنيم تقليداً لوالدي، يعزف بعذوبة وإتقان أنغاماً خالية من الأخطاء في غاية الدقة والحنان تستوقف المارين بجانب

النافذة للاستماع. وفي أيام الصيف، عندما تفتح الشبابيك والأبواب يدخل المارّة أفواجاً والدموع تملأ عيونهم تأثراً لعزف "باس".

كان الحدث العظيم لأهل قرية "فتي" هو الذهاب إلى الكنيسة صباح الأحد، فقد أُقيمت الكنيستان الموجودتان في البلدة على السدود البحرية القديمة، الواحدة إلى الشمال والأخرى إلى الجنوب، أما بيوتهم فكانت شبيهة بالجزائر.

ولكن الكنيستين تباعدتا الواحدة عن الأخرى كما تباعدت القلوب بعضها عن بعض وتعمقت كراهية الإنجيلي لأخيه الكاثوليكي. ومع أن كلاً منها يتحدث مع الآخر خلال أيام الأسبوع في إخاء وإنسانية، فلا ينظر أحدهما إلى الآخر إذا التقيا صباح الأحد في طريقهما إلى الكنيسة. وربما كان هذا الشعور من بقايا آثار الاستعمار الأسباني. وأظن أن والدي كان فخوراً بمذهبه الإنجيلي شاكراً من أجل وقوع بيتنا في الضفة الشمالية من القرية، لأنه بذلك تمكن من التمشي في شارع القرية الممتد من الشمال إلى الجنوب مظهراً للسكان استقامة عقيدته بذهابه إلى الكنيسة الإنجيلية جنوبي القرية.

واعتدنا بسبب صمم والدي أن نجلس على المقعد الأمامي في الكنيسة، غير أنه ضاق بأفراد العائلة جميعهم، فكنت أخرج من الكنيسة للتزلج في أيام الشتاء، أو للجلوس في الحقول الهادئة الجميلة في أيام الصيف، وكأني، بالحدس أو بالغريزة، كنت أعود في الوقت المعين، أي عند انتهاء العبادة فأتخذ موقفي المعهود بجانب الواعظ وهو يهز يد كل عابد بدوره فأسمع عبارات الثناء وأستنتج الآية التي اتخذها موضوعاً لعظته وفي بعض الأحيان أستقرئ قصة وردت في العظة.

وهكذا لم يكن يشعر أحد بغيابي، ولاسيما عندما يتجمع سكان القرية بعد العبادة في أحد البيوت لشرب القهوة وبحث الموعظة فأشترك معهم في البحث والنقد، وكأني كنت حاضرا، فأحاول ان أخدع والديّ وقلبي يخفق خوفا من عضبهما وتأنيبهما إذا ما اكتشفا الحقيقة، حتى إنني لهذا اليوم أشعر بذلك الخوف ويخفق قلبي كلما شممت رائحة القهوة. غير أنني نجحت في حيلتي واستخدام بعض العبارات المدروسة لسؤالي مثلاً: "ألم تعبر قصة رئيس البلدية تعبيراً جيدا عن فكر الواعظ؟" أو "ألم تكن العظة اليوم شبيهة بعظة الشهر الماضي؟ ألم يقتبس الواعظ لوقا ٣: ١٦ قبل أربعة أسابيع؟" سألت هذه الأسئلة وأنا أعلم تمام العلم أنني مخطئ وأنني أعبث. ولكن خطتي هذه نجحت أسبوعاً بعد أسبوع وكلما أذكر الأكاذيب والمماحكات، أشعر بجهلي يومذاك، وأستغرب سذاجة والدي وثقتهما بي وعدم شكهما في حضوري الكنيسة التي قلَّما دخلتها.

جاء عام ١٩٣٩ ومعه الحرب العالمية الثانية وإعلان خطة الألمان باحتلال هولندا، غير أن عائلتي لم تهتم بالخطر الموشك، إذ كان "باس" عليلاَ يقاسي من مرض السل ويتقلب ألماَ على فراشه، فذابت قلوبنا جميعاً لعجزه عن الكلام أو التعبير عن شعوره. واضطر والديّ إلى عزله عنا للتخفيف عنه ولوقاية باقي العائلة من العدوى، ومنعانا من الدخول إليه منعاً باتاً. ولكنني تسلّلت يوماً إلى غرفته مصمماً أن أموت معه إذا كان موته حتمياً. فألقيت نفسي على فراشه ورحت أقبله مراراً وتكراراً عازماَ على اللحاق به ولكنني بقيت صحيحاً قوياً، وتوفي "باس" في شهر تموز عام ١٩٣٩. فشعرت أن الرب خذلني مرة ثانية.

بعد شهرين دعت السلطات إلى تجنيد عام فسمحت لنا والدتي لأول مرة باستعمال مذياعها لسماع الأخبار، ولكن والدي لم يستطع أن يسمع شيئاً مع أننا رفعنا صوته أكثر ما يمكن، فاضطرت أختي الصغرى "كلتجي" ان تجلس بجانبه وتصرخ في أذنه أبرز الأخبار فتقول تارة:

"جميع الذخائر الآن قيد الاستعمال يا أبي."

وتارة أخرى: "جميع السيارات الخصوصية تستعمل للحرب."

فما كان المساء يحلّ حتى تزدحم الشوارع بالسيارات. وبقي الوضع هكذا بضعة شهور قبل الهجوم. بعضها يسير شمالاً وبعضها جنوباً دون أن يعلم صاحبها هدفاً أو قصداً إلا أنه يقود سيارته بسرعة ليصل إلى المكان المعين له. فكنت، بسروالي الفضفاض، وقميصي الواسع، أقف تحت الشجرة التي كان يقف تحتها أخي "باس"، أشاهد هذه الفوضى وهذا الازدحام يوماً بعد يوم دون ان أسمع المارين يتحدثون أو يتفوهون بشيء.

لم يكن أحد يجرؤ على التحدث بما يعرفه الباقون، أو بما يمكن أن يحدث سوى آل "وتسترا"، ولا أدري لماذا شعرت آنذاك باندفاع نحوهم، فجعلت أكرر مروري أمام مطبخهم لأتحدث مع من يكون فيه:

"مساء الخير يا أندرو"

"مساء الخير يا سيدتي وتسترا"

"لعلك تريد قضاء حاجة لوالدتك، هيا خذ هذه الكعكة ليزيد نشاطك." ثم تتناول صحن الكعك وتقدمه إليّ. عند ذلك يلتفت السيد "وتسترا" من مكانه

بجانب الطاولة وينظر نحو الشباك حيث أقف قائلاً: "أهذا أندرو الصغير يريد مشاهدة التجنيد بنفسه؟". "نعم يا سيدي". ولسبب ما أضع الكعكة خلف ظهري. "يا أندرو عليك أن تصلي لأجل وطنك كل ليلة. ستمر بنا أيام حالكة عصيبة."

"نعم يا سيدي"

"كيف يستطيع بعض رجال أن يواجهوا الطائرات والدبابات بالمسدسات والبندقيات؟"

"نعم يا سيدي"

"سيهجمون علينا بأشد كراهية وضغينة، وليس لنا إلا الصلاة." ويقترب السيد "وتسترا" إلى الشباك وينحني على حافته وينظر إليّ قائلاً: "هل ستصلي يا أندروا؟ صل كي نتشجع فنقوم بواجبنا ثم نصمد. أتستطيع أن تصلي يا أندرو؟"

"نعم يا سيدي"

"أنت ولد طيب يا أندرو"، ثم يقول وهو يعود إلى مكانه: "هيا اذهب للقيام بما أردت عمله." وما ان أتحول عن الشباك لأمضي حتى يناديني قائلاً: "كُل الكعكة يا أندرو، أعلم أن الفرن القديم يحرق الكعك ولكنه أفضل حالاً منذ أن جددت الشباك."

وفي فراشي في العلية تلك الليلة رحت أفكر بالسيد "وتسترا" . إنه يعرف الحقيقة إذاً، ولكنه لم يخبر والدي، كما قد يفعل غيره من الرجال. لماذا؟

ولماذا يريد أن أصلي؟ ما المنفعة من الصلاة؟ إن الله لا يسمع. وما دام الألمان عازمين على الهجوم فهل تصدهم الصلاة؟ لقد قررت أن أسيء معاملتهم لا أن أصلي لأجلهم. نمت وأنا أحلم بما أستطيع أن أعمله وحيداً أعزل.

اكتظت "فتي" باللاجئين المتدفقين إليها من الشرق والغرب ولم يخل بيت من عائلة لاجئة، سوى بيتنا، لضيقه. فراح سكان القرية يدمرون سدودهم ليحفر البحر أراضيهم فيعيق زحف الأعداء. ولكن القوات الألمانية هاجمت هولندا جواً وكانت أولى هجماتها في شهر آيار سنة ١٩٤٠. قضينا تلك الليلة في غرفة الضيوف، متكتلين بعضنا على بعض لا نعرف للنوم طعماً بسبب ضجيج القذائف والقنابل التي ألقيت على المقر الحربي الذي يبعد عن بيتنا أربعة كيلومترات فقط. وقد صادفت تلك الليلة عيد ميلادي الثاني عشر، ولكن أحداً منا لم ينتبه لهذه المناسبة.

ثم أطلق الألمان قنابلهم على مدينة روتردام، وفي ساعة من الزمن، عن طريق الوسائل الحربية الحديثة، دُمرت مدينة كبيرة ومحي أثرها على حد قول المذيع الذي لم يستطع إيقاف نحيبه. أما هولندا فقد استسلمت في اليوم التالي. وبعدها ببضعة أيام جاء قائد ألماني يرافقه بعض الجنود المتقدمين في السن، وأقام سلطته في بيت رئيس البلدية إذ لم تكن "فتي" تتطلّب كتيبة كبيرة.

لفترة من الزمن، نفذت خطتي في المقاومة. ولبضع ليالٍ كنت أتسلل من فراشي في تمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وانحدر على السلم من العلية. أظن أن والدتي شعرت بعملي لأن تنفسها المنتظم كان يختل عندما كنت أمر بباب غرفتها، ولكنها لم تكن تقول شيئاً في الصباح، ولم تتساءل

عن نقص السكر الثمين المقنن. ولكن اختلال سيارة القائد أدهش الجميع. فقد كانت شموع احتراق السيارة مغطاة بالوحل، والمحرك معطلاً، فعزا بعضهم لوجود بعض السكر في خزان الوقود، وبعضهم الآخر استهجنوا هذا التحليل واستبعدوه.

نفذ الطعام في المدن قبل أن ينفذ في القرى الزراعية. فكانت هذه إحدى الوسائل التي كنت أستعملها للإغارة على العدو. ففي يوم من الأيام ملأت سلة بالكرنب والطماطم ومشيت مسافة أربعة أميال إلى مدينة الكمار حيث عرفت مخزناً للمفرقعات، وهناك استبدلتُ بها كميّةً لا بأس بها من المفرقعات وغطيتها بالأزهار التي جلبتها معي. أما صاحب المخزن فقام بحزم، وقدم إليّ قنبلة قائلاً: "أسرع قبل منع التجول."

أخذت ذخيرتي وعدت إلى العليّة في البيت. ثم تسللت حسب العادة من فراشي إلى الشارع. رأيت أربعة جنود يتجولون في الطريق بغية المحافظة على الأمن مسلطين أنوارهم بحثاً عمن يخالف نظامهم فمشيت بمحاذاة جدران البيت إلى ان ابتعدت عنهم وأكملت طريقي عابراً الجسر المعروف إلى بيت رئيس البلدية – مركز العدو. كان من السهل أن أفجر القنبلة على باب البيت وأزعج الحرس، ولكنني طمحت إلى أكثر من ذلك. كنت أسرع عداء في القرية وتطلعت إلى رؤية أولئك الشيوخ يركضون خلفي. رغم أنه لم تتجاوز سن أحدهم الخمسين ولكنهم كان شيوخاً بالنسبة لسني. فانتظرت إلى أن عاد الحرس إلى مقرهم، ثم أشعلت فتيلة القنبلة وأسرعت راكضاً. صرخ أحدهم: "قف مكانك" وأطلق مسدسه غير أني لم أحسب للرصاص حساباً. فرحت أعدو وأركض، والأنوار مسلطة عليّ.

وما هي إلا لحظات حتى انفجرت القنبلة مما دفع الذين يطاردوني إلى التراجع، وأتاح لي فرصة لأن أقطع الجسر وأختبئ بين رؤوس الكرنب في أحد الحقول. اختبأت مدة ساعة تقريباً ريثما بحث عني الجنود إلى أن فشلوا وعادوا أدراجهم وهم يشتمون ويلعنون.

تشجعت بهذا النجاح وظننت انني قد أتقنت الصنعة. فرحت أشن غاراتي الصبيانية هذه في وضح النهار. وفي أحد الأيام خرجت من مخبئي لأجد نفسي بين ذراعي أحد الجنود، حيث استحال الهرب ولو فعلت لاعترفت بجريمتي وبين يدي ما يثبت عملي. ففي يميني كنت أحمل بعض المفرقعات وفي يساري كبريتاً. صرخ الجندي قائلاً: "تعال إلى هنا!" شددت قبضتي على ما فيها ولم أضعها في جيبي لعلمي أن الجيوب هي المكان الأول الذي يُفتش. فصرخ ثانية يقول: "ألديك مفرقعات؟". أجبت: "مفرقعات؟! لا يا سيدي." أمسكت أطراف معطفي بيدي ودنوت منه ليفتشني ففعل مبتدئاً بسروالي ومنتهياً عند قبضتي، ولما شعر بالفشل تركني وانصرف. ولما نظرت إلى المفرقعات التي كنت أخفيها في قبضتي وجدتها مبللة بالعرق.

طالت أيام الاحتلال وكثرت بلاياها ومتاعبها. بيوت دمرت، وأخرى أحرقت، رجال قُتلوا رمياً بالرصاص، وقرى هدمت. تعذرت المقاومة، واستحال الصمود، وفهمت أن مناوشاتي الصبيانية ومغامراتي هذه لا جدوى منها ولا منفعة، وفهم ذلك كثير من أهل البلدة فأخذوا يهربون ويخفون أنفسهم خوفاً من اعتقال العدو وأشغاله الشاقة كما فعل أخي الذي أخفى نفسه مدة خمس سنوات طوال، لم نر له وجهاً ولم يصلنا منه خبر. منعت

الحكومة الجديدة الاستماع إلى الراديو واعتبرت من يملكه مجرماً، فوضعنا راديو والدتي تحت السقف المنحرف ورحنا نصعد إليه واحداً واحداً لسماع الإذاعة الهولندية من بريطانيا، وفي بعض الأحيان شاركنا في الاستماع إليه عمّال الطريق وبعض اليهود الذين كثيراً ما اضطررنا إلى إيوائهم ليلة أو أكثر في طريقهم إلى الساحل.

ضاقت الحال أيضاً بالأعداء، وكادت تنفذ ذخائر الجنود الألمان، فانسحبت السلطات من "فتي" لتحل محلها قوى جديدة فتأتي في أوقات غير معروفة أو محددة شاحنات مليئة بالجنود، يسد بعضهم مدخلي القرية أو يفتش بعضهم الآخر البيوت، بيتاً تلو الآخر، بحثاً عن الرجال. وأذكر أنني حين كنت في الرابعة عشرة من عمري شاركت الرجال وهم يهربون راكضين في الحقول مُنحنيّ القامة بغية الاختفاء، قافزين فوق الأسوار نحو السكة الحديدية، رامين بأنفسنا لنسبح إليها في القناة الرئيسية، وقد خرجنا مبللين نرتجف. ذلك لأن الجسر الرئيسي الذي يوصل إلى السكة الحديدية كان عالياً، فلو عبرناه لرآنا الأعداء. حتى والدي، رغم صممه، وأخي الصغير "كرنيليوس"، اضطرا إلى هذا الهرب عند نهاية الحرب.

في هذه الأثناء أصبحت الحياة مستحيلة، إذ استولى الألمان على القوى الكهربائية، فعجزنا عن تحريك مضخات الماء. فركدت مياه الشتاء، ولم نجد زيتاً للإنارة، فأجبرنا على استخراجه بأنفسنا من بذور الكرنب. لم نجد فحماً للتدفئة، فأرغم أهل "فتي" على قطع شجرات الدردار التي تفخر بها للوقود. وفي العام التالي قطعت شجرة "باس" المحببة.

أما أشد الأعداء دهاء فكان الجوع الذي اشتدّ على السكّان ومرّر عيشتهم،

إذ استولت السلطات الألمانية على المزروعات والمحصولات، فأخذ والدي ينقب الحديقة بعناية ليوفر غذاء للعائلة، والأعداء يأخذون أكثر من نصف المحصول، ولعدة سنوات عاشت عائلتنا المؤلفة من ستة أشخاص، على حصة اثنين، حاولنا بادئ الأمر أن نضيف جذور الخزامى إلى مؤونتنا فنقتات بها عوضاً عن البطاطا، ولكنها أيضاً نفذت، ولم يعد أمامنا سوى الجوع والاكتفاء بما يصيبنا. وكم من الأيام قضت والدتي دون طعام متظاهرة بأنها تأكل، وكانت تقسم حصتها بين الصحنين المجاورين لصحنها – وعزاؤها الوحيد أن "باس" لم يعش ليقاسي هذه الأيام لأنه ما كان ليفهم أو يعلل الجوع الذي ينتابه، والبرد الذي يصيبه بخلو الموقد من الوقود. إلى أن جاء يوم لازمت فيه أمي الفراش ولم تعُد تقوى على النهوض. وعلمنا يقيناً أنها ستموت ما لم تنته أيام الاحتلال ويأتنا الفرج.

وأخيراً، في ربيع عام ١٩٤٥، انهزم الألمان وحل محلهم الكنديون فوقف السكان في الشوارع ودموع الفرح تملأ عيونهم. أما أنا فلم أقف بينهم. فقد أخذت سلة ورحت أعدو مسافة خمسة أميال إلى المخيم الكندي أستجدي بعض فتات الخبز – خبز الحياة بالضبط!

أتيت بهذا الفُتات إلى البيت وأنا أصرخ – طعام .. طعام .. طعام. فتناولت والدتي بعضاً من كِسر الخبز الناشفة اليابسة ودموع الفرح والشكر تنهمر من عينيها.

لقد انتهت الحرب!

(٢)

قبعة القش الصفراء

عدت إلى البيت في عصر أحد أيام سنة ١٩٤٥، بعد الحرب بعدة أشهر. فأخبرتني شقيقتي "كلتجي Geltje" أن والدي يود مقابلتي وقالت: "إنه في الحديقة".

عبرت المطبخ المظلم وخرجت إلى الحديقة والشمس وهاجة مشرقة. فوجدت والدي بحذائه الهولندي الخشبي، وفأسه في يده، منحنياً فوق الكرنب يعشبه بعناية وصبر. درت حول حوض الكرنب ووقفت قبالة والدي سائلاً بصوت عال: "أتريد أن تراني يا والدي؟" وقف منتصباً وقال: "أنت في السابعة عشرة من عمرك يا أندرو!" ففهمت قصده فوراً، فأجبت: "نعم يا سيدي". "ما هي الخطة التي وضعتها لحياتك؟"

وددت لو استطاع أن يخفض صوته فقلت: "لست أدري."

علمت أنه سيسألني عن عدم ميلي للحدادة، ففعل. ثم سألني عما إذا كنت قد أتقنت تركيب الآلات، المهنة التي حاولت أن أتعلمها طيلة فترة الاحتلال. وعلمت أن أهل "فتي" جميعهم يسمعون أسئلته وأجوبتي الغامضة عنها.

قال: "حان الوقت لكي تختار مهنة يا أندرو وأريد سماع قرارك في

الخريف." ثم عاد إلى فأسه، فعلمت أنه أنهى حديثه تاركاً أمامي شهرين أختار خلالهما مهنة تعجبني، والحق يقال أن محور حياتي وأمنيتي الوحيدة لم يكونا سوى المغامرات. أحببت أن أغامر. ووددت لو أتخلص من رتابة حياتي التي سئمتها. يا حبذا لو هربت من "فتي" كلها، ومن أهلها "المتخلفين". ولكنني علمت أن آمالي لن تخفق، فقد احتل الألمان "فتي" وأنا في السادسة من عمري وأخذوا بناء مدرسة القرية، وهذا يعني أنني توقفت عن الذهاب إلى المدرسة والتعلُّم في تلك السن المبكرة، ولم أكن أعرف شيئاً، أو أتقن شيئاً سوى الركض. فرحت أعدو تلك الأمسية حافي القدمين على الطرقات التي شقتها أقدام الفلاحين بين المزارع. عدوت خمسة أميال بسهولة، ولم أشعر بالتعب. قطعت المدينة التي اشتريت منها المتفرقعات. وكأن الرياضة فتحت عقلي فاتزن تفكيري.

عدت إلى "فتي" وكلي أمل وتفاؤل. فقد حللت المشكلة وحصلت على الجواب عن سؤال والدي. كانت الصحف قد نشرت خلال الأشهر الأخيرة أنباء العصيان المسلّح في الجزر الشرقية الهولندية طموحاً للاستقلال عن هولندا، وذكرتنا الصحف نفسها بأن هذه الجزر قطعة من الوطن لأنها خضعت لسلطته مدة ثلاثمئة وخمسين سنة. أين جيشنا؟ لم لا نسترجعها للتاج؟

دخلت البيت مساء وفي الليلة عينها أعلنت قراري للعائلة. "وما هو يا أندرو؟" سألتني "كلتجي" .

فشهقت والدتي قائلة: "آه يا أندرو! هل كتب علينا التفكير بالقتل وحسب؟" فقد ضاقت ذرعاً بالجيوش والجنود. ولكن والدي وأخوتي اختلفوا عنها في تفكيرهم. وما إن بزغ الفجر حتى ركبت دراجتي وأسرعت إلى مكتب

التطوع في أمستردام. ولكنني عدت خائبا، فلا يُقبل في الجيش من يقل عمره عن الثامنة عشر، وكنت آنذاك ابن سبعة عشر سنة فقط، ولا أبلغ السن المطلوب إلا في شهر آيار عام ١٩٤٦.

عدت إلى المكتب نفسه في كانون الثاني، وقبلت. لبست ثياب الجندية ورحت أتبختر في شوارع "فتي" بزهو وكبرياء، متجاهلاً أن السترة واسعة، والبنطلون ضيق. لم يكن لي هم سوى استرجاع تلك المستعمرات، وإخضاعها للمملكة، وقد أنجح في قتل بعض أولئك الشيوعيين الأنذال، على حد ظن الهولنديين بهم. أصبحت فخر أهل القرية جميعهم ماعدا السيد "وتسترا" وزوجته. فذات يوم مررت ببابهما بلباس الجندية، فحياني السيد "وتسترا" بقوله:

"مرحباً يا أندرو"

"صباح الخير يا سيد "وتسترا" ."

"هل والدك بخير؟"

فامتعضت لعدم اهتمامه بثيابي، وحولت صدري نحو الشمس كي تلمع أزرار السترة، ولكنه استمر في تجاهله، فقلت له: "التحقت بالجيش، يا سيد "وتسترا" وسأذهب إلى الجزر الشرقية."

نظر إليّ ثانية وقال: "هذا ما أراه! إذن أنت تبحث عن مغامرات جديدة، أليس كذلك؟ سأصلي لأجلك يا أندرو، راجياً أن تشبعك هذه المغامرات وترضيك."

أدهشتني كلماته! ماذا يقصد بالشبع والرضى الناتجين عن المغامرات؟

نظرت إلى الحقول الخضراء الواسعة حولي، وناجيت نفسي قائلاً: "لا شبع لي ولا رضى إلا في المغامرات مهما كان نوعها. ترضيني المغامرات وتعجبني أكثر جداً من النوم والخمول كما يفعل أهل قريتي."

وأخيراً غادرت البيت، غادرته جسدياً وعاطفياً، وبدأت أخضع للتدريب والتمرين في بلدة غوركم (Gorkm)، ولأول مرة في حياتي شعرت أنني إنسان ناضج وأنني أقوم بعمل اشتقت إليه كثيراً. فكنت أذهب إلى الكنيسة كل أحد ليس لاهتمامي بالوعظ أو العبادة، بل لأني تأكدت من أن إحدى العائلات لابد من أن تدعوني لتناول الغداء عندها، فيتسنى لي أن أفخر أمام مضيفي بأنني انتخبت للتدرب على العمليات الفدائية في أندونيسيا، فيشبع قلبي بهذا الفخر.

كنت أقول لمضيفيَّ وأنا أنفخ السيجار بعد الغداء "بعد بضعة أسابيع سأحارب العدو وجهاً لوجه". ثم أسأل وعيناي تنظران إلى الأفق البعيد: "هل تتكرمون بالكتابة إليّ أثناء غيابي؟" وحتماً كانوا يردون بالإيجاب. فما إن غادرت هولندا حتى كان قد تجمع لدي سبعون اسماً للمراسلة.

بين هذه الأسماء اسم فتاة قابلتها ونحن نغادر الكنيسة كالمعتاد. أظنها أجمل فتاة شاهدتها في حياتي. كانت في مثل سني، نحيلة الجسم سوداء الشعر. كانت بشرتها ذات بياض ثلجي قرأت عنه ولكن لم أشاهده إلى أن التقيت بها. فبعد غفوة هانئة في أثناء الوعظ ذاك الأحد، رحت أبحث عمن يدعوني إلى الغداء – وبغير عناء قابلت تلك الأميرة البيضاء في المدخل، فقدمت نفسها قائلة:

"أنا ثايل"

فأجبتها: "وأنا أندرو"

قالت: "تدعوك والدتي لتناول الغداء معنا إذا أردت؟"

"طبعاً، بكل شكر وسرور." وبعد العبادة سرت مع الأميرة إلى بيتها.

كان والد "تايل" بائع سمك يسكن وعائلته فوق دكانه بجانب البحر في غوركم فامتزجت رائحة البحر برائحة غليان الكرنب مع اللحم. وبعد الغداء، جلسنا جميعاً في غرفة الضيوف. فقدم لي والد "تايل" بعض السجائر قائلاً:

"أتدخن واحدة يا أندرو؟"

فأجبت "شكراً." واخترت واحدة بلباقة ثم أدرتها بين أصابعي كما شاهدت رجال "فتي" يفعلون. لم اكن أحب التدخين، ولكن دلالته على الرجولة اجتذبتني إليه، فلو كانت الرجولة تظهر في المخدرات لتناولتها بسرور. أما "تايل" فقد جلست صامتة تسند ظهرها إلى النافذة، مما جعل شعرها الأسود يبدو مائلاً إلى الزرقة تحت أشعة الشمس الداخلة من الشباك. لم تنبس ببنت شفة، ولكني علمت أن هذه الصبية ستكون من أعز صديقاتي ومراسلاتي في المستقبل إن لم تذهب علاقتنا إلى أبعد من ذلك.

حل اليوم الثاني والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٤٦، وهو آخر يوم لي في بيتي، فودّعت "تايل" وباقي العائلات التي تعرفت عليها، وأقبلت على عائلتي مودعاً أيضاً. رأيت في نفسي الرجولة الكاملة، إذ أصبحت بدلة الجندية تناسبني تماماً. فالسروال يناسب شكلي ومقاسي وكذلك السترة، ولم تعد هذه واسعة أو ذاك صغيراً.

ودعت والدتي غير عالم أنه الوداع الأخير. فلو علمت الحقيقة لترويت قليلاً وبقيت إلى جانبها مدة أطول. وأخيراً، عندما أوشكت الخروج من البيت، نظرت إليّ ومدت يدها تحت مريلتها وأخرجت كتاباً عرفت أنه كتابها المقدس. وقالت:

"يا أندرو أتأخذ هذا معك؟"

أجبت: "نعم يا أماه!"

فسألت: "أتعدني أن تقرأه؟"

أيمكنني أن أجيب والدتي بالنفي؟ ربّما لا أقرأه كما أعد ولكن عليّ أن أطيعها وآخذه على الأقل. وهكذا، وضعته في أسفل جرابي ونسيته.

رست باخرتنا "السيباجاك" في أندونيسيا قبيل عيد الميلاد سنة ١٩٤٦، فقفز قلبي طرباً للمناظر الإقليمية، ومنظر العبيد وهم يذرعون أرض الميناء ذهاباً وإيابا، والباعة المتجولين على الرصيف وهم يعرضون بضائعهم محاولين اجتذاب انتباهنا إليهم. حملت أمتعتي وقفزت إلى الرصيف حيث كان الحر شديداً والشمس محرقة. لم أدرك آنذاك أنني بعد بضعة أسابيع سأجبر على قتل الأولاد والرجال العزل كالذين أشاهدهم اليوم حولي.

استعرضت بضائع الباعة، فأعجبت بالقرود المقيدة بالسلاسل وقد تدربت على الرقص والحيل. وقفت أنظر إليها عن كثب وإذا بصوت خلفي يقول:

"لا تمسها."

نظرت حولي وإذا بأحد قادتنا يخاطبني فقال: "أيها الجندي، تلك القردة يؤلم عضها، لاسيما وأكثرها مصاب بداء الكلب. انتبه لنفسك." عدلت عن مداعبتها عند هذا القول وسحبت يدي. أما القائد فتابع سيره، ولحق به أحد الأولاد يسبه ويشتمه لمنعي من الشراء. غير أني عزمت على ابتياع أحدها.

وصلنا إلى مقرنا فأرسل من كانوا أوفر مقدرة فينا إلى جزيرة مجاورة للتدريب على القيادة. أعجبت بالركض، والتمارين والرياضة الشاقة التي كنا نقوم بها، ولاسيما التدريب على المحاربة بالسلاح الأبيض، إذ كنّا نهجُم بالرماح أو السكاكين، أو بأيدينا العزلاء. ونسمع الأوامر تصدر: "اهجموا!،..." ومع كل هذا لم يخطر ببالي أنني إنما أتدرب لأقتل بشراً مثلي عما قريب.

لم تهدف التربية العسكرية إلى تعليمنا القتل والبطش فحسب، بل هدفت أيضاً إلى تنمية الثقة بالنفس في الجنود. على أن ثقتي بنفسي وثقتي بمقدرتي على القيام بأي عمل أتخذه كانت قوية وشديدة، ومثالاً على ذلك محاولتي قيادة إحدى حاملات القذائف. تُعرف هذا العربات بثقلها، ومتانة صنعها، وصعوبة قيادتها، حتى على من يتقن قيادة السيارات – التي لم أتعلمها أو أعرفها. وطالما حسدت سائق حاملات القذائف، وتمنيت لو أني استطعت العمل عمله. لذلك كنت أقف يومياً أشاهده وهو يدير هذا المحرك أو ذاك، أو يضغط على هذه الإشارة أو تلك، مما جعلني أظن انني أصبحت سائقاً ماهراً حتى جاء يوم أتيحت لي الفرصة فيه لأختبر معلوماتي.

ففي ذات يوم، وبغير قصد، اصطدمت بأحد القادة وهو خارج من المركز، فقال لي بحدة:

"أتتقن قيادة حاملات القذائف أيها الجندي؟"

حييته التحية العسكرية وأجبته على الفور ودون تردد:

"نعم يا سيدي."

فقال: "هيا إذاً لنأخذ هذه المركبة إلى ورشة الإصلاح."

بالقرب منا توقفت المركبة، وكان علينا أن نسوقها مسافة ثلاثمئة متر إلى مقر التصليح. قفزت إلى مقعد السائق، وجلس القائد إلى جانبي. نظرت إلى لوحة القيادة أمامي فرأيت مفتاحاً، وتذكرت أنني شاهدت السائقين يديرون هذا المفتاح أولاً، فأدرت المفتاح، وهنا جأر المحرك ثم توقف. ترى أية دواسة من هذه الدواسات هي القابض (الدبرياج)؟ رحت أبحث عنها، وما هي إلا فترة قصيرة حتى اهتديت إليها، فعلمت انني نجحت مرتين. دُست على القابض وحركت غيار السرعة (الفيتيس) ثم رفعت رجلي بسرعة فقفزت الشاحنة قفزة قوية ثم سارت بنا.

نظر إليَّ القائد وقد حبس أنفاسه، ولكنه لم يقل شيئاً لعلمه ان حاملات القذائف يصعب سوقها لثقلها، ولكنه جلس خائفاً، ممسكاً بكلتا يديه، وشاداً رجليه. وقطعنا الثلاثمئة متر، وكدت خلالها أقتل أحد الضباط لولا ركضهُ السريع، وأخيراً وصلنا إلى الجراج.

وحدث ما كنت أخشاه! لم أكن أعرف دوّاسة الوقوف (الفرامل)، فكيف

أوقف المركبة؟ جربت كل دواسة وضغطت كل إشارة ولكن بلا فائدة. وكان من بين الأشياء التي ضغطت عليها دوّاسة البنزين، فما كان من المركبةَ إلا أن قفزت قفزة هائلة إلى الأمام، فضربت المركبة التي أمامها، وهذه بدورها ضربت الأخرى التي أمامها وهكذا حتى انتهت الضربات إلى السابعة، فتصاعد الدخان، وعلت القرقعة!

نظرت إلى القائد الجالس بجانبي، وإذا عيناه الواسعتان مثبَّتَتان أمامه، وعرقه يتصبب على وجهه. نزل من المركبة، وصلَّب يده على وجهه ومضى، دون أن ينظر إليّ أو يكلمني. فدنا مني أحد الضباط وأنزلني من المقعد بعنف قائلاً:

"ماذا دهاك أيها الجندي؟"

فأجبته: "سألني إذا كنت أتقن قيادتها، ولكنه لم يسألني إذا كنت أعرف كيف أوقفها." ولحسن حظي، تصادف أننا سنرحل في اليوم الثاني إلى الجبهة لإسعاف فريق من جنودنا الفدائيين الذين يفقدون ثلاثة من كل أربعة جنود. طرنا إلى المقر الجديد عند الفجر. وللحال علمت خطأي في اختيار هذا العمل الفدائي، إذ أدركت أني سوف أستهدف بشراً – آباء وأخوة كأبي وأمي وأخوتي – وهم يختلفون تماماً عن تلك الأهداف الورقية، أو الخشبية التي تمرنت على إصابتها أثناء التدريب العسكري. فكرهت نفسي وتساءلت: "ماذا سأفعل؟ لمَ وكيف جئت إلى هنا؟" انتابني شعور مرير بالاشمئزاز لم أعهده في حياتي.

بلغنا خلال مسيرنا قرية نصف مأهولة، فتشجعنا لظننا أن الأعداء، ولو كانوا شيوعيين، لا يلغمون مكاناً فيه سكان، لا يمكن للبشر أن يصلوا إلى

هذا الحد من الوحشية، ولاسيما لأن انفجار الألغام، قد يقتل الناس أو يشلهم عن الحركة طيلة حياتهم. هذا هو الأمر الذي أخافنا خوفاً شديداً من المناطق الملغومة. وفجأة وجدنا أنفسنا في منطقة حشيت بالألغام ففزعنا وفقدنا وعينا، وقبل أن نتلقى أية أوامر رحنا نطلق الرصاص حولنا في كل اتجاه، حتى أصبح ما حولنا خراباً تاماً. ذهلنا أول ما رأينا القتلى وأخذنا نسير على غير هدى فوق الدمار الذي خلَّفته أيدينا. فماذا رأيت؟ عثرت على مشهد كدت أفقد له عقلي. هناك في أحد أطراف القرية، جلست امرأة تسبح بدمها، وطفلها بين ذراعيها. لقد قتلت الأم وطفلها برصاصة واحدة!

جن جنوني وكدت أنتحر، فاستبسلت بل استقتلت، وعُرفت ببطشي خلال السنتين التابعتين لأعوض عما اقترفته يداي. ابتعت قبعة من القش الأصفر ولبستها في جميع المعارك، فكانت رمز الجرأة والتحدي، وكأنني أصرِّح قائلاً: "هاأنذا! اقتلوني!" والتف حولي فرقة من الجنود، حذو حذوي، واتخذنا جملة "استبسل! افقد توازنك" شعاراً لنا، كتبناه على لافتة المخيم لنحرِّض الجنود الباقين. فجميع أعمالنا كانت بغير اتزان، إن حاربنا كانت حربنا كالمجانين، أو شربنا لم نكف إلا بعد السكر المخجل وفقدان الوعي، فننطلق من حانة إلى حانة نحتسي الخمرة بغير حساب ونقذف الزجاجات الفارغة من الشبابيك.

قضينا سنتين على هذا المنوال. فكنت إذا عدت إلى وعيي أتساءل: "لماذا أعمل كل هذه الأعمال؟" لماذا أسترسل هكذا في الشراب؟ ما المنفعة من هذا كله؟" ولكن، جواباً صحيحاً لم أجد. فكرت بقسيس الجيش، لعله يساعدني وينقذني من هذه الورطة. سألت عنه فقيل لي أنني سأجده في

مطعم الضباط. فقصدته وتحدثت إليه فقال: "لا تهتم يا صديقي، سوف تتخلص من هذه جميعها مع الوقت، ولكن تعال إلى خدمات العبادة قبل الذهاب إلى المعركة." بدت مشكلتي أمامه تافهة، فعاد إلى جلسائه، يخبرهم بما حدث.

وعدت إلى زملائي فعمدت إلى مراسلتهم وكنت قد وثقت ببعضهم فشاركتهم في السراء والضراء، وأخبرتهم بالفوضى التي قاسيتها، فكان جوابهم، جميعاً، واحداً: "كفاك يا أندرو انك تدافع عن وطنك. لا قيمة لشيء آخر."

شخص واحد فقط كتب أكثر من هذا، كان ذلك الشخص هو ثايل. تحدثت "ثايل" في رسائلها عن الشر والإثم، وكأنها تضع أصبعها على بؤسي وتعاستي. ولكنها تناولت الغفران فزادت من شقائي ذلك لأني انغمست في الشر انغماساً لا يخلصني منه مهما فعلت: فمهما شربت، أو حاربت، أو كتبت رسائل، أو قرأتها؛ لم يكن هنالك شيء يخفف من قبضة الخطية عني.

وذات يوم من أيام إجازتي في جاكارتا شاهدت قرداً صغيراً مربوطاً إلى عمود ضخم، جالساً على رأس العمود يأكل بعض الفواكه. مررت بقربه، فما كان منه إلا أن هبط على كتفي، وقدم إليّ جزءًا من البرتقالة التي في يده. ضحكت وهممت أن أكمل طريقي، فرأيت صاحب القرد يركض إليّ وقد صمم أن يغتنم الفرصة، فقال:

"القرد يحبك يا سيدي."

ضحكت ثانية، فغمزني القرد مرتين مكشراً عن أنيابه، مما قد يدل انه غاضب عليّ وليس محباً لي. فسألت: "وبكم؟" وهكذا اشتريت قرداً وأخذته إلى المخيم، فأعجب به الشبان الجنود وراحوا يسألون:

"أيعض هذا القرد؟"

أجبت: "يعض المخادعين فقط!"

لا معنى لقولي هذا. ولكن ما انتهيت منه حتى قفز القرد من بين يدي، متعلقاً بأخشاب السقف ووقف على رأس جندي ضخم مقامر، كان يربح أرباحاً أكثر من المعتاد في الآونة الأخيرة، وكان اسمه جان زفارت. حاول جان التخلص منه، فرفع يديه ليقبض عليه، وينزله عن رأسه ولكنه لم ينجح، مما أضحك جنود المخيم جميعهم.

صرخ جان قائلاً: "خلصني منه! خلصني منه!" مددت يدي محاولاً الإسعاف، فركض القرد إليّ. أما الجندي فنظر إليّ بعينين يتطاير منهما الشرر وهددني وهو يرتب شعره ويدخل قميصه تحت سرواله بقوله: "سأقتله! سأقتله!" فعلمت عندئذ أنني ربحت صديقاً وخسرت آخر.

لاحظت بعد بضعة أسابيع أن القرد يشعر بألم في معدته فتحسست المكان وإذا بيدي تقع على كتلة حديدية. ألقيته على سريري، وبكل خفة حلقت الشعر حول معدته لأرى ما يؤذيه. فإذا بطوق حديدي يلف بطنه. لعله وضع وهو صغير جداً وترك هناك، وكلما نما القرد وكبر، شعر بالضيق والألم اللذين يسببهما هذا الطوق. تجمع حولي الشبان الجنود لمشاهدة ما أفعل، فأخذت سكيناً خفيفة حادة، ورحت أقص الجلد، ليظهر

الحديد، والقرد صابر هادئ لا يبدي حراكاً، ينظر إليّ بعينين كأنهما مفعمتان بالشكر والتفهم، إلى أن استطعت أخيرا، وبعد جهد جهيد أن أنتزع الطوق وأريحه منه. شعر القرد فوراً بالراحة، فقفز فرحاً ووقف على كتفي، فسُرَّ جميع الواقفين ما عدا جان.

بعد هذا الحادث لم أنفصل عن القرد قطعاً، تعلق هو بي تعلقاً شديداً. رأيت فيه شبهاً كبيراً لنفسي. فكما تعذب هو من الطوق الحديدي وتألم، كذلك تعذبت نفسي من طوق الخطية والإثم، فقد قيَّدها وآلمها – ووَددت لو أجد من يريحني منه كما أرحت أنا قردي. كنت أصطحبه ساعات الفراغ وأيام العطل إلى الأدغال حيث نركض ونقفز معاً إلى أن يشعر بالتعب فيتعلق بسروالي، وأمد يدي لأحمله. وأحياناً، بعد الركض مسافة عشرة أميالٍ أو خمسة عشر ميلاً كنت أستلقي على العشب لأنام، فيتسلق القرد قمم الأشجار ليتسلّى مع أفراد جنسه التي ملأت الأغصان. وظننت يوماً أنني فقدته، ولكن ما ان نهضت من استلقائي واقفاً، حتى سمعت زعقة على الأشجار وسمعت حفيف الأوراق، وإذا القرد يعود إلى مركزه على كتفي فعدنا إلى الثكنة معاً.

عدت يوماً ضاحكاً مسروراً بعد الرياضة والتسلية مع القرد لأجد رسالة من أخي "بن" تنتظرني في غرفتي. تحدث بإسهاب عن جنازة، علمت فيما أنا أقرأ أنها جنازة والدتي. وقد أبرقوا يخبرونني ولكن البرقية لم تصل، فشعرت بالحزن المرير والدموع تكاد تنهمر من عيني، فوفرت للقرد بعض الماء وخرجت أركض على غير هدى، إلى أن شعرت بألم حاد في خاصرتي، وأحسست بفراغ أليم في نفسي لفقد والدتي. وخلال ذلك

الأسبوع اغتنم جان زفارت الفرصة، وانتقم من القرد. عدت ليلة من حراستي، فقابلني بعض الأصحاب بنبأ موت القرد قائلين: "أندرو، مات القرد."

فصعقت وصرخت: "مات! ماذا حدث؟ كيف مات؟"

"أمسك به أحد الزملاء من ذنبه، ولبث يضرب به الحائط إلى أن مات!"

"أي زميل؟ زفارت؟" فلم يجبني الجندي.

فسألت: "وأين القرد الآن؟"

"في الخارج بين الشجيرات."

خرجت أبحث عنه، فوجدته معلقاً في أحد الأغصان، ولازالت فيه نسمة حياة. التقطته وذهبت به إلى الثكنة. لقد كُسر فكه، وتمزق حلقه. حاولت أن أسقيه فانحدر الماء من الفجوة. نظر إليّ زفارت بغضب متحفز للقتال، ولكن الإعياء أخذ مني أثر صدمة بعد صدمة فلم أعره انتباهي ولم أخاصمه بل قصدت إلى معالجة القرد ليلاً ونهاراً. قطبت حلقه، وأخذت أسقيه مزيج الماء والسكر، وأفرك عضلاته وأمسح بيدي على فرائه، وأدفئه، وأتحدث إليه باستمرار. هذا حيوان اشتريته وحررته من أسره فأحببته، وسأناضل وأكافح لشفائه. ولن أتخلى عنه بسهولة.

أخيراً، وبعد جهد شاق، امتثل للشفاء، فتناول قليلاً من الطعام وحبا فوق سريري، ثم جلس على فراشي يلغط معاتباً إذ تأخرت في إطعامه. وهكذا، بعد شهرين كاملين، عاد إلى طبيعته، وعاد إلى مشاركتي في الركض،

والرياضة، وتسلق الأشجار. غير أنه لم يسترجع ثقته في الناس، فأصبحت الثكنة مقر الخوف والفزع بالنسبة له، يظل يرتجف مضطرباً إلى أن يجلس على يدي ويلف ذنبه حول ذراعي، ويدفن رأسه في صدري.

تلقينا يوماً أوامر بهجوم جديد على الأعداء، فرجوت الزملاء أن يتكرم أحدهم ويأخذني في سيارة عسكرية إلى الغابة لأطلق سراح القرد: "أود أن أطلق سراحه، قبل المسير إلى الجبهة، هل من يتبرع بالذهاب معي؟"

"أنا ذاهب."

التفت لأرى صاحب الصوت وإذا بزفارت واقفاً بجانبي. حدقت فيه ملياً لأتحقق قوله ثم قلت: "حسناً! هيا بنا" في الطريق أفهمت القرد سبب إطلاقه، وعدم مرافقته. توقفنا، فوضعته على الأرض وهو ينظر إليّ بعينيه الصغيرتين الحكيمتين، كأنه يعبر عن إدراكه الكامل وعندما هممنا بالرجوع لم يحاول القفز إلى السيارة أو العودة معنا، بل جلس على الأرض ينظر إلينا حتى توارينا عن الأنظار. وبحلول الفجر ارتحلنا إلى مقرنا الجديد، دون رجوع إلى القديم. لذلك سررت بإطلاق سراح القرد.

كانت إصابة مفاجأة، وعديمة الألم في بادئ الأمر. لم أتحقق ماذا حدث ولكن علمت أن الأعداء أحاطوا بنا من ثلاث جهات فوقعنا في كمينهم. أما لماذا أصبت في كاحلي وليس في قبعتي القش، فأمر لا أعرف له تفسيراً. كل ما أذكره أنني أثناء الركض السريع سقطت إلى الأرض، وعجزت عن الوقوف. ثم رأيت الدم يتدفق من ثقبين في حذائي الحربي،

فقلت: "أُصبت." قلتها بصوت هادئ، يخلو من الهياج أو الحماس، كأن الأمر عادياً متوقعاً.

فحملت إلى خندق، حيث عولجت ثم وضعت على محمل لأنقل بحذر ولبست القبعة الصفراء على رأسي إذ رفضت خلعها، مع أنها اجتذبت الأنظار وكادت تحترق حينما اخترق الرصاص أعلاها. لم يعد يهمني شيء، فقد كنت أستميت في القتال.

ومرّت ساعات طويلة أجريت لي بعدها عملية خطيرة دامت ساعة ونصف ساعة، سمعت خلالها الأطباء يتشاورون بشأن بتر القدم أو عدمه، وطلبت إليّ الممرضة خلع القبعة الصفراء، ومرة أخرى رفضت، حتى تدخل الطبيب بقوله:

"ألا تعلمين معنى هذه القبعة أيتها الممرضة؟" إنها شعار الفرقة، هذه الفرقة استماتت في القتال ففقدت عقلها." ولكني لم أفقد تفكيري ولم أفقد عقلي، وليتني فعلت! غير أني فقدت قدمي وحسب، هذه هي السخرية بعينها: خسارة القدم لا خسارة الرأس.

هذا حادث لم يكن بالحسبان، حسبت حساب القتل، حسبت حساب التخلص من المهزلة البشرية. أما إصابة كهذه، أو أن أعيش مقعداً بقية حياتي، فهو أمر لم أضعه في الحسبان.

(٣)

حصاة في جوزة الهند

استلقيت على سريري في المستشفى وقدمي تؤلمني، لا أستطيع الحركة بسبب ثقل الجبس. وأخبرني الأطباء أنني لن أعود إلى المشي دون عصا، مما زاد همي وشعوري بالفشل. وزملائي؟ مايزالون في ميدان المعركة: بعضهم قتلوا، وبعضهم جرحوا، وكثيرون يزورونني في المستشفى في أوقات فراغهم. فتسليت إلى أن قلت زياراتهم بعد أن قدموا إليّ خدمتين غيَّرتا مجرى حياتي فيما بعد.

كانت أولى هاتين الخدمتين إرسال إحدى الرسائل التي كتبتها لثايل، وتركتها في جرابي حسب العادة. فقد اعتدت أن أكتب لها مشاهداتي والحوادث التي تقع على الجبهة، فأضع فيها شعوري كله، وأودعها كلماتي البذيئة، واصفاً لها أموراً لا أستطيع التحدث عنها أو ذكرها لبشاعتها وقباحتها، ثم أحرق الأوراق وأنسى ما كتبت.

هذا ما حدث في الآونة الأخيرة قبل إصابتي. بدأت أخط رسالة من تلك الرسائل وأبثها القذارة التي حولي والتي أشعر بها، وتركتها في جرابي دون أن أنهيها. وبينما يفتش أحد الزملاء المحبين الجراب قبل إعادته، وجدها، فبحث عن عنوان "ثايل" في لائحة العناوين، وأودع الرسالة في البريد ظاناً أنه يُشكر على فعله. ثم زارني في المستشفى وقال: "أيها

الرجل! لم أر في حياتي لائحة مراسلة كلائحتك! ماذا تفعل؟ أتكتب لكل عائلة فيها صبية جميلة في هولندا؟ صرفت نصف ساعة أبحث عن عنوان صديقتك ثايل. انتبه أيها الرجل لعلك بهذا العمل تشن حرباً ثانية."

تألمت ألماً شديداً لهذه المفاجأة، ويبدو أنه ظهر على وجهي، فما كان من الزميل إلا أن قام عن مقعده معتذراً وهو يقول: "عفواً أيها الصديق. لم أظن أنك مازلت متألماً هكذا. لعلً من الأفضل لي أن أعود أدراجي، على أن أزورك عن قريب." حاولت أن أذكر ماذا احتوت تلك الرسالة. لقد بدأتها هكذا:

"محبوبتي ثايل

أشعر بالوحدة المريرة هذا المساء. ليتك كنت بقربي لأنظر إلى عينيك الجميلتين وأرى فيهما بعض عطفك عليّ، أو على الأقل عدم لومك إياي، طلبت إليّ أن أصلي، ولكنني شتمت عوضاً، واستخدمت كلمات بذيئة لم أكن أعرفها في هولندا. وكلما ضحك الزملاء من بذاءتي تشجعت وازددت في القذارة. لست ذلك الشاب الذي تعهدين، بل تغيّرت كثيراُ. كنت أتضايق لهذه الحرب، ولهذا الكم من القتل من حولي؛ ولكني الآن لا أهتم بشيء. لقد انخرطت في قتل الناس، رجالاً ونساءً وأطفالاً! لا أميل إلى معرفة الله ولا رجاء لي فيه: فعوضاً عن الذهاب إلى الكنيسة نهار الأحد، أذهب إلى الحانة، وأحتسي الخمرة حتى أفقد وعيي ..."

لا أذكر المزيد، ولكني أعلم أنني كتبت أقبح من هذا، فرُحت بمزيد من الألم والضيق أحاول أن أتذكر أكثر، ولكن بلا جدوى. على أي حال، عزيت نفسي بقولي: "لا بأس! خسرت صديقة من بين الصديقات." غير

أن "ثايل" لم تكن مجرد صديقة، بل أكثر من ذلك بكثير. وهممت أن أتخيل "ثايل" تقرأ الرسالة، فحاولت طرد هذا التفكير من مخيلتي.

ألقيت بذراعي في ضيق، فإذ بها تقع على الكتاب المقدس الموضوع بجانبي. أما الخدمة الثانية التي أسداها إليّ بعض زملائي فهي كما يلي: فقد وجد جان زفارت كتاب والدتي في قاع جرابي وجاءني به، قائلاً: "وجدت هذا الكتاب بين أمتعتك، ولا أدري ما إذا كنت تحتاجه أم لا." فشكرته على صنيعه، وتناسيت الكتاب، ولولا الراهبات اللواتي كُنَّ يخدمنني لأهملته إهمالاً كلياً.

كان المستشفى الذي وضعت فيه تحت إدارة راهبات الفرنسيسكان اللواتي أشرفن على خدمة المرضى بمنتهى الرقة والحنان والمحبة. لم تفارق الابتسامة وجوههن وهن يكنسن الأرض وينظفن الحمامات ويبدلن ثياب المرضى، ويضمدن جراح المصابين، ويكتبن الرسائل. لم أسمع منهن تذمراً أو تأففاً. فسألت إحداهن يوماً، وهي تقوم بخدمتي، عن سبب سعادتها وسعادة زميلاتها، وروحهن الطيبة، وابتساماتهن العذبة، فأجابت: "سؤالك غريب يا أندرو!! ألا تعرف الجواب، وأنت شاب طيب من عائلة هولندية مسيحية؟ إنها محبة المسيح التي تدفعنا لخدمة البشر وتقوينا." برقت عيناها وهي تتكلم، فعلمت أن محبة المسيح كانت كل شيء في حياتها. وتابعت حديثها وهي تضع يدها باحترام على الكتاب المقدس القديم قائلة: "أظنك تشاكسني يا أندرو، فكتابك هذا يوفر لك الجواب الكامل."

وهكذا عندما وقعت يدي المرهقة على الكتاب، التقطته بعد إهماله مدة سنتين ونصف وحاولت قراءته. حفزني على ذلك سعادة الراهبات،

وسلامتهن، وتردد الصوت في داخلي "... كتابك هذا يوفر لك الجواب الكامل." وضعت الكتاب على صدري ورحت بأحد أصابعي أقلب صفحاته إلى أن بلغت سفر التكوين ١:١.

قرأت قصة الخليقة، ودخول الخطية إلى العالم، فبدا ما أقرأه أكثر معقولية في نظري مما كان يوم كان يقرأه لنا المعلم في الصف بعد ظهر كل يوم. استرسلت في القراءة، مهملاً مقاطع كثيرة، إلى أن انتهيت إلى العهد الجديد وتصفحت الأناجيل الأربعة، غير متفهم قيمتها تماماً؛ وأخذت أردد في نفسي: "أيمكن أن يكون هذا كله صحيحاً؟"

أعدت قراءة إنجيل يوحنا، وعند منتصفه، وصلتني رسالة لم أخطئ خط كاتبتها – ثايل. وبيد مرتجفة فضضتها وقرأت:

"المحبوب أندي" المحبوب! كلمة كتبتها لها عدة مرات ولكن على الرسائل التي أحرقتها. "المحبوب أندي، لدي هنا رسالة من صبي ظن أن قلبه تقسّى، ولكنه على وشك الانكسار، ومن دواعي فخري أنه عبَّر لي عن بعض هذا الانكسار" – أما ما تبع فكان ملخصاً وجيزاً جداً للكتاب المقدس "الذي فيه وحده يجد كسير القلب العزاء ومحبة الله."

تبعت هذه الرسالة أسابيع جميلة، أخذ كلانا يقرأ الكتاب المقدس في زاويتين من الأرض. فملأت صفحات من الأسئلة، أجابت "ثايل" عنها جميعها بمساعدة راعيها وبعض الكتب واختباراتها الشخصية. انقضت الأشهر، وتماثلت قدمي إلى الشفاء، فحزّ في نفسي أنني لن أعود قادراً على متابعة هوايتي – الركض. فوجدت نواة قاسية في قلبي للكراهية والبغضاء، عكس ما وصفته لي "ثايل" وما شاهدته في الراهبات حولي.

وحالما سمح لي بأن أغادر الفراش وأتمرن على المشي، كنت أسير متألماً، بعد العشاء؛ إلى الحانة، وأظل أشرب الخمر حتى أفقد وعيي، وأتناسى وضعي. لم تقل الراهبات شيئاً مباشرة، ولكن في إحدى الأمسيات، حملت إليَّ أعزهن، الأخت "باتريس"، كرسيها وجلست إلى جانبي قائلة: "لدي قصة أرويها لك يا أندرو. أتعرف كيف يصطاد الناس القرود؟"

أشرق وجهي عند سماعي شيء يتعلق بالقرود فأجبت بحماس: "لا، أخبريني."

"يعرف الناس أن القرد لا يتخلى عن شيء يريده، ولو كلفه ذلك فقدان حريته. لذلك يثقبون أحد أطراف قشرة جوز الهند ويضعون فيها حصاة، ثم يلقونها تحت الأشجار التي عليها القردة ويختبئون. عاجلاً أم آجلاً يقصدها أحد القرود، فيهزها ويسمع قرقعتها، ثم ينظر إلى داخلها. أخيراً يُدخل فيها يده ويقبض على الحصاة التي فيها، وبالتالي يعجز عن إخراج يده. ولن يتخلى عن الحصاة ليتسنى له استعادة حريته ظناً منه أنها غنيمة. هذه أسهل وسيلة للاستيلاء على من يسلك هذا السلوك."

نهضت الأخت باتريس ووضعت الكرسي مكانه بجانب الطاولة. توقفت قليلاً ثم نظرت إليّ وقالت: "أتقبض على شيء يا أندرو ولن تتخلى عنه، حتى على حساب حريتك؟" وذهبت. فهمت قصدها من هذه العظة، وعزمت على إهمالها! إنها ليست لي.

كان اليوم التالي يوماً عظيماً بالنسبة إليّ، سأبلغ فيه الحادية والعشرين من عمري، وستغادر أندونيسيا باخرة تقلني إلى بيتي. لذلك دعوت أصدقائي

الذين رافقوني إلى هذا المكان منذ ثلاث سنين، وقد أصبح بعضهم عُرجاً وبعضهم صُماً، وعددنا ثمانية، دعوتهم إلى حفلة وداع، فصخبنا وملأنا الدنيا ضجيجاً، وسكرنا لمرة أخيرة.

(٤)

ليلة عاصفة

ركضت شقيقتي "كلتجي" عابرة الجسر لمقابلتي، فعانقتني، والتفتت خلفها تصرخ لأختنا قائلة: "أسرعي يا "مرتجي" أخبري البابا أن أندرو عاد إلى البيت."

في لحظة من الزمن اكتظّت الحديقة. "مرتجي" لم تطع أوامر "كلتجي" ولم تدعُ البابا. بل ركضت نحوي لتقبلني. وهكذا أخي "بن" وخطيبته، وقد أجّلا زواجهما حتّى أعود. وشاركنا "أري" زوج "كلتجي" الجديد، أما شقيقي الصغير "كرنيليوس" فسلّم عليّ بشوق ومحبة، وهو يحدّق في العصا التي بيدي، حزيناً للألم الذي ينتابني. بين هذه الترحيبات والقبلات، هرول إليّ والدي مرحّباً، وعيناه مبللتان، فصرخ بصوته المرتفع قائلاً: "أهلاً بك يا ولدي أندرو."

أما "مرتجي" فنظرت إليّ وقالت: "سأرافقك إلى ضريح أمنا حينما تكون مستعداً للذهاب." فأجبت: "لنذهب الآن." كان المدفن يبعد خمس مئة متر تقريباً عن البيت، ولكنني وجدت صعوبة في السير حتى هذه المسافة القصيرة، فاقترضت دراجة والدي، ورفعت رجلي المصابة على المقعد وجررت نفسي جرّاً.

حزنت "مرتجي" وقالت: "ما أصعب حالتك يا أندرو!"

فأجبت: "لا يظن الأطباء أنني سأعود إلى المشي الطبيعي."

مازالت الأرض رطبة فوق ضريح والدتي، وقد وُضعَت أزهار حمراء على ترابه. وقفت هنيهة، ثم عدت و"مرتجي" إلى البيت بصمت تام.

ذلك المساء، بعد أن حل الظلام، صرّحت برغبتي في شيء من الرياضة. لم يتبرع أحد بمرافقتي. لقد علموا قصدي. خرجت من البيت، وأخذت دراجة والدي قاصداً المدفن. كان البدر مشرقاً فوجدتُ الضريح بسهولة. جلست على حافته، ورحت أناجي والدتي بشكل عادي طبيعي، فقلت:

"ها أنذا قد عدت يا أماه. لقد قرأت كتابك! قرأته في الآونة الأخيرة." وطال السكون، فعدت إلى المناجاة قائلاً:

"ماذا أفعل الآن يا أماه؟ لا أستطيع السير ولا مسافة مئة متر دون التوقف مرة ومرتين لشدة الألم. هل أنضم إلى قسم المقعدين في المستشفى؟ ماذا أنتفع لو فعلت؟ لم أعد أنفع لشيء. أشعر بأني أثيم ومجرم. مجرم لأني قضيت تلك السنين في الجبهة. إني نادم يا أماه نادم! ماذا أفعل؟ أجيبيني."

سرعان ما بدأ نور القمر يملأ المكان، والهواء يهب بارداً علينا جميعاً، أقصد الأموات، ونصف الأموات نظيري. وبعد نصف ساعة نهضت وجررت نفسي إلى البيت.

كانت "كلتجي" بانتظاري في المطبخ وهي تخيط بعض الثياب، فجلسنا نتحدث، ثم سألت دون أن تنظر إلى وجهي: "أين تود النوم يا أندرو؟ أتستطيع أن تتسلق السلم؟"

رأيت السلم، ونهضت بسرعة محاولاً تسلقه. ودمعت عيناي وتصبب عرقي من الألم، فأبقيت وجهي نحو السقف كي لا يراني أخوتي. وجدت سريري على حاله، فاستلقيت عليه مدة طويلة كدت خلالها أطلق لدموعي العنان، ولكن أيجوز لشاب في الحادية والعشرين أن يبكي؟ أخيراً استسلمت للنوم وأنا أندب حظي.

استيقظت صباحاً وخرجت متوكئاً على العصا، أتفقد أصدقائي من أهل القرية. كانوا أدباء ولطفاء، ينظرون بعيون كأنها غير راضية عني، فيسألون: "ماذا فعلت هناك؟ هل أصابك أذى، وأصيبت قدمك في الجزر الشرقية؟" فهمت من حديثهم وأسئلتهم أن شعب هولندا لم يحبذوا هذه الحرب. فهي حرب فاشلة، خسرتها البلاد، وصار من الواضح أن أندونيسيا ستحصل قريباً على استقلالها. لذلك صار من الأفضل لنا أن نتظاهر بمنحها استقلالها عن طيب خاطر.

خرجت من البيت، ولسبب لا أدريه قصدت بيت السيد والسيدة "وتسترا". وجدتهما في البيت وقبلت دعوتهما لتناول فنجان قهوة معهما.

سألني السيد "وتسترا": "هل قمت بالمغامرة التي توقعتها يا أندرو؟"

أجبت وأنا أنظر إلى الأرض: "ليس تماماً يا سيدي."

"إذاً علينا أن نستمر في الصلاة."

"كي أغامر؟" شعرت بالغضب الشديد يتفشى في أعضائي فقلت: "إنني الآن مستعد تمام الاستعداد لأية مغامرة مهما كانت، فما إن تدعوني واحدة حتى أهُب من تلقاء نفسي لأجيب نداءها."

خجلت للتسرع في هذا الجواب، فنهضت ومضيت عالما أنني خسرت صداقتهما. "كيز" كان من بين الأشخاص الذين وددت أن أراهم. أسرعت إليه، فوجدته جالساً في بيته منكبًا على كتب كثيرة. حييته وجلست، ثم التقطت أحد الكتب أتفحصه، فدهشت لكونه أحد كتب اللاهوت.

سألت: "ما هذا يا كيز؟"

تناول "كيز" الكتاب من يدي وقال: "اكتشفت واجبي في الحياة، وماذا عليّ أن أعمل."

فقلت وأنا أكاد لا أصدق ما تراه عيني، وكأني أعلم بما سيجيب: "يا لك من محظوظ. وما هو؟" فأجاب: "عزمت أن أكون خادماً، والقس "فاندرهوب" يوجهني". أخجلني "كيز" فنهضت وانصرفت بأسرع وقت ممكن.

لم يعجبني دار النقاهة العسكري، ولم تعجبني الأعمال التي فُرِضت على جرحى الحرب. دربونا على صنع الفخار، فكنا نأخذ الطينة، ونضعها على محور العجلة ثم ندير العجلة، وبأصابعنا نعمل منها شكلاً مفيداً. كم من المرات ضجرت ويئست لعجزي عن إيجاد محور العجلة! فكنت أمسك الطينة، وأضرب بها عرض الحائط، إفراجاً عما في نفسي من كبت.

أُعطيت أول أجازة، فانتهزتها لأرى "ثايل". ركبت السيارة، وكل تفكيري أنها ازدادت جمالاً. فقد صار شعرها أشد سواداً، وعيناها أكثر تألقاً، ولونها أنصع بياضاً حتى بدت في نظري أجمل فتاة على الأرض. سلمت

عليها، وضغطت على يدها، حتى على مشهد من والدها الذي رحب بعودتي وهز يدي هزة شديدة، قائلاً: "أهلا برجوعك إلى البيت، مرحباً بك يا أندرو. حدثنا عن الجزر الشرقية."

بعد وقت قصير، خرجت مع "ثايل" إلى الميناء حيث صرفنا فترة بعد الظهيرة في ذلك اليوم. حدثتها عن عودتي إلى البيت، وعن شقيقتي "كلتجي" وزوجها، وقرب موعد زواج شقيقي "بن" ودار النقاهة العسكري، وكرهي لعمل الفخار. أخيراً حدثتها عن حياتي الدينية، ذاكرا أنني قد تراجعت كثيراً في حياتي الروحية ولم أعد أهتم بها قطعاً، عالماً أن مصارحتي هذه ستؤلمها وتشعرها بالخيبة.

استمعت إلى حديثي وعيناها على الميناء، وقالت: "ولكن الله لم يتراجع." ثم ضحكت وقالت: "أتخيلك كإحدى كتل الطين التي تشكلها يداك يا أندرو. إن لله قصداً في حياتك، وهو يحاول أن يضعك على محور العجلة تماماً، ليشكل منك وعاء حسب خطته، ولكنك تقاوم إرادته وتحاربها." ثم استدارت ونظرت إليّ نظرة تحدٍ: "لعلك لا تعلم، ولكنه قد يصنع منك إناء مدهشاً مفيداً."

أخفضت نظري، وأبديت اهتماماً ببقايا السيجارة التي كنت أفركها بين أصابعي وسألت: "ماذا مثلاً؟" فقالت وهي تعيد بقايا السجائر التي دخنتها إلى منفضة سجائر: "كم علبة سجائر تدخن في اليوم يا أندرو؟"

أجبت: "لا أدري." كنت أعلم أنني استنفد ثلاث علب يومياً.

فقالت: "ابتدأت بالسعال يا أندرو، وهذا يضرك!"

"لعلك تخترعين وسائل لإصلاحي، أليس كذلك؟" قلت هذا عن غير قصد مني. لماذا أُفسد كل شيء؟ كنت أشعر بالغربة عن كل شيء وكل إنسان، حتى عن "تايل". إنها لم تختبر الألم الشديد، ولم تجبر على الكبت لإخفاء الدموع التي كادت تنهمر لشدة الألم. لم تختبر الذل الذي شعرت به حينما نهضت سيدة في الأتوبيس لتمنحني مقعدها لعجزي عن الوقوف. فارقت "تايل" في المساء، وأنا أعلم أنني قلت أشياء لم أقصدها، وأمسكت عن أشياء وددت أن أتحدث عنها.

انقضى شهران لم أسمع خلالها شيئاً عن الدين، وبعد نهايتهما اقتربت مني حسناء غير "تايل" بهذا الصدد.

كان ذلك في وضح النهار، في أحد أيام شهر سبتمبر العاصفة. بعد التمارين الرياضية جلسنا على أسرّتنا نقرأ ونكتب الرسائل حينما دخلت الممرضة تخبرنا عن زائرة. لم أعر الأمر اهتماماً حتى سمعت زملائي يصفرون إعجاباً. التفت وإذا الحسناء اجتذبت أنظارنا جميعاً تقف بالباب وقالت: "لن آخذ من وقتكم، ولكنني أود أن أدعوكم جميعاً إلى حضور اجتماع في الخيمة هذا المساء، حيث أعددنا لكم مرطبات كثيرة."

فسألها أحدهم: "ومن أي نوع؟" وامتلأ الباقون حماساً، وصرخوا قائلين: "أخبرينا بالمزيد ... المزيد."

"ستنتظركم السيارة عند الباب. وأرجو أن أراكم جميعاً." قالت هذا وانصرفت. وما إن دقت الساعة السابعة مساء حتى تجمعنا، وحلقنا ذقوننا، ورتبنا هندامنا، ووجدنا أنفسنا منتظرين قدوم السيارة. سررنا جداً لهذه الدعوة، أولاً لخروجنا من دار النقاهة، وثانياً لانفلاتنا على الشرب،

فبعد أن علمنا نوع مرطبات الخيمة، احتسينا نصف محتويات زجاجة الخمرة التي بين أيدينا، قبل قدوم السيارة والنصف الثاني على مقاعد الخيمة الخلفية.

هزأ الكثيرون من مجوننا، أما قادة الاجتماع الانتعاشي فلم يهزأوا. قام رجل من بينهم ذو وجه نحيل وعينين ثاقبتين – شكل أبغضه – قام ووقف على المنصة قائلاً: "بين الجماعة رجلان مقيدان بقيود لا قوة لهما على حلها." ثم أغمض عينيه، ورفع صلاة حارة استحث بها الله كي يخلص نفسينا، أما نحن فرحنا نخنق ضحكنا الذي كاد يفجرنا، أخيراً بدأ الجمهور بترنيم خشوعي تعبدي، وصف الرجل مجموعتنا "الأخوة الذين تسلطت عليهم أرواح شريرة،" عند هذا الحد، لم نعد نستطيع أن نمتلك شعورنا، فانفجرنا بالضحك، والاستهتار، والزعيق. شعر الرجل بلا جدوى الاستمرار في الصلاة، فطلب إلى فريق الترنيم أن يرنموا. فاختاروا ترنيمة: "أطلق شعبي" واشترك الجمهور في ترنيم القرار "أطلق شعبي" ورددوه عدة مرات في الخيمة.

انتهى الاجتماع، فعدنا إلى دار النقاهة، ومازالت هذه الكلمات تدوي في ذهني: "أطلق .. أطلق."

أيمكن أن تكون ترنيمة بسيطة سبب خلاص لنفسي؟ ترنيمة سمعتها دون أن أرنمها؟ أليس من الغباوة أن أفكر بأمر كهذا؟ ومع ذلك كلّه، في اليوم الثاني، أثناء عملي على دولاب الفخار، أخذت الطينة كالعادة، ووضعتها على محور الدولاب، ورحت أجيد تشكيلها بصبر وتمهل، فأنتجت زهرية جميلة. تناولت قطعة أخرى، وهذه أيضاً، تشكلت بين يديّ، دون جهد أو عناء، وعاء حسب مخيلتي.

استغربت الحادث جداً، وأكثر منه أنني عندما كنت أتسلى ببعض المجلات في دار النقاهة، تناولت كتاب والدتي المقدس الذي أهملته منذ عدت إلى هولندا وأخذت أقرأه، وأفهم ما أقرأ. وجدت أن المقاطع التي صعب عليّ فهمها قبلا، أصبحت الآن سهلة ومفهومة. استرسلت في القراءة، بلذة وتفهم، حتى دعاني أحد زملائي لتناول الشاي وقد حان أوانه دون شعوري بذلك.

بعد أسبوع، سمح لي بالذهاب إلى البيت لبضعة أيام، ومازلت أقرأ الكتاب بشغف، فكنت أستلقي على سريري، في غرفتي، مفكراً. تأتيني شقيقتي "كلتجي" ببعض الطعام، فتنظر إلى وجهي لتفحص حالي، ثم تعود أدراجها دون أن تتفوه بكلمة.

ماذا حدث لي؟ ليس القراءة فقط، بل بدأت أذهب إلى الكنيسة صباح كل أحد، مما لفت انتباه أهل القرية كلهم، وأكثر من ذلك، ذهبت إلى اجتماع مساء الأربعاء، ومساء الأحد وأي يوم آخر من الأسبوع عقد فيه اجتماع ديني.

في نوفمبر عام ١٩٤٩ تركت الجيش وعدت إلى البيت. تمكنت بالدريهمات القليلة التي ادخرتها أن أشتري دراجة، وأتدرب على ركوبها رغم كاحلي المؤلم. رحت أحضر كل اجتماع أسمع عنه: الاثنين اجتماع في قاعة جيش الخلاص في "الكمار"، الثلاثاء اجتماع معمداني في مدينة أمستردام، وهكذا، إلى أن أصبح حضوري الاجتماعات يومياً. كنت أركز كثيراً على ما يقوله الواعظ، وأخط بعض الملاحظات، ثم أصرف صباح اليوم التالي في البحث عما كتبته لأتحقق من صدقه.

وفي ذات يوم اقتربت مني "مرتجي" قائلة: "أندرو، هل أصارحك بأمر؟"

جلست في مقعدي وقلت: "طبعاً يا "مرتجي"! ما هو؟"

"إننا قلقون عليك، فأنت تصرف هذه الساعات الطويلة وحدك في عزلة عن الجميع، تقرأ كتابك المقدس، وتذهب إلى الكنيسة كل ليلة! هذا أمر غير طبيعي! ماذا حدث لك؟!"

ابتسمت وقلت: "لا أدري، وليتني كنت أدري."

فقالت: "جميعنا قلقون على حالك، ولاسيما الوالد. إنه يقول - وتوقفت كأنها تبحث عن الكلمة المناسبة - هو يقول: إن ما أصابك هو اضطراب عصبي من جرّاء خوضك الحرب." ذهبت وتركتني أفكر في ما قالت. هل أصبحت في خطر ديني؟ هل من الممكن أن أصير إنساناً متعصباً لدين ما؟ هل أغدو كأولئك الذين سمعت عنهم ممَّن فقدوا عقولهم وطفقوا يتلون آيات من الكتاب على مسمع كل من يلتقونه؟ هل أصبح كهؤلاء؟

ولكني لن أتراجع عن تصرفي. لبثت أنتقل من كنيسة إلى كنيسة ومن اجتماع إلى اجتماع، أسمع، وأدون، وأدرس، وأقتبس. وصلتني رسالة من أحد زملاء دار النقاهة يدعوني فيها إلى حفلة شراب كحفلاتنا المعهودة. لم أجبه مع أني لم أقصد ذلك. ووجدت رسالته بين صفحات كتاب سيرة هدسون تايلور. ومن الجهة الأخرى وجدتني أقضي كثيراً من وقتي مع صديقي "كيز" ومعلمتي القديمة الآنسة "ميكل"، و"آل وتسترا"، وطبعاً مع "تايل". كنت أذهب إليها كل أسبوع، فنجلس داخل الدكان لشدة البرد، نبحث في ما سمعته أو قرأته.

ابتهجت "تايل" أشد ابتهاج بادئ الأمر للتغير الذي حصل في حياتي، ولكن الخوف تسرب إلى قلبها تدريجياً لكثرة حضوري الاجتماعات فقالت: "ألا تظن أنه من الأفضل أن ترتِّب وقتك يا أندرو؟ فاسترح قليلاً، أو اذهب إلى السينما بين الحين والآخر، أو اقرأ كُتُباً أخرى." لم أعبأ باقتراحاتها. لم يعد يهمني شيء سوى اكتشاف الحقيقة التي كنت أبحث عنها. والعمل؟ لم أجد عملاً بعد! ولذلك لم أستطع أن أصارح "تايل" بأحلامي قبل أن أجد عملاً ارتزق به، ولذلك رحت أبحث عن عمل.

قبل أن أوفَّق في العثور على وظيفة، حدث شيء أهم رغم بساطته غيَّر مجرى حياتي كله، وعمل في نفسي أكثر جداً مما عملت تلك الرصاصة التي أصابت كاحلي قبل سنة. كنت مستلقياً على سريري، ذات ليلة عاصفة، ويداي تحت رأسي، أنظر إلى سقف غرفتي وأشد الغطاء إلى جسدي لشدة البرد، فأسمع هطل المطر، وقرقعة البرد، وأصواتاً أخرى مع الريح، يتردد في عقلي صوت الممرضة الأخت "باتريس": "القردة لا تفلت من يدها ..." والترنيمة التي سمعتها في الخيمة: "أطلق شعبي." ففكرت: ماذا دهاني؟! ماذا اعتراني؟! بِمَ أنا متعلق؟ ماذا يتعلق بي؟ ما الذي يحرمني من حريتي؟"

كان الجميع نياماً. أما أناء ويداي تحت رأسي وعيناي نحو السقف، فتخليت فجأة عن أنانيتي، تخليت عن نفسي، وبإرادة جديدة حولت نفسي إلى الله – حولت إرادتي، ومغامراتي، وجميع أهوائي، لم يكن إيماني قوياً ولكن كل ما فعلته هو انني اتجهت نحو الله قائلاً: "يا رب إن أريتني الطريق فأنا مستعد لأن أتبعك. آمين."

كان هذا كل شيء، بمنتهى البساطة والسهولة.

(٥)

الخطوة الحاسمة

نمت تلك الليلة وأصوات العاصفة تدوي في أذني. ومع أنني قررت ألاّ أدافع عن نفسي فيما بعد، إلا أنني شعرت بالهدوء والسلام. استيقظت صباح اليوم التالي وقلبي مفعم بالفرح. عليّ أن أبوح لأحد بهذا السر، ولكن ليس لعائلتي، فهم قلقون عليّ. فلم أجد أمامي غير "آل وتسترا" و"كيز". نعم، إنهم الأشخاص المناسبون، وعلى الفور هتف السيد "وتسترا" قائلاً: "شكراً للرب". شعرت بالقلق بادئ الأمر، ولكن نبرة صوته أعادت إليّ الطمأنينة. لم ير السيد "وتسترا" وزوجته في عملي أي شذوذ، بل طفقا يتحدثان عن الولادة الجديدة، وبالرغم مما قالاه لي أحسست أنني خطوت خطوة على طريق معبَّدة، سار عليها كثيرون من قبلي.

أما "كيز" فأظهر سروراً مماثلاً، وابتسم من بين كتبه، ثم نظر إليّ نظرة الباحث المتفهم وأشار إلى كتاب ضخم بين كتبه قائلاً: "هذا الكتاب يصف ما حدث لك، ويطلق عليه: التغيير العصيب، ويسعدني يا أندرو تتبع العمق الذي ينتج عنه." وأما "ثايل"، فلم تبد الانفعال ذاته، ولا السرور عينه. بل سألت: "أليس هذا ما يحدث للناس عقب كل قدّاس؟" غير عالمة أن مفاجأة شديدة ستواجهها عما قريب.

ذهبت مع "كيز" بعد بضعة أسابيع إلى أمستردام لسماع السيد "دونكر"،

أحد الوعاظ الهولنديين المشهورين. عند نهاية الوعظ قال السيد "دونكر" للحضور:

أيها الأحباء، أشعر أن أمراً مدهشاً سيحدث هذه الليلة. بيننا في هذا الاجتماع شخص سيقدم نفسه للعمل في الحقل الكرازي. قلت في نفسي: "... ما أبرعه من ممثل، لقد أجلس أحد أتباعه في مؤخرة الاجتماع، فما عليه الآن إلا أن يقفز إلى الأمام ليثير عواطف الحاضرين!" ولكن السيد "دونكر" لبث يرقب المقاعد الخلفية منتظراً، وقد ساد سكون رهيب، أزعجني كما أزعج "كيز" الذي همس بأذني قائلاً: "إني أبغض هذه الحركات! هيا بنا ننصرف." وقفنا بقصد الانصراف، ولكن الأنظار الموجهة نحونا، أعادتنا إلى الجلوس. فاستأنف السيد "دونكر" كلامه: "إن الله يعلم الذين هم له. لعل هذا الشخص شاب، تنتظره حياة محفوفة بالأخطار والمغامرات".

أدار الحضور أنظارهم إلى الخلف، كأنهم يحاولون تعيين الشخص المقصود ولسبب لا أفهمه قطعاً، وقفت و"كيز" تلبية للدعوة. فقال الواعظ: "هذان شابان لا واحد! هل لكما أيها الصديقان أن تتقدما إلى الأمام؟"

فما شعرنا إلا ونحن نسير وسط الحضور، لنمثل بين يديه، فنجثو أمامه، ويصلي طالباً بركة الله علينا. أما أفكاري فسبحت إلى "ثايل" وسمعتها تقول متألمة: "آه يا أندرو، حقاً إنك هويت بنفسك إلى الحضيض."

انتهت الصلاة، وطلب التحدث إلينا بعد انصراف الجميع. انصعنا إلى طلبه وجلسنا معه. فسألنا عن اسمينا فأخبرناه فردد: "كيز وأندرو!

أمستعدان للعمل الأول؟" وقبل أن نجيب بنعم أو لا أكمل كلامه قائلاً: "حسناً! أريدكما أن تذهبا إلى بلدتكما .. ومن أين أنتما؟" أجبنا: "من فتي"

فسأل: "كلاكما من فتي؟ حسناً! أريدكما أن تعقدا اجتماعاً في الهواء الطلق أمام بيت رئيس بلدية القرية. هذا يطلبه منكما الكتاب المقدس، فالرب يسوع أمر تلاميذه بحمل الرسالة إلى أورشليم أولاً، أي في وطنهم."

تفجرت هذه الكلمات في أذني! "أيعني هذا الرجل ما يقوله؟" ولكنه قاطع تفكيري بقوله: "لا داعي للخوف. ليس هنالك ما يخيف. سأرافقكما، وأبدأ بالكلام." لا أظنني أصغيت إليه. فقد كنت أمقت هذه الاجتماعات العامة مهما كان نوعها، غير أنني علمت أن موعداً تحدد لنا، وذلك بعد ظهر السبت في فتي، فأجبت دون تفكير: "نعم يا سيدي." وقد قصدت أن أقول: "لا"

وسأل السيد "دونكر" "كيز": "وأنت يا ابني؟!"

فأجاب: "نعم يا سيدي."

عدنا صامتين إلى بيتنا في أتوبيس، وكل يلوم الآخر في قلبه لهذه الورطة.

جاء بعد ظهر السبت وعُقد الاجتماع المعين، حضره أهل فتي جميعهم، من الكبير إلى الصغير، حتى الطلاب جاؤوا يتفرجون. وقفنا مع المبشر على منصة صغيرة من الصناديق، ننظر إلى وجوه الحضور المألوفة. كان بعضهم يضحك باستهتار واضح، وبعضهم يخفون ضحكاتهم التي تتفجر بعد دقائق، وقليلون – بينهم السيد "وتسترا"، والآنسة "ميكل" – هزّوا رؤوسهم مشجعين.

شعرت بكابوس يجثم على صدري، لم أصغ لما قاله المبشر أو "كيز". لكنني أحسست بنظرات المبشر تذكرني بدوري. تقدمت إلى الأمام، فدهشت للصمت التام الذي قابلني به الجمهور، فاصطكت ركبتاي خوفاً، ونسيت ما أعددته للمحاضرة. لذلك لم أذكر شيئاً غير قيود الخطية والإثم التي كبلتني في أندونيسيا. فتحدثت عنها وعن حالتي فيها، وتنقلي منها. ثم تحدثت عن شعوري ليلة العاصفة، وكيف أخضعت إرادتي، ووضعت نفسي عند أقدام الرب، فتحررت، ثم أعلنت عن رغبتي للخدمة مرسلاً.

حسبت ألف حساب وحساب لمقابلتي مع "ثايل". ماذا أخبرها؟ وكيف أخبرها؟ ماذا أقدم لها في حياتنا المقبلة معاً، لو أصبحت مرسلاً، ولا يبقى لدي سوى العمل الشاق، والدخل الضئيل، وربما عيشة غير لائقة في بلاد بعيدة؟ كيف أصارحها بهذه الأمور ما لم تكن هي مكرسة بكليتها لهذا المبدأ؟

وهكذا، ذهبت إلى "ثايل" وأخبرتها بكل ما حصل، ولاسيما بتلك اللحظة التي فيها قررت على عمل المستقبل، وبتأكدي أن يد الرب تقودني في كل هذه الأمور. سهل كل شيء على "ثايل" ماعدا وقوفي أمام أهل فتي وحديثي إليهم. غير أنها وافقت السيد "دونكر" فقالت: "عليك أن تبدأ بالتبشير في بيتك وقريتك. فلماذا لا تجد عملاً في ضواحي فتي؟"

فكرة جيدة ومحقة! طلبت من زوج شقيقتي أن يجد لي عملاً معه في شركة الشيكولاتة الكبيرة في "الكمار". فوعدني أن يقدمني إلى المدير ويثني على أخلاقي ومقدرتي. وفي الليلة عينها قبل أن أذهب إلى الكمار لأقدم طلباً لوظيفة، حلمت حلماً غريباً. رأيتني أتحدث إلى العمال في تلك

الشركة، وقد لاحظوا أموراً لا يعرفونها، فالتفوا حولي يسألونني عن السرّ. وما إن أخبرتهم، حتى أشرق الحق على وجوههم وجَثوا معاً مصلين. فأسفت عندما استيقظت من نومي.

جلست على المقعد الخشبي خارج مكتب مدير التوظيف، وقد عبق الجو برائحة الشيكولاتة. بعد لحظة سمعت صوتاً ينادي: "تفضل." دخلت فوجدته يبحث عن أوراقي إلى أن وجدها وقرأ عليها: "من جرحى الحرب" ثم نظر إليّ سائلاً: "ما بك؟" أجبته: "لا شيء يا سيدي! أستطيع القيام بأي عمل مثل غيري." عندما قال بلهجة المتسائل: "سريع الغضب، أليس كذلك؟" ومع ذلك استخدمني في الشركة، وأفهمني أن عملي هو عدّ الصناديق في إحدى قاعات التعبئة وإرسالها إلى غرفة التصدير.

قادني ولد نحيل، تبدو على وجهه امارات الإهمال والاستهتار، إلى مقرّي الجديد، حيث رأيت زهاء مئتي عاملة، تركني هناك وهو يقول: "هذا أندرو أيتها الفتيات."

عند هذا أخذن يصفرن، ويصرخن الواحدة للأخرى: "ما رأيك فيه يا "راعوث"؟ .. النظر لا يكفي للحكم عليه." تبع هذا حديث قذر، ولغة بذيئة لم أسمعها حتى بين الجنود الشبان.

قادت هذه الحملة الشعواء، فتاة اسمها "كريتجي Greetji" لا هم لها سوى الأمور الجنسية، فراحت تبدي رأيها في أي حيوان يليق بي. ما كان أعظم سروري عندما ملأت عربتي، فاستطعت الهرب بضعة دقائق، إلى غرفة التصدير التي بدت بعامليها الرجال شبه قدس في عيني.

لسوء حظي أُفرغت العربة بسرعة واضطررت أن أعود إلى القاعة الموبوءة: "لعلّه هنا حقل رسالتي يارب، ولكنني لا أقدر أن أتحدث إلى مثل هؤلاء الفتيات. فهنّ يحوّرن كل ما أقول." طرأت في ذهني هذه الأفكار في طريقي إلى الناظرة لأسلمها الوصل بالصناديق. توقفت فجأة عند ابتسامتها العذبة ونظراتها اللطيفة. كانت عيناها أجمل عينين رأيتهما، بلونهما البني، بل الأخضر. وهي فتية لا تتجاوز السابعة عشر، أو الثامنة عشر، تحتل مركز مسؤولية كبيرة في الشركة - فواتير العمل وإيصالاته. وعندما سلمتها الإيصال الذي بيدي، تحولت ابتسامتها إلى ضحكة لطيفة وقالت: "لا تعبأ بهن! هكذا يعاملن كل عامل جديد! ربّما يتحولن إلى غيرك بعد أيام!"

شكرتها من أعماق قلبي، وتناولت منها الطلب الجديد. لكن عوضاً عن العودة إلى قاعة عملي، وقفت أتأمل وجهها الجميل ببساطته، وخلوّه من التبرّج، خلافاً لأولئك اللواتي كن حولي، وقد طلين وجوههن بكل أنواع المساحيق. أطلت النظر في ذلك الوجه فبدا لي، بعينيه اللتين لا تظلان على لون واحد، أنني رأيته من قبل. غير انني لم أسألها عما إذا صدق رأيي. بل ذهبت إلى عملي.

طالت ساعات العمل، فشعرت آخر النهار بألم شديد في كاحلي، ومع جميع محاولاتي اضطررت إلى العرج، مما لفت نظر "كريتجي"، التي أخذت تهزأ بي بقولها: "ما بك يا أندرو؟ هل وقعت من الشرير؟"

أجبتها: "الجزر الشرقية"، آملاً أن أسكتها.

فرن المكان بصوت ضحكها وهي تصرخ: "لقد حظينا ببطل أيتها الفتيات! أحقاً ما نسمعه عن سوكارنو يا أندرو، أيحبهنّ صغيرات؟"

أخطأت وتسرعت في جوابي، لأنهن التففن حولي، يوماً بعد يوم يسألنني عن الشرق والحياة فيه، وهذا موضوع كنت أود لو أني أبقيته لحديث جديد معهن عندما ينفدُ كل حديث آخر.

خامرتني فكرة الاستقالة من هذا العمل عدّة مرات، وكم كنت أود أن أدير ظهري وأنصرف من هذا المكان، لولا الابتسامة الجميلة المشرقة خلف مكتب الإدارة. فكنت أذهب إليها بإيصال وبغير إيصال. كثيراً ما ضمنت الإيصال ملاحظة كتبت عليها: "إنك جميلة جداً اليوم." أو: "علام قطبت وجهك منذ نصف ساعة؟ ما بك؟" وأنا أفكر بما قد يدور بخلدها لسماع حديثنا في الغرفة المجاورة لها. مع هذا كلّه، لم تشغلني إلا فكرة واحدة: هي أنني أعرف هذه الفتاة وقد رأيتها تقوم بعمل كهذا؟ إنه لا يتناسب وطبيعتها؟

بعد شهر من العمل المتواصل في هذه الشركة، تشجعت ودنوت من هذه الفتاة قائلاً: "إني أشعر بالقلق عليك! أنت صغيرة وجميلة، وهذا المكان لا يليق بك، والعمل مع جماعة كهذه لا يناسبك." أجابت: "ما أغرب آرائك أيها الشيخ الهرم! إنهنّ طيبات. يفتقرن إلى المحبة والصداقة، ويعتقدن أن هذه هي الطريقة لاكتسابهما." ثم نظرت إليّ مترددة، كمن تتجسس مقدرتي على كتمان سرّها؟ وقالت: "أنا مسيحية حقاً! هذه هو السبب الذي يدفعني للعمل هنا."

دهشت وفرحت معاً لوجود هذه الزميلة، وفجأة ذكرت أين رأيتها! في دار النقاهة العسكري. كانت هي الفتاة التي دعتنا لحضور اجتماع الخيمة. وكم تعثرت في الكلام وأنا أخبرها بما حدث تلك الليلة وبعدها. وأنني مثلها، أتيت

إلى هذا المكان لأحمل رسالتي، فأصبحت وإياها شريكين في عمل واحد. علمت منها ان اسمها "كوري فان دام". بحكم وظيفتي ذهبت إليها تكراراً خلال النهار، لأسلمها الإيصالات وأستلم منها الفواتير. بحكم وظيفتي أيضاً تجولت بين الفتيات، أعد الصناديق، فأسمع مشاكلهن، ثم أخبر "كوري" بذلك فتتحدث إلى صاحبة المشكلة، سراً عندما تذهب إليها، وتخفف عنها.

تدريجياً أوجدنا نواة بين العاملات تهتم بالأمور الروحية. وكان المبشر البريطاني "سيدني ولسون Sidney Wilson" يعقد اجتماعات في آخر كل أسبوع، فحضرناها بانتظام. أول من رافقنا إلى هذه الاجتماعات كانت فتاة كفيفة مقعَدة، تدعى "آمي"، تعمل بجانب "كريتجي". تعلمت "آمي" القراءة بطريقة برايل للمكفوفين، وكانت بواسطة آلة صغيرة، تكتب بعض الرسائل لبعض أصدقائها. اشتريت آلة، ورحت أكتب عليها رسائل أمررها لـــ "آمي" على عداد الشيكولاتة المتحرك.

لاحظت "كرتيجي" هذه الرسائل، فراحت تغيظ "آمي" الصبورة فتصرخ قائلة: "آمي بكم يساومك هذه المرة؟" وطوراً: "لا تصدقيه يا آمي إنه خداع." عدت مرة من غرفة التصدير، ورأيت "آمي" تحاول حبس دموعها لشدة ما أغاظتها "كريتجي" التي رأتني أدخل القاعة، فهزّت رأسها تهكّماً ونظرت إلى "آمي" قائلة: "الرجال جميعهم على السواء في الليل! همهم واحد!! أليس كذلك؟"

تسمرت في مكاني عند سماع هذا القول. لقد صليت هذا الصباح كعادتي وطلبت إلى الله أن يرشدني إلى التكلم مع الآخرين. والآن سمعته يأمرني بشيءٍ لم أكن أتوقعه ولكنه كان على غاية الوضوح، قاطعته وزعقت من أول القاعة إلى آخرها: "كريتجي اخرسي! اخرسي نهائياً!"

ذهلت "كريتجي" لأوامري، وذهلت أنا أيضاً. على أني واصلت الأوامر فصرخت: "كريتجي ستنقلنا السيارة إلى مركز المؤتمرات يوم السبت الساعة العاشرة صباحاً، وأريد منك أن تكوني من ركابه." أجابت على الفور ودون تردد: "حسناً." ظننتها تمزح وانتظرت ردة الفعل، ولكن عندما عدت هذه المرّة إلى القاعة من غرفة التصدير، عجبت للهدوء والسكون السائدين فيها إثر ما حدث ولاحظت أن "كريتجي" هذه المرة كانت تحبس دموعها.

وفت "كريتجي" بوعدها، وركبت السيارة إلى المؤتمر صباح السبت، مصممة على أن تكون طبيعية. وعلمنا أن ذهابها ليس أكثر من رحلة استكشاف لما يحدث في المؤتمر، ولاسيما في الليل. ففضلت الوحدة، وراحت تعلق على كل ما يقال وتسخر بشهادات الذين اختبروا الرب، وبين الاجتماع والآخر كانت تقرأ مجلة إباحية بذيئة.

بعد ظهر الأحد عدنا بالسيارة نفسها إلى الكمار، حيث تركت دراجتي، لأعود إلى فتي. وكانت "كريتجي" تقطن بالقرية المجاورة، ففكرت: هل أتقدم وآخذها معي على الدراجة فأوفر عليها أجرة المواصلات! تشجعت وقلت: "كريتجي هل أقلك على دراجتي إلى بيتك، لتوفّري أجرة السيارة؟" فكرت بنفسها، وكأنها تزن قولي، أخيراً هزت كتفيها، وقفزت على مقعد الدراجة الخلفي. أما أنا فغمزت لـــ "كوري"، وقدت الدراجة.

عزمت أن أواجه "كريتجي" بحاجتها إلى الله، ولكن صوتاً في داخلي أمرني بالسكوت عن الله والأمور الدينية، وبالثناء على الطبيعة الجميلة والمناظر الخلابة وحسب.

أطعت الصوت رغم إرادتي، وحدثتها عن جمال الحقول والأزهار والطبيعة، وعلمت منها أنها هي أيضاً تعذبت وجاعت واقتاتت بجذور النباتات إبان الحرب، وذاقت مرّ الجوع. وصلنا إلى الشارع الذي تقطنه، فنزلت عن الدراجة وابتسمت لي ومضت.

التقيت "كوري" في اليوم التالي فسألتني: "عمّ تحدثت و"كريتجي" أمس؟ لا شك ان أمراً مريعاً حدث؟"

أجبت: "ماذا تقصدين؟ لم أقل كلمة واحدة، ومع ذلك لم تفه "كريتجي" ولا بنكتة واحدة بذيئة ذاك اليوم. عندما وقعت علبة الشيكولاتة من يد "آمي"، أسرعت "كريتجي" بنفسها والتقطت ما تبعثر منها. في فترة الغداء، أخذت طعامها وجلست إلى جانبي سائلة:

"أتسمح لي بالجلوس إلى جانبك؟"

فأجبت: "طبعاً! أهلاً وسهلاً بك."

فقالت: "أتعلم ماذا ظننت؟ ظننت أنك ستجبرني على قبول المسيح. وعزمت ألا أنصاع إلى إرادتك! ولكنك لم تفه بكلمة. والآن أتسخر بي إذا أخبرتك بما حدث؟"

أجبت: "طبعاً لا! تحدثي!"

واصلت حديثها قائلة: "أخذت أفكر بنفسي وسلوكي، فقلت لعل أندرو لا يقنعني بحاجتي إلى الخلاص لعلمه أنني تجاوزت الحد؟ ثم رحت أعيد النظر في حياتي، لعل شرّي تجاوز الحد حقاً! أيرضى الله بتوبتي، ويستمع إلى ندمي؟

أيسمح لي أن أبدأ حياة جديدة كما قال أولئك الشبان. على كل حال دعوته وطلبت إليه أن يأذن لي ببداية جديدة، وكنت جادة في طلبي. ثم يا أندرو انهمرت دموعي. وبكيت طول الليل! أما اليوم، فاني أشعر بعظمة الحياة!"

كان هذا أول تجديد شاهدته. في ليلة واحدة انقلبت حياة فتاة. بقيت "كريتجي"، ولكن أضيف شيء جديد إلى حياتها. لم تزل تفرض إرادتها على زميلاتها، ولكن بشكل يختلف عن قبل. لم تفه بتلك القصص البذيئة، فأسكتت باقي الزميلات. كوّنا حلقة صلاة في الشركة، كانت "كريتجي" مسؤولة عن الحضور. التقطت كل الأخبار، من مرض ابن إحداهن، إلى تعطل زوج الأخرى عن العمل، والويل لمن لا تتبرع ببعض مالها للمساعدة. كان تغييراً كاملاً، دائماً، فشكرت الله ليلة بعد ليلة لاشتراكي في عمله هذا. لقد تبدلت الشركة كلها، وذلك نتيجة إطاعة الله لا غير.

في أحد الأيام، وأنا خارج من الباب العمومي بعد العمل، فاجأتني "كوري" بقولها:

"السيد "رنجرز" بانتظارك!"

السيد "رنجرز"؟! خفق قلبي لظني أنه يستدعيني للتأنيب والتوبيخ، فربّما سمع بأنني أستغل وقت الشركة، وأفرض حلقات الصلاة. فتح لي أحد الموظفين باب مكتب مدير الشركة الخاص. دخلت وإذا به يجلس على مقعد وثير، وأشار إليّ بالجلوس على الآخر، ففعلت.

قال: "أندرو، أتذكر الفحوص الطبية السيكولوجية التي أجريت عليك منذ أسبوعين؟"

أجبت: "نعم يا سيدي!"

"علمنا منها أنك ذكي وذو مقدرة عقلية كبيرة ولك حاصل ذكاء ممتاز." ابتسم وابتسمت، ولم أكن أدري ما هو حاصل الذكاء، ثم أكمل قائلاً: "لذلك قررنا أن ندربك على العمل الذي يستهويك في الشركة. أريد منك أن تتعرّف بكل أقسام الشركة، وتتفهم نوع العمل في كل قسم، ثم تختار ما يروقك منها، ونحن ندربك للقيام به على حسابنا."

انعقد لساني، لشدة الفرح، وعندما استرجعت مقدرتي على الكلام أجبت: "أود أن أكون مثل الرجل الذي تحدث إليّ بعد انتهائي من الفحوص الطبيِّة السيكولوجية."

فقال: "آه، تقصد مصمم الوظائف، ومحلل الموظفين النفساني." ثم تابع وقد نظر إليّ نظرات ثابتة: "ومادمنا في موضوع الوظائف لا أظنك تغتاظ إذا فتحنا موضوع الدين؟"

احمرّ وجهي خوفاً عندما قال: "علمنا بالتغيير الذي أحدثته بين العاملات، وأعتقد أن عملك هذا أفضل بكثير من إنتاج الشيكولاتة وتصديرها." وابتسم عندما رأى إمارات الراحة تعود إلى وجهي وقال: "لا أرى مانعاً يا أندرو من قيامك بعملين! يمكنك أن تُساهم في إدارة معمل أفضل، وفي الوقت ذاته أن تجند أفراداً لمملكة الله. هذا يروقني جداً."

سرّت "ثايل" بوظيفتي الجديدة، ظناً منها أنها تُثنيني عن انضمامي إلى المرسلين. أخطأت! أحببت عملي حقاً، ولكنني لم أقتنع به، وشعرت أنني مدعو إلى حقل آخر. بدلاً عن مصروفات تدريبي للوظيفة التي طلبتها، اتفقت

مع السيد "رنكرز" أن أبقى في الشركة مدة سنتين عالماً أنني سأغادرها بعد انتهائهما. وعندما رأت "تايل" عزمي، أقلعت عن إقناعي بعكسه وراحت تساعدني عن طريق كنيستها، فكتبت إلى جميع الإرساليات التي تحت رعاية الكنيسة تستفسر عن المؤهلات المطلوبة في المرسلين، ومن جميعها كان الجواب أن الرعوية هي أولى المتطلبات. عندها كتبت لإحدى كليات اللاهوت مستفسراً، واكتشفت أنني أحتاج إلى الدراسة الجادة لمدة اثني عشر عاماً لأعوض ما فاتني في سنين الحرب. هبطت عزيمتي لسماع هذه الأخبار، ولكنني سجلت فوراً للدراسة بالمراسلة.

واجهت مشكلة الكتب إذ لم يكن لدي ما أنفقه عليها، فكنت أستعين بالدريهمات القليلة التي تستغني عنها شقيقتي "كلتجي" بعد شراء مؤونة العائلة، وبمساعدة "كريتجي" في الشركة، رحت أنفق كل ما لدي على الكتب الضرورية. جلست ليلة أدخن سيجارة وأنظر إلى دخانها المتصاعد ففكرت: "كم أنفق أسبوعياً على هذه السيجارة؟" وجدتها تكفي لشراء كتاب في كل أسبوع من أسابيع السنة بدلاً من قراءة صفحات قليلة منها في زوايا المكتبات. أقلعت عن التدخين بعد العذاب الشديد والحرمان، وبدأت تأليف مكتبة إلى جانب سريري: فهذا كتاب قواعد ألمانية وإنجليزية، وهذا كتاب تاريخ الكنيسة، وهذا تفسير للكتاب المقدس. بالإضافة إلى الكتاب المقدس وكتاب الترنيم، ألفت هذه المجلدات نواة مكتبتي العتيدة. وطفقت أقرأ وأحصل، في كل دقيقة من دقائق فراغي لمدة سنتين كاملتين.

تبرعت الآنسة "ميكل" بتعليمي اللغة الإنجليزية، فكانت تشجعني عند الفشل، وترفع معنوياتي عند هبوطها، وتملأ قلبي عزماً وحماساً عند الخيبة، فوثقت

بها وبحسن نطقها للغة، فاعتبرت كل لفظ، حتى على المذياع، يختلف عن لفظها، خطأ، وقلدتها في لهجتها ولفظها.

كان درسي ومثابرتي من دواعي سرور الآنسة "ميكل"، ولكنها لم تر ضرورة الرسامة قبل البدء بالعمل في حقل الرب. فقالت لي: "هل من الضروري أن تُرسم راعياً قبل أن تلتحق بإرسالية؟ أنت الآن في سنك الرابعة والعشرين وإذا سرت على هذا المنوال، تبلغ أواسط الثلاثين قبل أن تنتهي علومك، ألا يقدر العلمانيون أن يخدموا الرب، في حقله التبشيري دون أن يُرسموا رعاة؟! لست أقول هذا على سبيل الأمر يا أندرو بل على سبيل الاستفهام؟" هذا نفس السؤال الذي كنت أفكر فيه كل يوم. ففي أحد مؤتمرات "سيدني ويلسن"، الذي أصبح عدد كبير من شركة "رنجرز" يحضرون مؤتمراته، واجهت السيد "ويلسن" بهذا السؤال وتذمرت على التأخير الذي تحدثه الدراسة.

فأجاب: "للإرساليات أنظمة خاصة. فالمسؤولون لا يرسلون مرسلاً ما لم يؤمِّنوا معيشته، أو على الأقل، يضمنوا راتبه، ولو كان ضئيلاً. غير أن هنالك جماعة تختلف بنظامها، تعرف بـــ "دبليو. إيه. سي. أو وِك" تدرب من يشعرون بالدعوة مدة سنتين فقط في مدارسها الخاصة، ثم ترسلهم، متكلين على الرب لسد حاجاتهم، فلا درجة جامعية ولا علوم عالية تفرض على المرسل."

هذا ما أردته. لقد عرفت أناساً يبشرون ويعيشون بالإيمان، ورأيت غيرهم يشحذون بطريق غير مباشر، فعرفوا في "فتي" جميعها بالشحاذين المتخفين، وقيل عنهم أنهم لا يعيشون بالإيمان بل بالعيان، أولئك أناسٌ يفتقرون إلى عزة

النفس وكرامتها، وبالتالي لا يؤدون شهادة حسنة عن سيدهم. فإن كان المسيح ملكاً، وهم سفراؤه، فحالتهم هذه تعبر عن عجز في الخزينة السماوية، وهذا أمر مشين.

أما "كيز" الذي كان يدرس اللاهوت، ليرسم راعياً، فأبدى شغفاً كبيراً حينما رويت له قول السيد "ويلسن"، وتلا قول المسيح: "لا تحملوا كيساً ولا مزوداً للطريق .. هذا ما يجب أن نفعله، أود أن أعرف أكثر عن أتباع وِك"

تحققت رغبتنا هذه، إذ بعد بضعة أيام، اتصل بنا السيد "ويلسن" هاتفياً، وأعلمنا أن السيد "جونسون" من فريق عمل "وِك" في زيارة إلى هارلم: "فلماذا لا تقابله يا أندروا أثناء إقامته في هذا البلد؟"

هيأت دراجتي وذهبت إلى المدينة المذكورة، فوجدت الرجل كما توقعت تماماً، نحيلاً، رقيقاً، حدثني عن "وِك" وعملهم في أنحاء العالم، مثنياً جداً على مدرستهم في جلاسكو، اسكتلندا، وعلى هيئة التدريس فيها، فمنهم الدكتور، وحامل الدرجة العلمية العالية، وأكثرهم لا يتقاضون أجراً، ومنهم معلمون في البناء، أو الكهرباء، أو الحدادة وغيرها. هذا التنويع ضروري، لأن الطلاب يتدربون على تأسيس إرساليات في بلاد خالية منها. أما هدفهم الأساسي، فليس تأسيس إرساليات بل تخريج مسيحيين حقيقيين، يكرسون أنفسهم تكريساً تاماً لخدمة الرب.

أسرعت أخبر "كيز" بهذه المعلومات، فما كان منه إلا أن اصطحبني في شبه نزهة وراح يسألني أسئلة شخص قرر الانضمام إلى هذه المدرسة. سألني عن المصاريف، وعن ابتداء الفصل التالي، وما هي مؤهلات الدخول، ولغة التدريس؟ لم أعلم شيئاً من هذه الأمور، فأعطيته عنوان إدارة "وِك" في لندن.

وكتب إليهم طالباً الانضمام إلى المدرسة. فقبل لحسن مؤهلاته وسافر. كنت أعود من عملي لأجد رسائل من "كيز"، يخبرني بها عن المواد التي يدرسها، والطلاب الذين يتعرف بهم، والاختبارات المسيحية الجديدة التي يختبرها. أما أنا فقد مضى عليّ أكثر من العامين المتفق عليهما في معمل الشيكولاتة. فلذلك فكرت باقتفاء خطى "كيز" والالتحاق بالمدرسة.

ولكنني امتنعت! لماذا؟ أولاً، لست متعلّماً مثل "كيز"، وثانياً، كاحلي المصاب! كيف أتطوع لأكون مرسلاً وأنا مازلت أخفي عرجي عن الناس، وأشعر بالألم الشديد؟ ولكن هل أنا مستعد حقاً للرسالة؟ أم كان ذلك حلماً مشرقاً وحسب؟ لقد سمعت "سيدني ويلسن" يتحدث عن المواظبة على الصلاة إلى أن ينال المصلي جواباً. قررت أن أجرب هذه الطريقة، فذهبت إلى الشاطئ بعد ظهر يوم من أيام الآحاد، وأخذت أصلي. صليت حتى المساء، فلم أجد حلاً ولم أسمع جواباً. أخيراً التمست إرادة الرب فقلت:

"يارب ما الذي يعيقني؟ أهنالك شيء لم أسلمه لك بعد وأتخذه عذراً للمماطلة والتردد؟ يارب ماذا تريدني أن أفعل؟"

وهناك بجانب الشاطئ أجابني. علمت أن انصياعي إلى الله كان مرفقاً ببعض المخاوف منها قولي: "نعم يارب ولكنني أعرج! نعم يارب ولكني لست متعلماً." أخيراً، وبطريقة جديدة سلّمت إرادتي كلُّها للرب قائلاً: "نعم يارب! دون قيد أو شرط، دون علوم أو رسامة. أنا مستعد أن أذهب، أعن طريق الرسامة، أم معهد "وِك"، أو شركة "رنجرز"، أو أية طريقة أخرى! أنا مستعد أن أذهب حسب مشيئتك وإرادتك. يارب أرجوك بأن تعتبر هذا

التقرير نهائياً وافعل ما تشاء! وأنا سأدعو هذا القرار خطوة التسليم النهائي وسأبدأ الآن، هذه الدقيقة."

وقفت، وخطوت خطوة واحدة. شعرت بألم شديد في كاحلي ولكني لم أستسلم: خطوت خطوة ثانية! زال الألم!! لم أصدق شعوري، ماذا حدث؟! بكل عناية مشيت إلى البيت، فذكرت آية الكتاب القائلة: "بينما هم ذاهبون شُفوا". "ومن هم يا ترى؟ ومن هم الذين شفوا؟" أخيراً ذكرت أن الآية هي عن البرص العشرة الذين شفوا بكلمة المسيح وهم ذاهبون ليُروا أنفسهم للكاهن. أهذا ما حدث لي؟ أشُفيت في طريقي إلى الله أنا أيضاً؟ لقد حصلت المعجزة وشفيت.

كان عليّ حضور اجتماع مساء ذلك الأحد يبعد مكانه ست كيلومترات عن البيت، فعزمت أن أمشي هذه المسافة عوضاً عن ركوب الدراجة. وهكذا فعلت. بعد الاجتماع تطوع أحد الأصدقاء لنقلي إلى البيت على دراجته النارية. فأجبته: شكراً أستطيع المشي، هذه الليلة. استغرب الأمر كما استغربه أفراد عائلتي، إذ رأوا دراجتي في البيت، وظنوا أنني عدلت عن الذهاب إلى الاجتماع.

قابلت بعض العمال في مكتبي في اليوم التالي، وبعد كل مقابلة اصطحبت كل عامل إلى الباب، خلافاً للأيام السابقة التي كنت فيها مسمَّراً إلى مقعدي لا أستطيع النهوض. وما إن انتصف النهار حتى شعرت بألم شديد في كاحلي. فركت موضع الألم فانتزعت في يدي غرزتين لبثتا عالقتين بالجلد. وفي نهاية الأسبوع شفي الجرح نهائياً.

في الأسبوع التالي، قدمت طلباً للانتساب إلى معهد "وِك" التدريبي وتلقيت جواباً سريعاً يخبرني انه إذا حصل فراغ في قسم الرجال أستطيع أن أبدأ الدراسة في شهر آيار سنة ١٩٥٣!

أما "كوري"، فأخبرتني – آخر يوم لي في شركة "رنجرز" – أنها هي أيضاً ستترك وظيفتها في الشركة وستتدرب لمهنة التمريض التي شعرت أنها مدعوة لها. نظرت إلى عينيها المتألقتين، وسلم كل منا على الآخر، ثم ودع أحدنا الآخر بسرعة، ومضينا.

والآن؟ كيف أخبر "ثايل" أنني سأنضم إلى معهد خاص مستقل لا علاقة له بكنيسة أو مؤسسة، يفتقر إلى كل نوع من أنواع الكماليات الاجتماعية التي كانت بنظرها جزءًا لا يتجزأ من التربية ومن الدين؟ أمضينا بعد ظهر يائساً ذلك اليوم على الشاطئ في غوركم. لم تتحدث "ثايل" كثيراً، مع أني اعددت جواباً لكل اعتراض قد تبديه. غير أنها لم تعترض بل أظهرت غضبها عندما عزوت شفاء كاحلي لمعجزة بسيطة.

"هذا افتراض قوي يا أندرو. من طبيعة الجروح أن تتحسن يوماً بعد يوم، ولا يدعي المصابون ادعاءات جريئة كهذه!"

لم أتناول العشاء مع "ثايل" وأهلها ذلك المساء. ظننت أن الخبر كان فجائياً، وأنهم يحتاجون إلى وقت للتفكير: "الوقت" قلت في نفسي: "الوقت هو ما تحتاج إليه "ثايل"، ومع الوقت، ستدرك كل شيء وترضى عن كل شيء."

أما أنا فرحت أعد العُدّة للسفر. بعت دراجتي وكتبي الثمينة، لأشتري تذكرة

السفر إلى لندن، حيث فرض عليّ أن أقابل مديري "وِك" قبل الذهاب إلى جلاسكو. بعد شراء التذكرة، تبقى معي ثلاثون جنيهاً، المبلغ المطلوب للرسم الأول في المعهد.

احترت، وترددت في السفر لثلاثة أمور حدثت قبل العشرين من شهر أبريل، اليوم الذي عزمت فيه على السفر إلى لندن. أما الأول فكان رسالة من "تايل" تعلمني بها أن معهد "وِك" لا تعترف به الكنائس ولا المؤسسات المهمة. وقد علمت هذه الحقيقة من المجلس الأعلى للإرساليات العالمية الذي بعثت إليه برسائل مستخبرة وملتمسة رأيه. وقعت رسالتها لي باسمها وحسب، دون أن تضيف أي كلمة محبة، أو عاطفة.

وقفت بالباب حاملاً الرسالة أفكر بها، وإذا بالآنسة "ميكل" تمر بي، فتحييني وتقول: "لدي أمر أود أن أقوله لك ولا أدري كيف، وهو أنني لم أسمع اللغة الإنجليزية قط مع أني قرأتها كثيراً." وأضافت: "لي صديقة أراسلها في إنجلترا، وهي تقول إن معلوماتي في قواعد اللغة الإنجليزية تبلغ درجة الكمال." بدا اليأس على وجهها وقالت: "هذا كل ما أردت أن أعلمك بهِ يا أندروز" وانصرفت.

لم أكن قد هضمت ما وصلني بعد عندما حدث الأمر الثالث، وهو استلامي برقية من المعهد جاء فيها: "لا فراغ في المعهد كما توقعنا. طلبك مرفوض. جدد الطلب السنة القادمة."

هذه الضربات الثلاث؟! ماذا أفعل؟ لا فراغ لي في المعهد أو لعل لغتي الإنجليزية لا تصلح لمتابعة المدرسة، وإذا ذهبت أخسر فتاتي! بالرغم من هذه جميعها، سمعت صوتاً عذباً منخفضاً في داخلي يقول لي: "لا تخف

يا أندرو! اذهب!!" كان الصوت واضحاً وملحاً، الصوت الذي حدّثني في العاصفة، الصوت الذي حثني على الكلام في الشركة، الصوت الذي يبدو خالياً من كل منطق بشري.

استجابة لهذا الصوت، استيقظت في اليوم التالي، وودعت عائلتي، مقبلاً أختيَّ، ومودعاً والدي و"كرنيليوس"، وركبت السيارة التي سأقطع بها المرحلة الأولى من الطريق.

(٦)

لعبة الطريق الملكي

نزلت من القطار حاملاً بيدي ورقة كتبت عليها عنوان مركز "وِك" الإداري. خارج المحطة وجدت السيارات تسير على الطرف الآخر من الطريق، فهرعت إلى الشرطي وأريته الورقة، كي يهديني إلى المركز. مدّ يده، وأخذ يفهمني كيف أصل إلى المكان، ولكنني لم أفهم كلمة واحدة مما قال. فاسترجعت الورقة شاكراً وأكملت طريقي.

لم أصل إلى المكان بعد العديد من المحاولات، فاستغنيت عن بعض الدريهمات الثمينة التي معي لاستئجار سيارة تاكسي أوصلتني إلى مبنى يفتقر إلى الدهان الخارجي. فتحت لي الباب سيدة، أخذت أعرفها بنفسي وبسبب حضوري. نظرت إليّ نظرة غير فاهمة لما أقوله، ولكنها أدخلتني وجاءت برجل يعرف اللغة الهولندية. ومرّة أخرى عرفته بنفسي وبسبب حضوري، فقال:

"نعم ولكن ألم تستلم برقيتنا؟ أبرقنا لك قبل ثلاثة أيام نخبرك أنه لا مكان لك الآن في جلاسكو."

أجبت: "نعم، استلمت البرقية."

"ومع ذلك جئت؟" قال هذا وهو يبتسم مما شجعني قليلاً.

فأجبت: "لا شك انني سأوفَّق إلى مكان في الوقت المناسب، وأود أن أكون جاهزاً."

طلب مني الانتظار، ثمَّ انصرف. عندما عاد، عرض عليّ البقاء في مركز الإدارة هذا مقابل بعض الأشغال التي تطلب مني. قبلت العرض دون تردد، وهكذا بدأت أصعب مرحلة من مراحل حياتي، ودامت شهرين.

عُينت بدهن جدران المركز في لندن، وبدأت بالعمل فوراَ، بعد أيام قليلة اعتدت على صعود السلم ونزوله، فأصبح العمل كله سهلاً ومحبوباً حتى إنني رفضت أخذ إجازة بمناسبة تتويج الملكة إليزابيث أو مشاهدة التتويج على التلفزيون بل اكتفيت بالتفرج من بعيد على الاستعراضات، والأعلام ترفرف على كل سطح ومبنى.

ونظراً لضعف لغتي الإنجليزية، انتهزت فرصة إقامتي في لندن لتعلُّمها بغض النظر عن الصعوبات التي وجدتها فيها، والصداع الذي انتابني منها. فكنت، اتباعاً لعادة الزملاء في "وِك" أنهض في الصباح الباكر للصلاة، فأحمل كتابي المقدس في يد، وقاموساً في اليد الثانية. وأذهب إلى الحديقة للقراءة والصلاة. لا شك أن هذه الطريقة كانت جيدة ولكنني رحت أقتبس كلمات الكتاب المقدس الإنجليزية التي لم تكن تستعمل آنذاك، فأخطأت في التراكيب والجمل الإنجليزية – ومع ذلك كان تقدمي ظاهراً ومشجعاً.

وبعد مضي ستة أسابيع على نزولي في لندن، طلب إليّ المدير أن أقود الاجتماع المسائي ففعلت. وبعد سبع دقائق فقط جلست، إذ لم أجد في

جعبتي كلمات إنجليزية أكثر، ولكن بعد أسبوعين، استطعت أن أتكلم في اجتماع مماثل لمدة أربع عشرة دقيقة، اتخذت قصة شفاء الأعمى على طريق أريحا والآية: "إيمانك قد شفاك" موضوعاً لعظتي. لم أحسن الاختيار، ولكن الجميع فهموا لغتي رغم ركاكتها، واجتمعوا حولي يثنون على جهدي قائلين: "لقد تقدمت كثيراً يا أندرو" وربّتوا على كتفي، قائلين: "فهمنا كل كلمة تقريباً، وتحدثت مدة أربع عشرة دقيقة، لذلك فتحسنك تضاعف عن المرة الماضية، حيث لم تجد كلمات لأكثر من سبع دقائق."

.. "هذا هو الرجل الهولندي .. أظن أن العظة كانت جيدة جداً." نظرت لأرى صاحب الصوت وإذا هو رجل لم أره من قبل، متوسط العمر، قوي البنية، أحمر الوجه، ذو عينين مغمضتين تقريباً رغم تألقهما.

قدمه إليّ المدير قائلاً: "يا أندرو لا أظنك تعرفت على "وليم هوبكنز William Hopkins"." فسرت إلى مؤخر الغرفة. مادًّا يدي لأصافحه. أخذها بكلتا يديه، وحيَّاني بحرارة قائلاً: "يبدو نشيطاً وقوياً، وأظنه مجتهداً في ما يعمله."

لاحظ المدير استغرابي، فأفهمني أن مدة إقامتي في مركز الإدارة قد انتهت وعليّ أن أغادره إلى مكان آخر، لاسيما وقد فرغت من دهان المبنى، وأن مرسلاً عائداً كان بحاجة إلى غرفتي. غير أن السيد "هوبكنز" سيسعى ليحصل لي على إذن عمل يخولني أن أعمل مدة إقامتي في لندن فأتمكن من توفير بعض الدراهم للكتب والاحتياجات المقبلة. علمت فيما بعد أن السيد "هوبكنز" كان المرجع الوحيد لأمور كهذه.

".. هيا استعد يا ولدي أندرو، أنا أدعوك لتقيم بضعة أيام معي ومع زوجتي ريثما نجد لك عملاً."

أعددت حقيبتي واضعاً فيها أمتعتي القليلة، وأثناء ذلك علمت من أحد أعضاء "وِك" أن السيد "هوبكنز" رجل أعمال ومتعهد ناجح، ورغم ذلك فهو يعيش حياة بسيطة، وذلك لأنه يتبرع بتسعة أعشار دخله لعمل الرب، وليست "وِك" إلا أحد المشاريع الصغيرة بالنسبة لما يقوم به من مشاريع ضخمة في حقل الرب. اصطحبني، ونزلنا السلم وسط ضحكات سكان المركز. وجدت مسكن السيد "هوبكنز" على نهر التيمز كما توقعت، بيتاً صغيراً، بسيطاً تملأه السعادة، ومعرفة الرب. أما السيدة "هوبكنز" فكانت مقعدة، تقضي أكثر أوقاتها في الفراش، فلما رأتني قالت: "يا أندرو، اهتم بنفسك. احسب هذا البيت بيتك! لا تندهش إذا وجدت ضالاً في فراشك، كما حدث مؤخراً، وقد يحدث. يسهل عليك إذا حدث ذلك أن تنام على بعض الأغطية بقرب الموقد في غرفة الطعام."

اختبرت حقيقة قولها قبيل انتهاء الأسبوع. عدت يوماً متعباً بعد انتظار طويل في دائرة الأعمال، لأجدها وزوجها في غرفة الطعام يشربان الشاي، فقالت: "تناولنا الشاي يا أندرو، وأبقينا لك حصتك اجلس وتناولها، لا تصعد إلى غرفتك، لأن فيها أحد السكيرين وجده السيد "هوبكنز" يحاول أن يجد مأوى في بيت الإرسالية، فأسرع وأتى به إلى بيتنا. عندما يستيقظ من نومه سنجد له طعاماً وثياباً. ومع أني لا أدري من أين آتيه بهما لكن الله قادر على كل شيء."

حقاً قالت، فالله اعتنى بهذين الشخصين عناية عجيبة وسد كل إعوازهما.

لم أرَ قط إنساناً خرج من البيت الصغير في حاجة إلى طعام أو لباس. ومع أن السيد "هوبكنز" اعتاد أن يبقي من دخله الكبير مقداراً يسيراً لا يكاد يكفي لسد ضروريات معيشتهما، ولكن الرب كان يتدخل في كل موقف حرج، فعند الحاجة الماسة مثلاً، يدخل أحدهم مقدماً مبلغاً مالياً، لا يريد استرجاعه، أو يحضر آخر قدر به طعام قائلاً: "لعلك لم تستطيعي الطبخ اليوم" وهكذا أشبعا كل جائع، وكسيا كل عريان، ولم يردا سائلاً أو محتاجاً طرق بابهما.

ظننت أنني لن أمكث أكثر من يوم أو يومين في بيت السيد "هوبكنز" وزوجته، ولكن الحصول على تصريح للعمل استغرق وقتاً طويلاً، مما اضطرني لأن أقيم عندهما مدة أطول. فما كان مني إلا أن اهتممت بأمور البيت، منذ اللحظة التي دخلته فيها. مسحت الأرض، ونظفت الحمامات، وغسلت الثياب الوسخة، وكويتها، وطبخت طعام العشاء. كنت مدرباً على هذه الأعمال، وأتقن القيام بها. فعندما عاد السيد "هوبكنز" من عمله مساء ذلك اليوم، راح يثني عليّ بحرارة ويشكرني على ما عملت، ملحاً عليّ مع زوجته أن أمكث معهما وأحسب بيتهما بيتي. لم يكن من ذلك بد، فأخذت أهتم بشوون البيت جميعها، وأدعوه "العم هوبي" وزوجته "ماما هوبي". كم وكم ذكرتني بوالدتي التي احتملت الألم، والعذاب بصمت وشكر، ولم ترد طالباً أو فقيراً طرق بابها.

كان العم هوبي مدرستي الأولى، ومنه تعلمت الكثير والكثير. كنت أذهب معه في شاحنة إلى مؤسسة أو أخرى من مؤسساته فأرجوه رجاءً حاراً أن يرتدي ثياباً تناسب مركزه كرئيس المؤسسة فيجيب:

"يا ولدي أندرو، لا أحد يعرفني هنا" وعندما أرجوه أن يظهر بشكل أكثر لياقة بين أصدقائه وأهل الحي، فلا يدخل الكنيسة مثلا بثياب العمل، أو غير حليق الذقن، يجيب:

"يا ولدي أندرو، الناس جميعهم يعرفونني هنا."

وأكثر ما حيَّرني هو مخزن العم هوبي الإرسالي، إذ كان يفتح بابه في وجه كل عابر سبيل فيدخل ليدفئ نفسه، ويأكل لقمة ويخرج. وعندما يحين وقت العبادة، يجد العم هوبي المقاعد فارغة. فلا يعرف للفشل معنى، بل يصعد المنبر ويعظ في الغرفة الفارغة. بعد ذلك يغادر المكان ليلتقي ببعض الذين يجدهم عند بابه فيخاطبهم قائلاً: "سأعرفكم حين أراكم في الشارع المرة القادمة. اسمعوا ماذا يقول لكم الرب .."

قلت له يوماً: "لا أفهم شعورك هذا، فإذا أتيح لي يوماً أن أعظ، فإني أود أن تكون القاعة حافلة بالحاضرين، والمقاعد مشغولة." أجاب: "سنرى." ثم أردف قائلاً: "قبل أن نصل إلى البيت سنلتقي بأحد الذين كان يجب أن يحضروا الخدمة، ولكن عندما نلتقيه، سنجد قلبه مهيأ. الزمان والمكان يا أندرو هما في حسابنا فقط، أما الله فلا يحسب لهما حساباً ولا يجوز أن تفرضهما عليه". وحدث ما توقعه العم هوبي. التقى بسيدة في الطريق فراح يلخص لها عظته وهي تذعن إلى كلامه كأنها سمعت كل ما قيل.

نمت تلك الليلة بجانب الموقد، وعندما بزغ الصباح، كان العم هوبي وزوجته قد ربحا شخصاً جديداً للمسيح.

أخيراً وصلتني رسالة من جلاسكو، تدعوني لبدء الدروس في شهر

أكتوبر التالي. أسعدني الخبر، وأسفت للوداع وغادرت لندن في شهر سبتمبر سنة ١٩٥٣ قاصداً مركز التدريس في اسكوتلندا.

لم يصعب عليّ هذه المرة أن أجد العنوان المطلوب. حملت حقيبتي وصعدت نحو شارع ألبرت، مبنى رقم ١٠. تألف البيت من طابقين على زاوية الطريق، وسيَّجه سور قصير، كتب على مدخله "آمن بالله."

كان هذا الإيمان بالله هو هدف المدرسة. أرادوا أن يدربوا طلابهم على الإيمان بالله ويعلموهم كل ما استطاعوا عن طبيعة هذا الإيمان عن طريق القراءة والتجارب، واختبارات الآخرين، وقبل كل شيء الاختبارات الشخصية. شعرت بحماس جديد وسرت على الممر الحجري المؤدي إلى الباب.

سررت جداً عندما رأيت "كيز" أمامي يفتح لي الباب. بعد الترحيب، حمل عني حقيبتي وأصعدني إلى غرفتي في الطابق الثاني حيث عرفني برفاقي الثلاثة الذين يشاركونني هذه الغرفة، ثم أراني أين ينام الباقون، وعددهم خمسة وأربعون – الشباب في أحد البيوت المجاورة، والفتيات في الآخر. ثم قال: "لن يلتقي الجنسان، إذ ممنوع التعامل مع الفتيات، ولا يرى بعضنا البعض إلا على مائدة الطعام."

بعد هذا عرفني "كيز" بالمدير العام السيد "ستيوارت دينن Stewart Dinnen" وجلس معي أثناء المقابلة الرسمية الأولى. واجهني المدير بقوله: "هدفنا الأساسي من هذا التدريب، يا أندرو، هو تعليم طلابنا الاتكال على الله والثقة به، وأنه قادر على تنفيذ وعوده. لا نرسل طلابنا إلى إرساليات معروفة ومنظمة ولكن بعد التخرج يصبح كلّ مسؤولاً عن نفسه. ماذا

ينتفع الطالب إذا شعر بالخوف، وشك في قوة الله، ومقدرته على سد حاجاته؟ أرجو أن يكون هذا طلبك يا أندرو؟

أجبت: "تماما يا سيدي."

".. أما بالنسبة للمصروفات الدراسية، فأنت تعلم يا أندرو أننا لا نتقاضى أي مصروفات، فأنا وزملائي نعمل مجاناً في هذا المركز التدريبي متكلين على الرب لسد حاجاتنا. كل ما هنالك أن كل واحد منا يدفع تسعين ليرة في السنة ثمن الطعام وأجرة الغرفة، هذا يكفي رغم ضآلته، لأن الطلاب هم الذين يطبخون وينظفون ويقومون بجميع الأعمال المنزلية. ونحن نطلب أن يدفع هذا المبلغ سلفاً. على أنني أعلم أن هذا يتعذر عليك، فلذلك يمكنك أن تدفعه على ثلاثة أقساط، كلّ يساوي ثلاثين ليرة. وحفاظاً على النظام، نشدد على الدفع في الأوقات المعينة."

قلت: "نعم، هذا حق يا سيدي."

اتفقت معه فيما قال اتفاقاً كلياً، وعلمت أن هذه بداية اتكالي على الله وثقتي بقدرته على سد جميع احتياجاتي المادية. ودفعت الثلاثين جنيهاً التي وفّرتها في هولندا، وبعد ذلك رحت أترقب تدبير الله.

اضطربت في الأسابيع الأولى بسبب حديث بعض الزملاء الذين بحثوا بشكل مستمر مشكلة حاجتهم إلى النقود، وتحيروا لماذا كان الرب يسدّ نصف الحاجة فقط. فإذا ما احتاجوا إلى عشرة أغطية مثلاً لأحد بيوت العجزة، أرسل لهم الرب ما يكفي لشراء ستة فقط. يخبرنا الكتاب بأننا عملة في حقل الرب! أهكذا يتعامل السيد مع أجراه؟

اختليت ليلة بنفسي، فمشيت إلى منطقة تدعى "بارتك Partik" طالما استمالتني، بعيدة عن المعهد، حذرني منها باقي الطلاب، لأنها كما زعموا ملجأ للصوص، ومدمني الكحوليات، وقطاع الطرق. شاهدت الأوساخ حولي، وشعرت بثقل هواء سبتمبر. وعندما فاجأني فقيران يستجديان، أعطيتهما كل ما في جيوبي، فانصرفا تواً إلى الخمارة، دون خجل ولا حرج. لا شك أن هؤلاء المستجدين يحصّلون أكثر جداً من طلاب معهد جلاسكو الذين يتدربون على عمل الرب.

عاتبت نفسي وأنبتها على ظنونها، ولكن الفكرة لم تبرح ذهني. لماذا؟ عشت فقيراً، ولم يضايقني الفقر. لماذا أهتم الآن إذاً؟ وفجأة، أثناء عودتي إلى المعهد، عرفت السبب. تيقنت أن اضطرابي وانزعاجي، لم ينتجا عن الفقر الذي أقاسيه بل عن علاقة غير وثيقة بالله.

خلال عملي في شركة الشيكولاتة، لم يخامرني أي شك في صدق السيد "رنجرز"، وأنه سيدفع لي راتبي في الوقت المعين. فقلت لنفسي: "إذا كان عامل، عادي، بسيط، في شركة عادية بسيطة شعر بالاستقرار والأمن لثقته في رئيس المعمل، أليس الأجدر أن يشعر بهما من يعمل في حقل الرب؟" دخلت باب المدرسة، وفوق رأسي قرأت: "آمن بالله!" هذا هو عوزي – لم يكن إعوازي للنقود – بل لعلاقة شخصية وثيقة – علاقة بالرب.

لقد نام الجميع، وساد السكون. تسللت إلى غرفتي وجلست بقرب النافذة مفكراً: إذا عزمت على خدمة ملك فعليّ أن أعرف من هو هذا الملك، وما هي قدرته، وكيف أثق به. هل كثقتي بالقوانين .. أم أثق به

كشخص حي قدير؟ .. هذا السؤال، بالنسبة لي، شكّل نقطة رئيسية: فإن كان ملكي ملكاً يحمل اللقب فقط، فلا داعي لخدمته ولا جدوى من اتباعه. الأفضل لي أن أعود إلى شركة الشيكولاتة. سأبقى مسيحياً ولكن مسيحيتي عبارة عن مجموعة مبادئ وحسب، تستحق التنفيذ لا التكريس.

أما إذا كان الله إلهاً حياً يحب خدامه، ويهتم بهم، ويقودهم ويتواصل معهم، فالحال تختلف، لأني مستعد أن أكرس نفسي لخدمة ملك كهذا. في هذه اللحظة نفسها عزمت أن أمتحن قدرة الرب في الأمور المادية، وأن أقطع معه عهداً فقلت: "إلهي أريدك أن تعلمني مقدار ثقتي بك. أشكرك لأنك ساعدتني على تجميع القسط الأول، وأطلب إليك الآن أن تدبر ما تبقى من الرسوم. فإن تأخرت يوماً واحداً عن الموعد المضروب، فهذا يعني عودتي إلى شركة الشيكولاتة."

كانت صلاة صبيانية، ولكن الله سمعها، وأكرمني بعد أن جربني بطرق ظريفة.

انتهى الفصل الدراسي الأول، وكان برنامج الصباح يتناول دروساً نظرية كاللاهوت وديانات العالم، واللغات. أما بعد الظهر، فقضيناه في التدرب العملي، كصب الحجارة مثلاً، والبناء، والنجارة، والحدادة، والإسعافات الأولي، والميكانيك، وغيرها. ولعدّة أسابيع عملنا جميعاً طلاباً وطالبات، في شركة فورد للسيارات، نتعلم تفكيك السيارات وتركيبها. بالإضافة إلى هذه المهن، تعلمنا بناء بيوت من ورق النخيل والشجر، وعمل آنية من الطين لحفظ الماء.

أما المطبخ والحديقة الأعمال المنزلية، فلم يُعف أحد منها، حتى الطبيبة الألمانية التي راحت تنظف أوعية الزبالة كأنها تجهِّز غرفة العمليات.

سرعان ما مرّت الأسابيع وحان موعد خروجي في أول رحلة كرازية. قال السيد "دينن": "ستحب هذه الرحلة جداً يا أندرو. إنها تدريب على الثقة بالله، ونظامها سهل. يمنح كل طالب جنيهاً واحداً، به يذهب إلى اسكتلندا! ومنه يدفع أجرة الانتقالات، والمبيت، وثمن طعام، والمرطبات، وكل ما قد يحتاج إليه للدعاية، أو استئجار قاعات للاجتماعات .."

"كل هذا بجنيه واحد؟"

"وأكثر من هذا! عليك أن تعيد الجنيه بعد رجوعك من الرحلة التي تستغرق بضعة أسابيع."

ضحكت قائلاً: " يبدو لي أننا سنجول مادين أيدينا."

فأجاب: "كلا البتة، غير مسموح لك بذكر الجمع أو العطاء في اجتماعاتك إذ يجب أن تسد احتياجاتك بدون أي محاولات منك، وإلا فشلت في الاختبار."

توزعنا فرقاً كل فرقةٍ مؤلّفة من خمسة شبان.

... جلست ذات يوم أستعيد الطرق التي بها حصلنا على ما احتجناه من مال وكيف دبر الله جميع الوسائل، وهذه بعضها: تارة تصلنا رسالة من والد أحد الزملاء فيها شيك بمبلغ بسيط. وتارة أخر يرسل لنا راعي الكنيسة التي زرناها منذ أيام رسالة يقول فيها: "مع علمي أنكم لستم في

حاجة إلى مال، وإلا لكنتم ذكرتم ذلك، إلا أن الرب ثقل قلبي بأن أرسل إليكم المبلغ المرفق."

كثيراً ما كان الناس يتبرعون من إنتاجهم، ففي إحدى القرى قدّمت لنا ستمائة بيضة، فرحنا نتغذى بها صبحاً، وظهراً، ومساء. وفي هذه جميعها تقيدنا بمبدأين لم نحد عنهما. الأول أننا، لم نتكلم مع أحد عن احتياجاتنا، والثاني أننا قدمنا عشور كل ما حصلنا عليه.

إحدى فرق الكرازة الأخرى لم تشدّد على دفع العشور، وإنما وضعوا العشر جانباً، عوضاً عن توزيعه على الفور، محتفظين به لوقت الحاجة، وطبعاً لاحقتهم الحاجة، بينما سدد الرب كل حاجاتنا. عادوا إلى المدرسة مديونين للفنادق، والقاعات، والبقالين. وعدنا نحن وقد تبقى لدينا عشر جنيهات. كان الله أسرع منا. فكلما أعطينا الآخرين، زاد عطاؤه لنا حتى تمكنا من إرسال ما تبقى لدينا لدعم عمل "وِك" الكرازي في الخارج.

ذات مرّة بدا أن إيماننا سيخيب، وأن الله سيتخلى عنا، إذ بعد انتهاء أحد الاجتماعات في القاعة، وتشجيعاً للجماعة كي يحضروا المرة القادمة، وقف أحدنا وقال: "أنتم مدعوون لتناول الشاي معنا في الساعة الرابعة غداً قبل الاجتماع الثاني. من منكم يستطيع الحضور؟ ارتفعت زهاء ثلاثين يد. ابتهجنا، وصعقنا في آن واحد. من أين نأتي بالشاي والطعام والكعك؟ هذه تجربة حقيقية لقوة الله! أيسد حاجاتنا أم لا؟ لم يكن لدينا شيء مما نحتاج إليه من أدوات، كالفناجين والأباريق وغيرها، وليس لدينا نقود. على أن الله لم يتركنا إذ تقدم بعض الشبيبة الحاضرين وتبرع بعضهم بالأدوات،

وآخرون بالشاي، وآخرون بالطعام وهكذا، حتى إن مستلزمات حفلتنا توفرت كلها تقريباً في الليلة نفسها.

والكعك؟ لم يتبرع أحد به، والشباب الاسكتلنديون، لا تحسب الحفلة عندهم حفلة إلا بوجوده. نمنا تلك الليلة ونحن نتخيل الوسائل التي سيرسل لنا الله بواسطتها الكعك المطلوب.

استيقظنا في الصباح التالي، وكلنا ثقة بأن الله لن ينسانا، ورحنا نعد العدة، ونهيء الفناجين، والساندويش وغير ذلك مما وفره الشباب. جاءت الساعة الثالثة وانتهينا من التجهيز والترتيب ولكن الكعك لم يكن قد أتى بعد. في الساعة الثالثة والنصف، وضعنا أباريق الماء على النار. جاءت الثالثة والخامسة والأربعون ولم يأت الكعك. رن جرس الباب! هرولنا جميعنا معاً لنفتحه، وإذا ساعي البريد يقدم لنا طرداً قائلاً: "أظنه يحتوي على مأكولات، ولذلك جئت به إليكم بعد انتهاء ساعات عملي. لم أشأ أن أتركه للغد خوفاً من تلفه."

شكرناه بحماس، ولما ذهب أعطاني أحدهم الطرد قائلاً: "إنه لك يا أندرو من حرم السيد "وليم هوبكنز" من لندن." فتحته بلطف وخفة، وإذا هو مليء بالكعك! شهقنا جميعنا لجمال منظره إذ مازال على شكله الجميل، ومنظره الجذاب، لا رسالة معه ولا بطاقة.

... لم أجد في رسالة السيد "وتسترا" ومحتوياتها عجباً، فقد احتوت على الكمية الضرورية لسداد القسط المدرسي الثاني. وانتهى الفصل الثاني أسرع من الأول، ولم أشعر به لانهماكي الدائم في الدرس والتحصيل والتحضير .. إلخ، وفي نهايته استلمت شيكاً – ويا للعجب من مرسليه –

بعض الزملاء في دار النقاهة العسكري - وقد كان المبلغ هو بالتحديد ما أحتاج إليه لسدد القسط الثالث، وهكذا سارت الحال حتى تخرجت.

أتاح لي الرب أن أختبر أمانته ومحبته باستمرار، ومع أمانته ومحبته اختبرت أيضاً بعض مداعباته. تعاهدت مع الله بالنسبة للنقد والرسوم المدرسية، ولكن المعاهدة لم تشمل الصابون أو معجون الأسنان أو شفرات الحلاقة.

فقدت يوما مؤونتي من صابون الغسيل فوجدتني بحاجة إليه لغسل ثيابي. تفقدت ما كان معي من مال لشراء بعض الصابون فوجدت ستة دراهم فقط، وكيس الصابون يكلف ثمانية دراهم، أين أجد الدرهمين؟

قلت لله أنت تعلم يا إلهي ضرورة بقائي نظيفاً، فهل لك أن تدبر الدرهمين؟ ولدهشتي على باب المحل قرأت: "عبوة الصابون بستة دراهم عوضاً عن الثمانية." اشتريت حاجتي وشكرت الله على إحسانه، وأسرعت إلى المدرسة، واثقاً أن ما اشتريته يكفيني حتى نهاية العام. غير أنه في الليلة نفسها شاهدني زميلي أغسل ثيابي، فصرخ قائلاً: "يا أندرو هل لك أن تعيرني بعض الصابون لغسل قميصي، لقد نفذ ما عندي منه." أعطيته الصابون، وتكرر طلبه عدة أيام مما اضطرني إلى التوفير لإعطائه حاجته.

بعد الصابون اكتشفت أنني بحاجة لمعجون الأسنان. هذا من الكماليات، ولذلك لم أطالب الله به بل أخذت أستعمل الملح عوضاً عنه وأحتمل طعمه المالح، لأني قرأت أنه يفيد اللثة أكثر من معجون الأسنان.

بعد معجون الأسنان وجدتني أحتاج شفرات حلاقة. لقد تلفت شفراتي جميعها فماذا أعمل؟ لم أرمها بل أخذت أشحذها مدة عشرة دقائق على جلد يدي، وأستعمل مرة أخرى، وبهذه الطريقة احتفظت بلحيتي مرتبة ومحلوقة.

شعرت خلال هذه الحوادث أن الله يداعبني ليعلمني أموراً أجهلها، لعله أراد أن يدربني على الاتكال عليه لسد الحاجات الضرورية وليس الكماليات – حقاً الشفرة الجديدة تحلق أحسن، ومعجون الأسنان أطيب من الملح، ولكن هذه جميعها كماليات – والله لا يهتم بها كما يهتم بالحاجات الضرورية. وذات مرة وجدت نفسي أمام حاجة مفاجئة .. إذ من الضروري على كل أجنبي في إنجلترا أن يجدد إقامته في فترات معينة. وتحتم تجديد إقامتي في الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر ١٩٥٤ ولا اضطررت إلى مغادرة البلاد. لم يكن لدي قرش واحد فكيف أحصل على شلنا لإرسال أوراقي بالبريد المسجل؟ هل يسمح الله بقطع دراستي لأجل شلن واحد؟ وهكذا خطونا خطوة جديدة في لعبتنا التي دعوتها "لعبة الطريق الملكي" وكدت أحيد عن هذه الطريق ثلاث مرات.

كنت رئيس مجلس الطلبة في السنة الدراسية الثانية، ومحاسب لجنة النبذ. نظرت يوماً إلى التقويم وإذا باليوم يوافق الثامن والعشرين من شهر ديسمبر. ثم نظرت إلى نقد اللجنة الذي معي، ووجدته عدة جنيهات فما المانع من اقتراض شلن واحد؟ لا، لن أفعل، وطردت الفكرة من رأسي.

ثم جاء اليوم التاسع والعشرون من الشهر، ولم يبق إلا يومان ولم أحصل على الشلن. فكرت في نفسي "لعلي أجده على الطريق". ارتديت معطفي

وخرجت، أنظر إلى أسفل باحثاً. "ما نوع الطريق الملكي هذا؟" ندمت على ما فعلته، ورفعت رأسي ضاحكاً وعدت إلى المدرسة دون الحصول على الشلن.

أما المرّة الثالثة فكانت أكثرها تجربة ... جاء اليوم الثلاثون من الشهر ومازلت في عوز شديد، وعليّ أن أرسل أوراقي بالبريد هذا اليوم، فما العمل؟ في الساعة العاشرة، دعاني أحد الزملاء لمقابلة زائر. ركضت إلى غرفة الاستقبال واثقاً أن الفرج قريب. ولكن ما إن شاهدت الزائر حتّى هلع قلبي، لأنه أحد سكان الحي القذر، وكان يلاحقني لاستجداء ما معي. وقف "ريتشارد" على الممر، ناظراً إلى أسفل، وهو يقول: "يا أندرو ألك ما تستغني عنه؟ إني جائع؟"

ضحكت وأجبته بالحقيقة. رويت له قصة الصابون، ومعجون الأسنان، والشفرات، وفيما أنا أتكلم لمحت الشلن، لمحته بين الحصى. أما ريتشارد فلم يره. انحنيت والتقطته مع بعض الحصى، ثم رميتها واحدة واحدة وأبقيت معي الشلن دون أن يشعر محدثي. وما إن وضعته في جيبي حتى بدأت المعركة النفسية. أيجوز أن أحتفظ بما وجدت، وأمامي من يكاد يموت جوعاً؟ أهذا ما يعلمه لي الملك؟ أهكذا يريدني أن أسلك؟ لكن ريتشارد سيصرف ما أعطيه على السكر! ما لي وله؟ لا يجوز أن أدينه، بماذا أجيب المسيح في النهاية وقد أغلقت قلبي أمام حاجة هذا الرجل الجائع؟ أخيراً أرجعت يدي إلى جيبي، وأخرجت الشلن ودفعته إليه قائلاً: "انظر يا ريتشارد، عندي هذا، أينفعك؟"

برقت عيناه، وخطف الشلن شاكراً وانصرف. وعدت بخطى خفيفة، وقلب مسرور شاعراً أنني عملت واجبي.

اعترض طريقي ساعي البريد، وسلمني رسالة، عرفت من خط "كريتجي" أنها من مجموعة الصلاة في شركة "رنجرز"، وأنها تحتوي على نقود. صدق ظني، إذ وجدت في الغلاف جنيهاً ونصف جنيه - ثلاثين شلناً - أكثر جداً من حاجتي!! أرسلت أوراقي، واشتريت صابوناً، ومعجون أسنان وشفرات حلاقة.

وانتهت اللعبة كما أرادها الملك.

أقبل ربيع ١٩٥٥، واقترب وقت تخرجي، كما ازداد شوقي للعمل. شجعني المدير أن ألتحق بصديقي "كيز" الذي كان على اتصال دائم بنا، يعلمنا بأخباره المشجعة السارة من كوريا. وذات صباح، فجأة ودون توقع مني، التقطت مجلة كانت نقطة انقلاب تام في حياتي.

نزلت ذات صباح إلى الطابق الأسفل من المدرسة لأحضر حقيبتي، وهناك فوقها، وجدت مجلة جميلة، جذابة. كيف وصلت هناك لم أعلم ولن أعلم. ولكنني رحت أقلب صفحاتها وأتفرج على صورها. كان معظمها صور شباب بوجوه تطفح صحة وحماساً يستعرضون شوارع بكين، ووارسو، وبراغ بخطى سريعة، نشيطة. قرأت الكتابة بجانب الصور، فعلمت أنها من أعداد (المنظمة العالمية) التي يبلغ عدد تابعيها ستاً وتسعين مليوناً. لم تُذكر الشيوعية، بل ذكرت الاشتراكية بعض المرات، وتحدثت عن غد أفضل، وعالم أحسن، ومستقبل مشرق. في نهاية المجلة

وجدت دعوة عامة إلى مهرجان عظيم يقام في وارسو في أواخر شهر يوليه. "أهلاً وسهلاً بكل من يرغب حضور هذا المهرجان.

الجميع مدعوون !؟ ... كل من يرغب!"

وضعت المجلة تحت إبطي، وحملتها إلى غرفتي مع حقيبتي. في الليلة ذاتها كتبت إلى هيئة الشباب في وارسو على العنوان المسجل في المجلة طالباً الانضمام إلى المهرجان المقبل. صارحتهم بأنني طالب لاهوت، وأنني أتدرب على خدمة الرب فإن قبلوني في المهرجان، سأبشر بالمسيح، وهم يبشرون بالشيوعية. بعد بضعة أيام، استلمت رداً على رسالتي. لقد قبلت بموجب الشروط التي اشترطتها. وبما أنني طالب فسيوفرون لي الخصومات الطلابية جميعها. وأخبروني بأن قطاراً خاصاً سيغادر أمستردام يقل الذاهبين إلى المهرجان.

لم أخبر بعزمي سوى العم هوبي، فكتب لي مشجعاً يقول: "اذهب يا أندرو، وها أنا مرسل لك خمسين جنيهاً لنفقاتك."

في هذه اللحظة، وأنا أستعد للعودة إلى البيت عادت إليّ فكرة كانت قد خطرت ببالي من قبل، ولكنها لم تكتمل. بدأت آخر يوم في شركة رنجرز. إذ كان بيننا عاملة شيوعية، قصيرة وبدينة. اغتاظت هذه أشد غيظ لتبشيري العاملات، وربحهن للرب، فراحت تهدم ما أبني بقولها: "إن الله هذا هو اختراعُ "الاستغلال" و"المستغلِّين"." كانت محط ضحك الجميع، ولكن لفظاظتها وخشونتها الدائمتين لم تشعر بسخرية الآخرين لها. صرفت عشرين عاماً في الشركة لم تربح للشيوعية خلالها عاملة أو عاملاً واحداً.

وجدت فيها إنسانة في مسيس الحاجة إلى الشفقة منها إلى السخرية، وكثيراً ما جالستها في فترات الغذاء. ثم قبل مغادرتي الشركة وقفت إلى جانبها، وقلت آملاً أن يكون وداعنا بلا عداوة:

"وأخيراً ستتخلصين مني".

أجابت بغضب: "سأتخلص منك ولكن لن أتخلص من الكذب الذي نشرته بين العمال. لقد أبعدتهم عن الخلاص، وعن المكافآت السماوية وأعميتهم بـــ ..."

تنهدت واستعددت لسماع محاضراتها، ولكنها استأنفت حديثها بنوع من الشك وبصوت أقل حدة: "طبعاً صدقوا كلامك. إنهم جهال، لم يتعلموا المنطق ولا المناقشة، ولذلك يصدقون ما يروقهم دون جدل." هنا خفت صوتها حتى لم أكَد أسمعه فقالت: "ومهما يكن، فلو خُيِّر الإنسان، فلا شك أنه يختار الله .."

رمقتها بنظرة عابرة وأظن أنني رأيت ما لا يصدق، رأيت الدموع تتجمع في عينيها!

(٧)

خلف الستار الحديدي

عدت إلى قريتي "فتي"، فوجدتها كما تركتها تماماً، فلم يتغيَّر فيها شيء، حتى كدت أشعر أنني لم أتركها قط. كالمرة السالفة لم أجد أحداً؛ فشقيقتي "كلتجي" كانت في الحديقة خلف البيت تنشر بعض الثياب، ولكن خلافاً للمرة الماضية شاهدت طفلاً يحبو ويلعب عند العتبة – ابن "كلتجي".

صرخت: "هل من أحد في البيت؟" فهبوا جميعهم للقائي، مقبّلين، ومعانقين، ومرحّبين، ودار بينهم الجدل حول أين ينام كل منهم في حضور العم أندرو.

أمضيت بعض الأيام التالية في زيارة الأصدقاء والأقارب. زرت السيد "رنجرز" في الشركة، والآنسة "ميكل" التي صفقت بيديها عجباً عند سماعها لغتي الإنجليزية، وزرت عائلة "كيز" ثم السيد "وتسترا" وزوجته، اللذين عزما، لدهشتي، على الانتقال إلى أمستردام، إذ نجحت تجارتهما بالزهور ورغبا في السكن بجانب موانئ التصدير الكبيرة.

أخيراً زرت أخي بن، وسألته في سياق الحديث عن "تايل"، وإذا كان قد سمع عنها شيئاً. فأجابني في سياق الحديث أيضاً، وبغير اهتمام قائلاً:

"قرأت السنة الماضية أنها تزوجت خبّازاً على ما أظن." وسكت كل منا، إذ لم يجد شيئاً نتحدث فيه.

غادر القطار أمستردام إلى وارسو في الخامس عشر من شهر يوليه. أكثر ما أثار دهشتي رؤية ألوف مؤلّفة من الطلاب ينجذبون إلى مهرجان كهذا، ولأول مرة صدقت إحصائيات المجلة التي اعتقدت أنها وهمية.

من دواعي سروري أن حقيبتي الثقيلة احتوت على عدد كبير من الكتيبات "طريق الخلاص." مادامت الكتب الشيوعية تجذب الناس والطلاب بهذه الكثرة سأدخل إلى بلادهم كتباً تجذبهم في اتجاه آخر. قال "كارل ماركس": "أعطني ستّة وعشرين جندياً من (الحروف) الرصاص، وسأغلب بهم العالم." قصد بذلك الحروف الهجائية. فلماذا لا أستعملها أنا؟ لقد حملت في حقيبتي نسخاً من هذا الكتيب القوي بجميع اللغات الأوربية.

وصلت إلى وارسو، وحقيبتي تكاد تتمزق لثقلها. انتظرت بضع ساعات في المحطة حتى أعرف مقري. شعرت بوحشة الوحدة فلم أكن أعرف أحداً، كم أني لا أعرف كلمة واحدة باللغة البولندية. فرفعت صلاة حارة إلى صديقي وإلهي، بين ألوف الألوف الواقفين حولي، وتساءلت هل من بينهم يا ترى من يصلي الآن مثلي؟

أُخذت إلى "الفندق" الذي عين لي. وجدت أنه مدرسة حولوها إلى غرف نوم خصيصاً لجمهور هذا المهرجان. أما غرفتي، وفيها ثلاثون سريراً، فقد كانت صفاً للحسابات وقد استخدم لغرض آخر الآن. لم أبال بهذه

الأمور، ولم أعلم ماذا عليّ أن أفعل. تركت "الفندق" بأسرع وقت ممكن، وخرجت إلى شوارع وارسو، ودون قصد أو هدف ركبت سيارة عمومية، مليئة بالركاب. تذكرت بعض الكلمات الألمانية التي تعلمتها إبان الاحتلال الألماني، فسألت: "أنا مسيحي من هولندا ..." نزلت هذه الكلمات على الركاب كالصاعقة، فصمتوا جميعاً، وأكملت بجهل: "أود أن أتعرف إلى بعض المسيحيين البولنديين، فهل بينكم من يساعدني؟"

لم يتكلم أحد، وساد السكوت، وتسمّرت الأعين عليّ. أخيراً قامت سيدة بدينة، تهم بالنزول من السيارة، وأثناء نزولها همست في أذني بعنوانٍ، وأضافت: "دار الكتاب المقدس!"

هل من دار للكتاب المقدس في هذا البلد الشيوعي؟! أسرعت إلى العنوان الذي أعطتني إياه، ووجدت كما قالت، مكتبة لبيع الكتب المقدسة، عُرضت الكتب في الواجهة، الكبير منها والصغير، بلغات متعددة، وألوان جميلة. لكن الباب كان مقفلاً، وعليه إعلان نقلته كما هو ثم عدت إلى "الفندق".

ابتسم عريف فرقتي عند رؤيته، وأفهمني ما في الإعلان. دار الكتاب المقدس مغلقة في إجازة، وستعود إلى عملها في الحادي والعشرين من يوليه. إذاً عليّ أن أنتظر.

أما برنامج المهرجان للأسابيع الثلاثة فكان التجول في شوارع وارسو صباحاً للتفرج عليها، وحضور المحاضرات بعد الظهر وفي المساء. وجدت الأحياء التي زرناها جميلة جداً وجذابة، ففيها المحلات الكبيرة، والبيوت الحديثة، والشوارع العريضة النظيفة. كل شيء مرتب وعلى ما يرام. اتبعت

البرنامج يومين أو ثلاثة ثم مللت وعزمت أن أتجول وحدي في الأحياء التي لم تُدرج في برنامج المهرجان! ماذا أجد يا ترى؟

وذات صباح، قبل نزول أعضاء المهرجان لتناول طعام الفطور غادرت "الفندق" لأشبع فضولي. تجولت ... وتفرجت ... ويا لهول ما رأيت! شاهدت آثار ويلات الحرب، بيوتاً مدمرة، شوارع قذرة. دكاكين حقيرة يقف أمامها العشرات، ينتظر كل دوره لأخذ مؤونته المعينة للأسبوع، أناساً يرتدون ملابس رثة، عائلات حفرت لنفسها حفراً للسكن – يا للأهوال والفقر. شاهدت فتاة صغيرة، حافية القدمين، تلعب في أحد الأزقة ناولتها كتيباً صغيراً، ونقداً قليلاً، وبعد بضعة دقائق أطلّت عليّ امرأة، كأنها تخرج من تحت الأرض، ثم لحقتني ولحق بها رجل. أعادت إليّ الكتيب والدراهم. حاولت أتحدث إليهما بالألمانية، ثم الإنجليزية، ثم الهولندية، ولكننا لم نتفاهم. أخيراً طلبت منهما مستخدماً لغة الإشارة أن يقرآ الكتيب، ومن إشاراتهما فهمت أنهما أميَّان. أخذت الكتيِّب، وتركت لهما النقد وعدت من حيث أتيت.

جاء يوم الأحد، وفرض علينا أن نشترك في استعراض في الملعب العام. ولكنني تسللت وذهبت إلى الكنيسة.

ظننت أن الكنائس كلها أُقفلت في بولندا أو أنّ الدين ليس له وجود وذلك لكثرة ما سمعنا عن اضطهاد الشيوعيين للمسيحيين. لقد كانت هذه كلها أخباراً خاطئة. فالكنائس الكاثوليكية مفتوحة صباح الأحد، ودار الكتاب المقدس عادت حقاً إلى العمل، فهل من كنيسة إنجيلية في وارسو يا ترى؟

أوقفت سائق تاكسي، وعن طريق الإشارات والإيماءات أفهمته أنني أقصد كنيسة إنجيلية لا كاثوليكية، فأوصلني إلى الكنيسة المقصودة. عجبت لعدد الحضور، ولاسيما الشباب بينهم، وعجبت لحماسهم في الترتيل، واستنتجت من كثرة إشارات الواعظ إلى الكتاب، أن الكتاب كان محور العظة.

بعد انتهاء الخدمة، وقفت في مؤخر الكنيسة، حيث رحَّب بي الواعظ، وطلب إليّ الانتظار قائلاً:

"أود أن أتحدث إليك فانتظر قليلاً."

خرج معظم المتعبدين، فجلست بقربه، وشاركني عدد من شباب الكنيسة. أجابوا بصراحة، وصدق عن أسئلتي العديدة. علمت منهم أنهم يقيمون خدمات العبادة جهراً وبحُرّية، ماداموا لا يتدخلون في الأمور السياسية، وسمح لأعضاء الكنيسة أن ينضموا إلى الحزب الشيوعي. فهمت أن هذه الكنيسة اعترفت بجميل الحكومة على الأهالي، فلماذا لا تتخذ حلاً وسطاً معها؟

سألني أحد الشبان: "إلى أي كنيسة تنتمي في بلدك؟"

أجبته: "الكنيسة المعمدانية."

"وهل ترغب في الذهاب إلى كنيسة معمدانية؟"

أجبت: "طبعاً."

فتناول ورقة وكتب عليها عنواناً قائلاً: "موعد الخدمة، في السابعة من هذا المساء."

شكرته وذهبت إلى الكنيسة التي لم يحضرها إلا عدد قليل من الشباب. وصلت متأخراً، ولكن أحداً أخبر القسيس بوجود غريب بينهم، فدعاني حالاً لأقف بجانبه على المنبر وأكلم الحضور. دهِشتُ لهذا: إذاً هم أحرار في عبادتهم!!

وقفت على المنبر وسألت: "هل بينكم من يتقن الألمانية أو الإنجليزية؟" فقامت سيدة، بواسطتها وعظت أول عظة لي بالألمانية خلف الستار الحديدي. لم تكن عظتي ذات قيمة، إلا أنني كنت مسيحياً أعظ في كنيسة مسيحية خلف الستار الحديدي. وفي نهاية الخدمة، سلم عليّ الراعي قائلاً: "أشكرك على حضورك معنا هذا المساء، وعلى كلمتك المشجعة، حتى إنك لو لم تكلمنا لاكتفينا بوجودك، كي نشعر أن هنالك من يشاركنا صراعنا، وأننا لا نصارع وحدنا."

سألته: "أيحضر اجتماعاتكم أعضاء الحزب الشيوعي؟"

أجاب: "لا أدري"

استلقيت في سريري في غرفة دفع الحساب، وأخذت أقارن بين هاتين الكنيستين. واحدة تتخذ حلاً وسطاً: تتعاون مع الحكومة ونظام الحكم في البلاد، فتجتذب الكثير من الشباب، وأخرى تكافح وحدها، وتكاد تخلو مقاعدها من الشباب، فتقتصر على المتقدمين سناً، ولا تدري حتى إذا كان أعضاء الحزب الشيوعي يحضرون اجتماعاتها أم لا.

صرفت أسبوعاً كاملاً في بولندا، قبل اليوم الحادي والعشرين من يوليه، موعد عودة دار الكتاب المقدس إلى العمل. وصلت باكراً فشاهدت رجلاً قبل الساعة التاسعة صباحاً بقليل يفتح الباب. حييته باللغة البولندية، فأجابني بنوع من الجفاء. سألته: "أتعرف الألمانية أو الإنجليزية؟" فأجاب: "الإنجليزية." ثم أدار بصره في الشارع يمناً ويساراً وقال: "تفضل".

لحقت به إلى الداخل وعرفته بنفسي بينما راح هو يمسح الغبار ويعيد الكتب إلى أماكنها، ويريني مكتبته، وما لديه من أنواع الكتب المقدسة، وأسعارها المتعددة، وهو يسعى أن يطرح الكثير من الأسئلة ليتعرف عليّ أكثر.

سألني فجأة: "ما الذي جاء بك إلى بولندا؟"

أجبته مقتبساً من الرسالة إلى أهل كورنثوس: "إذا كان عضو واحد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه."

ولكنه قال: "لم نأت على ذكر الألم. بل على العكس لقد أخبرتك عن تعاوننا مع الحكومة، وعن مقدار حريتنا في طبع الكتب المقدسة، وتوزيعها حتى "ستالين" قبل موته كان راضياً على عمل الكتاب المقدس." وراح يسرد لي قصة تؤكّد حقيقة قوله، فقال: "دخل متجري يوماً جنديان، وأعطياني بلاغاً رسمياً، يأمر كل بائع أن يحتفي بذكرى ميلاد "ستالين"، وذلك بأن يعرض صورة "ستالين" في شباكه ويزينها بأفضل بضاعته. فما كان مني إلا أن بحثت عن صورة بدت فيها ابتسامة "ستالين" الجذابة، وقد أخفض نظره إلى أسفل. وضعت هذه الصورة في شباك مخزني، ووضعت أثمن كتاب عندي مفتوحاً على آية كتبت باللون الأحمر تحت

الوجه الباسم. يبدو أن المارين أعجبو بطريقة العرض، وبعد لحظات دخل جنديان آخران يأمرانني بقولهما: "أزل هذا العرض من شباك متجرك." فأجبت: "لا لن أفعل! انظرا هوذا المرسوم الحكومي، يأمرني بهذا العرض."

ضحكت لهذه الحادثة ولكنه لم يضحك. أبقى على وجهه الحاد وعينيه الجامدتين. هذه هي حال المسيحيين الذين يمثِّلون دورين خلف الستار الحديدي.

دخل كثيرون بيت الكتاب المقدس، أثناء حديثنا. اشتروا كتباً، ولما اختليت به ثانية، سألته: "هل من مخزن لبيع الكتاب المقدس في كل البلاد الشيوعية؟" فأجاب: "يتوفر في بعضها دون البعض الآخر." ثم عاد إلى مسح الغبار، وقال: "لقد سمعت أن الكتب المقدسة نادرة جداً في روسيا. فمن استطاع أن يهرب خمسة أو ستة فيها يستطيع شراء دراجة نارية بثمنها، ثم يأتي بها إلى بولندا، أو يوغوسلافيا أو ألمانيا الشرقية حيث يبيعها بربح جيد، فيشتري كتباً أكثر. لعل هذه أقوال فارغة وحسب."

أمضيت صباح ذلك اليوم مع بائع الكتب المقدسة، وعند خروجي من دكانه ودعته آسفاً. حاولت في طريقي إلى المدرسة أن أستعيد حوادث الصباح، وما استفدته منها. هنا رجل يبيع كتباً مقدسة بحرّية لكل من يرغب في شرائها، على عكس ما سمعنا في هولندا، ومع ذلك فقد كان متحفظاً كل التحفظ، كأنه يقوم بأمر غير شرعي. أحسست بانقباض الجو حولي. وعلمت أن هنالك أمراً لم أفهمه، وأن الظواهر ليست الحقيقة.

للآن لم أقم بالعمل الذي جئت لأجله، وهو توزيع النبذ التي أتيت بها. أردت أن أوزعها أمام الجميع، في زوايا الشوارع، وفي السيارات العمومية، وأراقب ما يحدث. زرت الأسواق يومياً، ووقفت في الشوارع، ووزعت نبذي علناً. لم أر في أي بلد ازدحاماً في حافلات النقل العام كالازدحام الذي رأيته هنا. وأذكر أنني صعدت إحداها ذات يوم وحشرت نفسي في إحدى زواياها رافعاً يدي التي تحمل النبذ خوفاً عليها، فصاحت إحدى الفلاحات عند رؤيتها قائلة: "هذا ما نحتاج إليه في بولندا." وصلبت يدها على وجهها. وهكذا تقابلنا! هي كاثوليكية من الشرق، وأنا إنجيلي من الغرب، ولكننا تلاقينا على صعيد المسيحية.

مرّت الأيام ولم يعقب توزيعي النبذ أي سوء. فكرت في الفرصة العظيمة في هذا الحقل، كما أني شعرت بتقصيري. ظننت أني وزعت نبذاً على الجميع، ولكنني أهملت الجنود الذين كانوا معسكرين بجانب المدرسة حيث أقيم. وذكرت أنني كنت أتقرّب منهم كلما شاهدتهم. فعزمت أن أزورهم وأعطيهم من نبذي قبل رحيلي. وهكذا فعلت. وقفت بجانب أربعة منهم يحرسون المخيم، وأعطيتهم النبذ. نظروا إليّ ثم نظر الواحد إلى وجه الآخر بعجب. تداركت شعورهم فأخبرتهم أنني هولندي، ووجدت أن احدهم يعرف الألمانية. فقال: "لعلكم تمقتون الاحتلال الأمريكي ..."

سألته: "ماذا؟"

أجاب: "الاحتلال الأميركي."

حاولت أن أفهمه أن الأميركان لم يحتلوا بلادي، وفي وسط حديثي جاء قائدهم يزمجر آمراً. فتأهبوا وانصرفوا آخذين النبذ معهم.

اقترب مني القائد سائلاً: "ماذا أعطيت هؤلاء الجنود!؟" مددت له يدي بنبذة وقلت: "هذه."

أخذها وتأملها، ثم وقفنا نتحدث زهاء ساعتين إلى أن اضطررت لأن أودعه، وأذهب لأعد العدة للسفر في اليوم التالي وأهيئ كل ما يلزم من أوراق، وتصاريح، وجواز سفر وهلمّ جرّا. عندما افترقنا، تمنى لي القائد، الروسي الأرثوذكسي الأصل سفراً سعيداً.

استيقظت مبكراً جداً في صباح يوم السفر، وذهبت إلى أحد الشوارع الرئيسية أستقبل شروق الشمس، جلست على مقعد بجانب الطريق وإنجيلي مفتوح على ركبتي. قصدت بهذا التبكير أن أصلي لكل فرد قابلته في بولندا أو تحدثت إليه، أو أعطيته نبذة. استرجعت في ذهني الأماكن التي زرتها في هذه الرحلة، فكانت كنائس متنوعة منها المشيخية، والمعمدانية، والكاثوليكية، والأرثوذكسية، ونهضة القداسة، والإصلاحية، ووعظت خمس مرات. زرت دار الكتاب المقدس، تحدثت إلى جنود وقائد، وكثير من الناس على الطرق وفي السيارات. صليت لأجلهم جميعاً. وفيما أنا أصلي سمعت الموسيقى، موسيقى جميلة، وهتافات مدوية كأنها هتافات النصر ففي مقابل دار الكتاب المقدس والمسيحيين القلائل الذين قابلتهم جثمت حقيقة ضخمة مناقضة: إنها حقيقة سلطان النظام الحاكم. كان هذا الوجه الآخر من العملة.

كانت مسيرة هائلة. صفوف من الشبان والشابات الشيوعيين بأغانيهم البهجة، وصيحاتهم المدوية، وقد طفحت وجوههم صحة وحماساً. لم أشك أنهم يسيرون هكذا بملء حريتهم. إنهم غير مرغمين! لا! انهم يسيرون

لأنهم يؤمنون، لأن ثقتهم في حكومتهم عظيمة، لأن البهجة تملأ قلوبهم. ساروا وهم يحملون بشارتهم، فهؤلاء هم مبشرو القرن العشرين، سيجولون حاملين أخبارهم السارة.

ما هي أخبارهم؟ أخبار تطمئن العالم أن الخرافات القديمة المعروفة، والمألوفة عن الله والدين لا قيمة ولا وجود لها اليوم. الإنسان سيد نفسه، والمستقبل بين يديه يُسيّره كيف يشاء.

ما هو إذن عملنا نحن؟ ماذا نفعل بهذه الألوف المؤلفة؟ بهؤلاء الشباب بطاقاتها العقلية، والجسدية؟

"اقتلوهم" قال النازيون.

هل نتركهم يقاسون أثمار أخطائهم؟ أخذت ألوم جماعة "وِك" بالرغم من محبتي لهم، واحترامي إياهم. إنهم لم يرسلوا خريجيهم خلف الستار الحديدي.

ماذا علينا إذن أن نعمل؟ ماذا عليّ أنا أن أعمل؟

تطايرت صفحات الكتاب على ركبتي، حاولت أن أحميها من التمزق وإذا بعيني تقع على الآية التي تقول في سفر الرؤيا: "كن ساهراً، وشدّد ما بقي الذي هو عتيد أن يموت ..."

وفجأة شعرت بدموعي تنهمر، وكدت لا أرى الحروف، أهو إعلان إلهي يا ترى؟ أبواسطته يعلن لي الله أن واجبي أن أعمل هنا خلف الستار الحديدي؟ أيريدني أن أساهم في تشديد ما بقي من كنيسته المحبوبة هنا خلف الستار الحديدي، حيث بقايا الكنيسة، والمسيحية تكاد تموت؟

هذا مستحيل! كيف أقدر على هذا الأمر؟ ظننت آنذاك أنه لم يكن مرسل واحد في هذا الحقل الواسع الشاسع! ماذا أقدر أنا، وأنا وحيد وفقير ولا أنتمي لأية مؤسسة أو إرسالية، أن أعمل إزاء هذه القوة السائرة أمامي الآن؟

(٨)

كأس الألم

وصل القطار إلى أمستردام في موعده. نزلت حاملاً حقيبتي التي أصبحت خفيفة الآن بعد أن أفرغتها من محتوياتها - الكتب والنبذ. وذهبت على الفور لزيارة السيد "وتسترا" وزوجته في بيتهما الجديد الذي كان في غاية الروعة والجمال، يطل على نهر ومناظر خلابة. شاهدت سيارة فولكسفاجن زرقاء جميلة في الحديقة، فوضعت حقيبتي على الأرض واقتربت من السيارة، وإذا بالسيد "وتسترا" يسألني: "يا بني ما رأيك؟" واصطحبني حول الحديقة والبركة ومدخل البيت ولكنه مالبث أن قال: "كفانا تفرجاً! أخبرنا عن زيارتك، واختباراتك في بولندا."

أخبرتهما بكل شيء، وخصوصاً الآية التي شعرت أن الرب يكلمني بواسطتها فتساءلت: "وكيف أستطيع أن أشدد ما بقي؟ ما هي قوتي وما نوعها؟"

هزّ السيد "وتسترا" رأسه، موافقاً أن رجلاً وحيداً لا يمكنه القيام بعبء كهذا، على أن السيدة "وتسترا" عبرت عن فهم أعمق إذ قالت بفرح: "لست بحاجة إلى قوة أبداً. ألا تعلم أن الله يستخدم أشد الناس ضعفاً؟ إذا كان الروح القدس، لا أنت، قد دبر الأمور خلف الستار الحديدي، فأية قوة تنقصك .."

عُدت إلى قريتي، وكان من دواعي دهشتي أننا قضينا معظم الليل باستقبال الزوار والأصدقاء، الذين جاءوا بأسئلتهم المتعددة، المتنوعة، عن البلاد خلف الستار الحديدي، والحياة فيها – الأسئلة التي كنا نتساءل عنها عام ١٩٥٥، يوم كان العالم الشيوعي عالماً غامضاً. أخيراً، عندما خرج آخر زائر حملت حقيبتي ولحقت بأخي "كرنيليوس"، صاعداً السلم إلى غرفتي، كالعادة، وفجأة دعتني "كلتجي" قائلة: "انتظر لحظة يا أندرو."

توقفت فقالت: "لدينا شيء نعرضه عليك". تبعتها إلى غرفة الضيوف، ومنها إلى الغرفة التي كانت لوالديّ. وكم من الذكريات أعادت إلى ذهني: أخي "باس" يتألم في فراشه، ووالدتي بضعفها الشديد لا تقدر أن ترفع رأسها عن الوسادة. وأفقت من ذكرياتي، على صوت "كلتجي" يقول: "لقد قررنا أن نعطيك هذه الغرفة يا أندي، خاصة وقد أنهينا تجهيز غرفة الوالد في الزاوية الثانية من البيت." لم أستطع الكلام من فرحتي، لم أكن أحلم أن أحظى بغرفة لي وحدي، وقدّرت كم ضحَّت "كلتجي" وزوجها "آري" في سبيل هذه الغرفة.

أخبرني والدي: "هذا إلى أن تتزوج فقط!" أصبح والدي يكثر في تلك الأيام من ذكر ضرورة زواج ابنه الأعزب البالغ السابعة والعشرين!! "إلى أن تتزوج فقط."

أخيراً تمكنت من شكر شقيقتي، وأردفت قائلاً: "غرفة لي! لا يشاركني فيها أحد؟!" وبعد أن استسلم أهل البيت جميعهم إلى النوم، قمت أتحسس ما في الغرفة من مفروشات: "شكراً لك يا إلهي لأجل هذا الكرسي، وهذه

الخزانة. سأعمل مكتبة وأضعها في هذه الزاوية. سأصرف الساعات الطوال في الدرس، والتحضير، والتخطيط."

ما إن مضى أسبوع على وصولي، حتى تواردت عليّ الدعوات من الكنائس، والمدارس، والنوادي، والجمعيات، لكي أتحدث عن الحياة خلف الستار الحديدي. لبيت هذه الدعوات جميعها لسببين: "أولهما أن أصحابها لم يبخلوا في العطاء وكنت معوزاً، وثانيهما، وهو الأهم، ثقتي أن الرب سيستخدم محاضراتي ليريني إرادته لي."

وهذا ما حدث. أعلنت إحدى الكنائس في هارلم أن موضوعي سيتناول وصفاً عن حياة المسيحيين خلف الستار الحديدي، فاجتذبت عدداً كبيراً حتى اكتظ المكان بالحضور، منهم شيوعيون، وبعضهم كانوا معي في الرحلة، فعرفتهم منذ أن وقع نظري عليهم.

شعرت بقصوري لأن زيارة ثلاثة أسابيع لبلد شيوعي لا تكفي لمعالجة موضوع كهذا، ولكني لم أجد مخرجاً من هذا المأزق الحرج، وبدأت المحاضرة، وسط صمت تام دام طيلة المحاضرة. وفي الفترة التي خصصت للأسئلة في النهاية أقبلت نحوي سيدة، كانت مسؤولة عن الوفد الهولندي في وارسو، وقالت: "لم تعجبني محاضرتك."

أجبتها: "يؤسفني ذلك، ولكنني لم أتوقع إعجابك."

"إنك أظهرت وجهاً واحداً فقط، مما يدل على أنك لم ترَ ما فيه الكفاية. لذلك تعوزك رحلات أكثر وزيارة بلاد أكثر، ومقابلة أشخاص أكفاء."

لم أجب بكلمة لكنني تخوفت من قصدها.

فقالت بعبارة أخرى: "تعوزك رحلة أخرى، وهذا ما أقترحه. فأنا هنا لأنتخب أربعة عشر شاباً هولندياً يشكلون وفداً إلى تشيكوسلوفاكيا تستغرق رحلتهم أربعة أسابيع. يُفترض في هذا الوفد أن يضم طلاباً، وأساتذة، وجامعيين. نود أن نأخذ بينهم من يمثل الكنائس! أتذهب معنا؟"

"أهذه يدك يارب؟ أهذه إرادتك؟ إن كنت أنت يارب تريدني أن أذهب فدبر الطريق." صليت هذه الكلمات بطرفة عين ثم قلت للسيدة: "شكراً يا سيدتي، ولكن لا مقدرة لي على النفقة." ورحت أجمع الصور التي جئت بها من وارسو واستخدمتها في محاضراتي شاعراً بنظراتها الثاقبة وهي تتأملني إلى أن قالت: "هذا أمر سهل. تستطيع أن تدبره!"

قلت: "ماذا تعنين؟"

أجابت: "بشأن الكلفة، لن تُطالب بشيء ستكون الرحلة مجانية لك."

وهكذا بدأت رحلتي الثانية خلف الستار الحديدي. لم تختلف هذه الرحلة عن سابقتها في بولندا، إلا أن عددنا كان أقل ولذلك تعذر عليّ الانفراد عن المجموعةِ. ماذا قصد الرب هذه المرة، لم أكن أعلمِ، ولكن بعد الأربعة الأسابيع، ومع اقتراب نهاية الرحلة اتضحت لي بعض الأشياء.

كنت أستنتج، أينما ذهبت، وكيفما سألت، أن للمسيحيين ملء الحرية في العبادة، والصلاة، وقراءة الكتاب المقدس. وبالإضافة إلى ذلك قيل لي أن الحكومة استوظفت عدداً لا بأس به من الجامعيين المتعلمين لينشروا قاموساً للكتاب المقدس باللغة التشيكوسلوفاكية، بعد أن ترجموا الكتاب

ترجمة جديدة. فأبديت رغبة في زيارة هؤلاء الرجال قائلاً: "كم أتمنى أن أزور مركز الترجمة هذا، وأتحدث إلى العلماء والمترجمين."

ذهبت والمسؤول عن المجموعة السائحة لزيارة المركز المذكور، وكم كانت دهشتي لحجم المكان، وضخامة المبنى، وعجبت لميزانية الكنيسة التي تنفق على هذا المشروع. دخلت مكاتب فيها رجال تبدو على وجوههم إمارات الذكاء والجد، تكدّست حولهم الأوراق والكتب. هؤلاء هم الرجال الذين يجدون ويجتهدون لترجمة ونشر الكتاب. تأثرت لهذا المشهد، ورحت أستقصي الحقيقة. طلبت أن أرى نسخة من الترجمة الجديدة، فدفعت إليّ مخطوطة ضخمة، كادت تتمزق من كثرة الاستعمال.

"إذن الترجمة لم تنشر بعد!!"

فقال المترجم بوجه حزين: "لا! لقد انتهينا من الترجمة بعد الحرب بوقت قصير ولكن ..."، ونظر إلى الدليل الذي رافقني وسكت.

فأردفت سائلاً: "والقاموس؟! أهو جاهز الآن؟"

"تقريباً"

فأجبت: "وما منفعة قاموس الكتاب المقدس، دون وجود الكتاب المقدس؟! هل هنالك ترجمات سابقة؟"

أعاد الأستاذ النظر إلى الدليل، كمن يستأذن للحديث، وأجاب: "لا! من الصعب جداً، ويكاد يكون في حكم المستحيل أن تجد كتباً مقدسة هنا في بلادنا هذه الأيام."

اكتفي المرشد بهذه المقابلة، وأخرجني من المكان، دون سؤال آخر. غير أنني اكتشفت دهاء السلطات. لم يمنعوا المسيحيين من قراءة الكتب المقدسة، ولم يقفلوا كنائسهم، ولكنهم أذاقوهم مرارة الفشل والخيبة مدة الانتظار. ستنشر ترجمة جديدة للكتاب مزودة بقاموس، عللوا انتظارهم بالأمل، ولكن لا الكتاب نشر، ولا القاموس طبع.

في اليوم التالي، توسلت إلى المرشد السياحي أن يأخذني إلى إحدى المكتبات الكبيرة التي تبيع الكتب الدينية. عزمت أن أتحقق ما أشك فيه وأرى بنفسي مدى صعوبة شراء كتاب مقدس. كان المخزن يطفح بما فيه من كتب متنوعة، وصور، وأوراق، وتماثيل، وصلبان، وكتب دينية، وموسيقى. فقلت في نفسي: "لا بد أن زاوية من زوايا المكتبة الضخمة هذه، قد خصصت للكتاب المقدس!" طلبت من البائعة أن تعطيني نسخة ملونة من الكتاب. فأجابت: "لقد نفد ما عندنا منها." قلت: "أعطيني إذاً واحدة عادية الأبيض والأسود" فأجابت: "هذه أيضاً قد نفدت!"

قلت بفارغ صبر "سيدتي!! قد سافرت مسافة شاسعة من هولندا لأتفقد حالة الكنائس في تشيكوسلوفاكيا وتقولين لي إنه لا وجود للكتاب المقدس عندكم؟ وإنني لا أستطيع أن أحظى بنسخة واحدة؟"

اعتذرت السيدة، واختفت خلف ستار، حيث سمعت مناقشة بينها وبين رجل. بعد لحظات خرج مدير المكتبة بنفسه، يحمل رزمة دفعها إليّ قائلاً: "هاك يا سيدي، خذ طلبك!" أخذت الرزمة وشكرته. فقال: "هذه نسخة من الكتاب المقدس. إن الترجمة الجديدة مازالت تحت الطبع، وإلى أن تنتهي ستظل الكتب المقدسة نادرة الوجود."

رُتبت برامج مشوقة وجميلة لليوم الأخير من الرحلة. فقد كان علينا أن نتجول في العاصمة لمشاهدة أجمل مناظرها، وأساليب الحياة فيها، ثم نعود للعشاء، يعقبه مؤتمر صحفي، والوداعات الأخيرة.

كان ذلك يوم الأحد، وكم وددت لو أذهب إلى الكنيسة في آخر يوم لي في تشيكوسلوفاكيا! ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟! لقد أخذت أعد العدة قبل حلول يوم الأحد بأيام. اكتشفت فتحة في باب السيارة الخلفي أستطيع الخروج منها في الوقت المناسب، وهكذا فعلت؛ فبينما كانت بقية المجموعة تتفرج على أحد التماثيل، وعيون الجميع شاخصة إليه، تسللت خفية، وخرجت إلى كنيسة طالما شاهدتها أثناء جولاتنا، وتمنيت زيارتها. وقفت على الرصيف إلى أن تحركت السيارة واختفت.

ثم دخلت الكنيسة، متحيراً أتساءل: كيف يقدر راعي أن يعظ، وكيف تقدر جماعة أن تتعبَّد دون كتاب مقدس؟! جلست في مقعد خلفي، ولحظت العابدين يدخلون دون كتبهم المقدسة. حمل بعضهم كتب ترنيم قديمة، وبعضهم صفحات مفردة! ما هي يا ترى؟

بدأت الخدمة، فأخذ الناس يفتحون كتب الترنيم يحملونها بعيداً عن عيونهم كأنها تطير في الهواء، علمت فيما بعد أن من عندهم كتب شاركوا من ليس عندهم. وكذلك الحال في الكتب المقدسة. عندما أعلن القسيس موضع القراءة، أسرع من معه كتاب، وفتحه وحمله بعيداً وعالياً، كي يقرأ الآية الأصدقاء القريبون منه. تأثرت جداً لهذا المنظر، وضغطت بيدي على إنجيلي في جيبي، وشكرت الله عليه.

بعد الاجتماع قدمت نفسي للراعي، وأعلمته أنني جئت إلى بلاده لأتفقد أحوال المسيحيين فيها. أشرق وجهه لسماع هذا الخبر ودعاني إلى بيته قائلاً: "وصلت أنباء تفيد بأن تشيكوسلوفاكيا ستفتح حدودها، ولكنني لم أصدق! ومهما يكن، فنحن كالسجناء المأسورين."

علمت بعدئذ مقدار الخطر الذي تكبده في أخذي إلى بيته حيث أخبرني بمراقبة الحكومة الشديدة، ومحاولاتها في التسلط على الكنائس، فقد أشرفت بنفسها على انتخاب طلاب اللاهوت - طبعاً الذين يتعاونون معها - وفرضت على كل مسيحي أن يجدد إقامته وإذن عمله كل شهرين وقد رفضت التجديد لصديق من أصدقائه دون عذر أو سابق إنذار. أصرّت السلطة على قراءة كل عظة، قبل أن يلقيها الواعظ من على المنبر، كما كان على كل كنيسة أن تقدم عريضة بأسماء القادة فيها، وفي حال التردد، أو التنكر لهذا الأمر، يحدث كما حدث ذلك الأسبوع في "برنو Brno" إذ ألقي القبض على خمسة مسيحيين وحوكموا لرفضهم ذلك.

حان وقت الاجتماع الثاني في الكنيسة، فسألني الراعي فجأة: "أتكلمنا في هذا الاجتماع؟"

سألت: "أيمكنني أن أعظ عندكم؟"

أجاب: "لم أطلب إليك أن تعظ، علينا أن نحسن اختيار الألفاظ. لا يمكنك أن تعظ لأنك أجنبي، ولكن يمكنك أن تحمل إلينا تحيات بلدك هولندا، وتحيات وسلامات من الله."

هذا عين ما فعلت: حييت الكنيسة أولاً باسم بلادي هولندا بضعة دقائق، وبلغت الحاضرين تحية المؤمنين في بلادي، ثم حييتهم باسم الرب يسوع زهاء نصف ساعة، وسلمت عليهم باسمه، حتى اقترح مترجمي – وهو شاب اسمه "أنطونين" – أن نعيد الكرّة في كنيسة أخرى، لشدة ما أبدى الجمهور من فرح وسرور. رحبت بهذا الاقتراح وعملت به، فوعظت أربع مرات في ذلك النهار وزرت خمس كنائس. مازلت أذكر كل واحدة منها، وخصوصاً الكنيسة الأخيرة، لأنها قدّمت لي "كأس الألم".

جاء الظلام ودقت الساعة السابعة. تأكدت أن أعضاء مجموعتي الآن يبحثون عني، وعليّ أن أبحث عنهم. ولكن فيما أنا أفكر بهذا، إذا بأنطونين يرجوني أن أزور كنيسة أخرى "بحاجة ماسة إلى زيارة مشجعة من شخص غريب" كما قال.

كيف أرفض؟ رافقته عبر مدينة براغ إلى كنيسة مورافية بعيدة قليلاً عن الطريق. أكثر ما أدهشني مشاهدة زهاء أربعين شاباً وشابة تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشر والخامسة والعشرين يحضرون الكنيسة.

حييتهم بالنيابة عن بلادي، ثم بالنيابة عن الرب يسوع، وأجبت عن أسئلتهم الكثيرة: هل تتوفر للمسيحيين في هولندا وظائف جيدة ومراكز محترمة؟ هل تُقدم شكاوى ضد من يذهبون إلى الكنيسة؟ هل يُسمح للمسيحيين بالالتحاق بالجامعات الثقافية؟ هل يُسمح لأعضاء الكنيسة أن يكملوا دراستهم في الجامعات؟

فقال "أنطونين": "كل من يذهب إلى الكنيسة في تشيكوسلوفاكيا هذه الأيام ينظر إليه باعتباره شخصاً غير وطني. وكثير من هؤلاء الشبان والشابات

قد حرموا من دخول الجامعات." ثم ناوله شاب يقف بجانبه علبة صغيرة وقدمها إليّ قائلاً بلسانه "هذه تقدمة بسيطة لك من هذه الكنيسة، عربون محبتهم."

اقترب مني الشاب وقال بلهجة عميقة على لسان "أنطونين": "خذ هذه معك إلى هولندا، وإذا سُئلت، فأخبرهم عنا، وذكرهم أننا أعضاء الجسد الواحد، وأننا هنا نشرب كأس الألم."

فتحت العلبة، فوجدت فيها دبوساً بشكل كأس فضية صغيرة، كنت قد لاحظت أن الكثير من الشبان يزينون ستراتهم به. أخذه الشاب، وعلقه على سترتي قائلاً: "هذا الدبوس رمز الكنيسة في تشيكوسلوفاكيا. ونحن ندعوه كأس الألم. ما أبعد كنيسة تشيكوسلوفاكيا وكنيسة هولندا عن تاريخ الكنيسة الحديثة الذي علينا أن نشترك فيه جميعاً."

أوصلني "أنطونين" إلى الفندق، حيث واجهت مشكلة لم أستطع حلها، أين مجموعتي؟ كيف أجدهم؟ ليسوا في الفندق!! ذهبت إلى مطعم تناولنا فيه الطعام ذات مرة وسألت عنهم فلم أجدهم، إذ لم يتناولوا عشاءهم هناك هذه الليلة. أحسست بالجوع، فطلبت إلى أحد العمال أن يأتيني بساندويتش. وما إن قضمت أول قضمة حتى فتح الباب ودخلت قائدة المجموعة. شعرت بالارتياح لرؤيتي، ولكن وجهها عبس غيظاً. فاقتربت من الطاولة التي جلست عليها، ودفعت ثمن الساندويتش، وأومأت لي برأسها إلى الباب.

في الشارع، عند باب المطعم، رأيت سيارة حكومية سوداء كبيرة بانتظارنا يقودها رجل عابس غاضب، خرج لاستقبالنا، وفتح لنا باب

السيارة، ثم راح ينهب بنا الأرض نهباً. تذكرت بعض الأفلام والقصص، فأخذت أراقب الطريق مراقبة حثيثة كي أعلم إلى أين يذهب بنا. غير أنني استعدت طمأنينتي إذ تبينت أنه يعود بنا إلى الفندق.

بمجرد أن وقفت السيارة، انحل لسان المسئولة وقالت: "لقد تسببت في تأخير المجموعة بأسرها نصف نهار، بحثنا عنك في كل مستشفى وقسم شرطة. أخيراً سألنا عنك في معرض الجثث المفقودة! أين كنت؟!"

أجبت: "افترقت عنكم، ورحت أتجول لا أكثر! إني آسف جداً لما حدث."

فقالت: "آسف يا سيدي. لقد تسبب في إثارة السلطات عليك. وهم غير راضون عنك. ستمنع منعاً باتاً من دخول هذه البلاد ثانية، وإن حاولت فستكتشف الحقيقة بنفسك."

صدقت في ما قالت. حاولت بعد سنة أن أحصل على تأشيرة دخول إلى تشيكوسلوفاكيا، فرفضت. حاولت بعد عامين ولكن عبثاً. لم ترضى عني السلطة التشيكوسلوفاكية، ولم تسمح لي بالعودة إلى بلادها إلا بعد مرور خمسة أعوام على زيارتي الأولى. ولكن ما شاهدته في هذه الأثناء من اضطهاد للمسيحيين، جعل الشدة على مسيحيي تشيكوسلوفاكيا تبدو حرية ورخاء.

(٩)

وضع الأساسات

شكلت الأيام التالية أيام قلق وفشل. ذهبت إلى بولندا وتشيكوسلوفاكيا، دون سابق تدبير أو ترتيب. أما الآن، ففشلت كلما حاولت الحصول على تأشيرة للدخول إلى أي بلد خلف الستار الحديدي.

حتى غرفتي التي طالما حلمت بها أشعرتني بالوحدة والوحشة. كم تمنيت أن تكون لي شريكة فيها، ولكن ماذا أقدم لهذه الشريكة؟! لا شيء سوى الكتمان والحرمان، وعدم الاستقرار، في هذا الحقل الذي اخترته لنفسي. أما هي، فتاة أحلامي، فلم تأت على ذكر هذه الأمور.

ثم جلست أحاسب نفسي، أيجوز لي أن أسكن هذه الغرفة دون الاشتراك في نفقات البيت، والطعام الذي تقدمه إليّ "كلتجي"؟ مع أنها وزوجها لم يتطرقا إلى ذكر الأمر، غير أنني أحسست بأنني عالة عليهما! ولكن من أين أحصل على النقود! وفجأة ذكرت ان إحدى الصحف الهولندية الدينية، طلبت مني أن أكتب إليها عن اختباراتي خلف الستار الحديدي. لم أكن كاتباً، ولذلك لم ألبّ الطلب. أما الآن وأنا جالس أفكر، فسمعت صوت الرب يأمرني بالكتابة فتساءلت: "وما علاقة الكتابة بحاجتي المادية؟!" والصحيفة لا تكافئ الكاتب بالنقد. ولكن الصوت استمر بالإلحاح.

أطعت وكتبت مشاهداتي واختباراتي في بولندا وتشيكوسلوفاكيا وأرسلت المقالة. وكما توقعت شكرني المحرر على كلمتي دون مكافأة مالية. فنسيت الحادث ولم أعد أفكر به.

بعد بضعة أيام، استلمت رسالة من محرر الصحيفة الهولندية نفسها يخبرني فيها أن كثيرين من قراء الصحيفة، يودون أن يشتركوا معي بتقديم قليل من أموالهم، ويود أن يعرف كيف يرسلها. دهشت لهذا الخبر لأني لم أُلمِّح قطعاً إلى حاجتي المادية.

وهكذا بدأت تصلني عطايا قليلة، لأن حاجاتي كانت قليلة. طلبت إلى الرب أن يقدرني على مساعدة "كلتجي" في لوازم البيت، وشراء جاكيت جديدة لي، وإرسال كتاب مقدس إلى "أنطونين" كما وعدته، فاستجاب الرب دعائي وزوّدني بالقليل الذي طلبته والذي احتجت إليه. وعندما توسع عملي وازدادت احتياجاتي، فقد سدّها الرب جميعها بوسائل أخرى.

وفي أحد الأيام استلمت رسالة من بلدة "أمرسفورت Amersfoort" يتوسّل إليّ كاتبوها أن أزورهم في البلد المذكور، وذلك لأن الروح القدس أرشدهم إلى دعوتي، وهم يجهلون السبب، فهل باستطاعتي زيارتهم؟

قرأت الرسالة وكلي شوق لأعلم كيف يقود الروح ويرشد بهذه الدقة، فذهبت إلى "أمرسفورت" واجتمعت بحوالي اثني عشر شخصاً في بيت رجل يدعى "كاري دي كراف De Craf" يحترف بناء الجسور.

اختلفت هذه المجموعة عن أمثالها من المجموعات. جلسوا معاً كأنهم يصغون! لم يكن لديهم برنامج منظم، ولا موضوع كتابي يُدرس، بل

جلسوا مصغين، ومن فترة إلى أخرى يقدم أحدهم شكراً لله، وآخر يحمده على اختبار. وهكذا لم تكن صلواتهم طلبات، بل تعبيراً عن محبة وشكر لله وحسب، كأنهم لا يحتاجون إلى شيء، ولكنهم شعروا أن الرب قريب منهم فأرادوا أن يعبروا له عن الشكر والمحبة اللذين يملآن قلوبهم.

قطع هذا السكون والإصغاء، من حين إلى آخر صوت أحدهم يخبر عن أمر "أوحي إليه من حيث لا يعلم"، فيعلنه إلى الجماعة بقوله مثلاً: "والدة ويست في أمريكا بحاجة إلى صلاتنا." أو "أشكرك يا الله لأنك الآن استجبت صلواتنا لأجل ستفجي." انغمست بهذا النوع من الصلاة والإرشادات الإلهية، حتى إنني لم أصدق أن الساعة الرابعة والنصف فجراً حين أخذني السيد "دي كراف" إلى غرفتي.

مرت الأيام وانكببت على مقال آخر للصحيفة، حين قرعت "كلتجي" باب غرفتي قائلة: "عند الباب رجل يريد مقابلتك، وأنا لا أعرفه." خرجت وراءها، وإذا بالسيد "دي كراف" أمامي. حييته، فرد التحية قائلاً: "مرحباً يا أندرو! هل تقود؟"

"أقود؟!"

"هل تقود سيارة؟"

أجبته مستغرباً: "لا! لا أعرف قيادة السيارات."

قال: "أعلن لنا الرب في اجتماعنا أمس، أنه من الضروري جداً أن تتعلم قيادة السيارات."

سألت: "ولماذا؟ لن أملك سيارة في حياتي!"

قال بهدوء وبطء كمن يحاول إفهام طالب بطيء الفهم: "لست أجادلك في الأمر أو إمكانيته!! كل ما هنالك أنني أعلمك برسالة الله."

وقفل راجعاً.

لم أعر الأمر انتباهاً، لن يكون بوسعي قط أن أشتري سيارة ولذلك أهملت فكرة تعلم قيادتها، ولكن السيد "دي كراف" عاد بعد أسبوع سائلاً: "هل بدأت بدروس قيادة السيارات؟"

أجبته: "لا .. ليس تماماً."

قال: "إنك لا تعرف معنى الطاعة بعد، لعله عليّ أن أعلمك بنفسي! هيا معي .."

لحقت به، وجلست إلى جانبه في سيارته، ولأول مرة في حياتي جلست خلف مقود سيارة محاولاً قيادتها، لا كما قدت تلك المصفحة قبل أحد عشر عاماً. أثبت السيد "دي كراف" أنه معلم ماهر، إذ بعد بضعة أسابيع امتحنت، ونجحت وحصلت على رخصة. ولكن ما الفائدة من حمل رخصة لقيادة السيارات، وأنا لا أستطيع شراء دراجة، فكم بالحري سيارة؟! ولكن السيد "دي كراف" رفض الاستماع لمثل هذه الحجج والبراهين قائلاً: "واجبنا أن نطيع ما يبدو مستحيلاً الآن، ولكننا سنعلم فيما بعد."

ثم حدث ما شلّنا جميعاً عن التفكير، وهو الثورة الهنغارية خريف ١٩٥٦، حين هاجر ألوف الناس من يوغوسلافيا وألمانيا الشرقية إلى ألمانيا

الغربية تاركين بيوتهم وأملاكهم ومالهم. فدبرت لهم الحكومة ملاجئ، أقاموا فيها في حالة لا توصف من البؤس، والفقر، والشقاء. على إثر هذا جاء رجل إلى "فتي" يطلب متطوعين لإغاثة هؤلاء اللاجئين. كنت أول من ركب السيارة من "فتي" إلى المخيم، وقد أخذنا معنا مؤونة وزاداً وثياباً وبعض الأدوية لنوزعها بالتساوي على أكبر مخيم في ألمانيا الغربية.

عند وصولي إلى المخيم وجدت أن ما الأخبار التي وصلتنا لا تكاد تصف نصف البؤس والشقاء اللذين يقاسيهما هؤلاء اللاجئون. عشر عائلات في غرفة واحدة. لا معنى للراحة أو الحرية. جلنا بينهم كمن يسبح في مياه المحيط، نوزع عليهم الأطعمة، والألبسة، والأدوية، ونكتب الرسائل، ونحاول الحصول على تأشيرات سفر لبعضهم، ونبحث عمن فقد من إحدى العائلات. وحيث سنحت لي الفرصة كنت أعقد اجتماعات للصلاة. من هنا اكتشفت أنهم يجهلون الكتاب المقدس جهلاً تاماً، وأن أكثرهم أميّون. أما الشباب والأولاد الذين نشأوا إبان الحكم الشيوعي، فقد تعلموا القراءة والكتابة، ولكنهم لم يعرفوا شيئاً عن الكتاب المقدس.

بدأت كذلك بمساعدة بعض المترجمين بتنظيم مجموعات أعلم فيها الكتاب المقدس لثقتي بما لهذا التعليم من قوة على تغيير الحياة البشرية وما لهذه المعرفة من قوة لرفع مستوى المعيشة. فشاهدت بعض البؤساء يصبحون أقوياء، ويكتسبون ثقة في نفوسهم، كما تحول يأسهم إلى أمل.

أذكر، فيما أذكر، رجلاً يوغوسلافياً وزوجته. كانت الزوجة بدينة يغطي ذقنها شعر يبلغ طول الشعرة سنتيمترين أو أكثر. حاولت أن تحافظ على

نظافة البقعة التي يسكنانها، أو زوجها، لشدة يأسه، فكان يجلس على طرف السرير، يتأرجح طول النهار.

جاء هذان الشخصان إلى دروس الكتاب التي عقدتها في مخيمهما. صعقا أول الأمر لما سمعا، وانهمرت دموع الرجل دون حساب. بعد أربعة أسابيع لاحظت أن المرأة بدأت تعتني بمظهرها وهندامها، كما أخذ الرجل يحلق ذقنه وينتبه إلى نظافة نفسه. على أي حال فهم هذان الشخصان محبة الله لهما، وانهما ابنان له محبوبان.

قال لي الرجل يوماً بعد الدرس: "آه لو .." وتوقف.

قلت: "ماذا؟!"

قال: "آه ليتني تعلمت هذه الحقائق قبل الآن! قبل أن أغادر يوغوسلافيا."

نفدت ذخيرتنا من الثياب، والأغذية، فعدنا إلى هولندا بغية الحصول على غيرها. أثناء وجودي في البيت راجعت المفوضية اليوغوسلافية بطلب تأشيرة للدخول إلى يوغوسلافيا. وأعدت الكرة، ملأت الأوراق المطلوبة على ثلاث نسخ، وألصقت الصور اللازمة مصرحاً بكل المعلومات المطلوبة. وصلت أخيراً إلى الفراغ المعهود وهو العمل! ترددت قليلاً ماذا أكتب!؟ ثم تذكرت ما تعلمت في غلاسكو "سيروا في النور، لا شيء غير الحقيقة!" أخذت قلمي بشجاعة وعدم تردد وكتبت "مرسل". ثم تركت الأوراق على المكتب وانصرفت.

ملأنا السيارة الكبيرة بالمواد الغذائية، والحليب، والشيكولاتة، والأغذية، وعدنا إلى مخيمات اللاجئين، في ألمانيا الغربية. وبينما كنت أعمل هناك

استلمت برقية تخبرني بوفاة والدي. عدت إلى البيت، وحضرت جنازته البسيطة، وشاهدته يدفن فوق رفات والدتي لضيق أرض المدفن. ثم شعرت بالفراغ الذي أحدثه. لم أعد أسمع صوته يدوي في أطراف البيت، أو أشاهده منحنياً فوق المزروعات يعتني بها ويرعاها وهي تنمو وتكبر.

عدت إلى ألمانيا وانغمست كلياً في العمل بين اللاجئين. لقد كشفت لنا الثورة الهنغارية حقائق رهيبة ومخيفة لم نكن نعرفها، منها أن قاطني هذه المخيمات قبل الثورة، تألفوا من بقايا الحرب العالمية الثانية، نسيهم العالم، أولئك الذين شردهم الجنون النازي. أما الآن فازداد عددهم بقدوم اللاجئين الهنغاريين.

يا لها من حياة بائسة، ويا له من عيش ضيّق لا يوصف. ما أتعس هؤلاء البؤساء، ولاسيما الأطفال منهم! تحدثت مع الكبار والصغار، فبدا لي أنهم لم يروا بيتاً قط، ولم يعرفوا له معنى، ولم يتزاوج هؤلاء البشر لضيق المكان، وضيق العيش، غير أن الأولاد غير الشرعيين ملأوا الملاجئ. كم حاولت أن آخذ بعضاً منهم إلى هولندا لأوزعهم على بعض العائلات، كعائلتي شقيقتيّ مثلاً، ولكن الحكومة لم تسمح بدخول مرضى إلى بلادها، وقد أصيب هؤلاء المساكين بمرض السل الذي اكتسح تسعين في المئة من سكان المخيم.

في وسط هذا البؤس وهذا الضيق، سمعت صوتاً أثناء صلاتي الانفرادية صبيحة أحد الأيام يقول لي: "اليوم ستحصل على تصريح بدخول يوغوسلافيا." كنت قد نسيت الأوراق التي قدمتها وسط هذا العمل المستمر في المخيم ولكنني وقفت أنتظر قدوم موزعة البريد، وما إن شاهدتها،

حتى ركضت إليها. فقالت لي: "أندرو لك رسالة من هولندا." وقدمتها إليّ. أخذتها وفضضت غلافها، ولكن الفشل كان نصيبي. حملت الرسالة ختم الحكومة اليوغوسلافية في يوغوسلافيا ترفض طلبي للدخول إلى بلادها.

ولكن ما عسى أن يكون الصوت الذي سمعته؟! صعدت إلى غرفتي وزودت نفسي ببعض الصور التي أصبحت أحتفظ بها، واستقليت القطار عائداً إلى هولندا، إلى المفوضية اليوغوسلافية. ومرة أخرى ملأت ثلاث نسخ من الأوراق المعهودة، ومرة أخرى واجهت الفراغ الذي يستقصي عن العمل. فصعّدت صلاة حارة قائلاً: "يارب ماذا أكتب هنا؟ حالت صراحتي في المرات السابقة دون أملي فماذا أفعل الآن؟" وفجأة تذكرت قول الرب لتلاميذه: "اذهبوا وتلمذوا ..." فبدت لي الحقيقة الواضحة وكتبت "معلم" وسلمت الأوراق للموظف.

قال: "اجلس قليلاً حتى أطلع عليها."

جلست وكلي شوق وانتظار، مدة عشرين دقيقة. عاد بعدها مبتسماً يقول: "رحلة سعيدة يا سيدي." ومنحني التأشيرة جاهزة.

رقص قلبي فرحاً ولم أقدر على الكتمان. يجب أن أخبر أحداً ولكن من؟ أهلي بعيدون عني. إذاً سأخبر السيد "وتسترا"، وحالاً، ودون تردد، اتصلت به هاتفياً. رد على الهاتف بنفسه، قال: "أهلاً يا أندرو، يؤسفني خبر وفاة والدك."

أجبت: "شكراً يا صديقي ولكنني أود أن أخبرك خبراً ساراً."

قال: "وما هو؟"

قلت: "رفضت الحكومة اليوغوسلافية دخولي إلى بلادها، ولكن المفوضية هنا في هولندا منحتني التأشيرة اللازمة، سأسافر قريباً."

فقال: "مرّ علينا إذاً وخذ مفتاحك."

"مفتاحي؟! أي مفتاح؟! لا أستطيع أن أضيع الوقت. عليّ أن أسرع وأعد العدة للسفر."

"لا، تعال خذ مفتاح سيارتنا الفولكسفاجن. تحدثت طويلاً مع زوجتي بهذا الخصوص، وصلينا كثيراً، ولكن ليس ما يثنينا عن قرارنا لتنفيذ إرادة الرب. فقد أرشدنا الرب أن نهبك إياها حالما يسمح لك بالدخول إلى يوغوسلافيا. نحن بانتظارك."

ذهبت إليهم وحاولت ردهم عن هذا القرار ولكن دون جدوى. ثم سألت "وكيف تقوم بعملك دون سيارة يا سيد "وتسترا"؟"

"عملي؟" أجابني باستهتار. "عملك أنت عمل الرب وهذا أهم! لقد وضعنا المسألة أمام الرب في الصلاة، وهذا كان أمره."

ركبت السيارة، وأنا أكاد أطير فرحاً، وذهب معي السيد "وتسترا" لتتميم ما كنا بحاجة إليه من توقيع بعض الأوراق، وأصبحت صاحب سيارة فولكسفاجن زرقاء جديدة، مستعداً لرحلة طال انتظاري لها.

كانت العودة إلى قريتي بالسيارة الجديدة أمراً صعباً، فما إن دخلتها حتى أصبحت عرضة لهزء الجميع. اجتمعوا حولي ينظرون إلى السيارة ويسألونني كيف حصلت عليها. فقال أحدهم بسخرية: "التديُّن

جيد يا أندرو." حاولت أن أفهمهم أنها تقدمة من السيد "وتسترا" للعمل الذي سأقوم به، ولكن لم يفهمني أحد، إذ أجمعوا على رأي واحد هو أنه لا يليق بابن الحداد أن يقتني سيارة وامتنعوا عن إعطائي بعض النقود التي اعتادوا أن يقدموها للاجئين. لقد تغيَّرت العلاقات بيني وبين أهل قريتي (ولم تعد إلى أصلها!).

ولولا بعض الأعمال الضرورية التي وجب إتمامها لما دخلت القرية، ولكنني صرفت عدة أيام في التحضير والترتيب. فَجِلتُ في أمستردام باحثاً عن نبذ، وكتب مسيحية باللغة اليوغوسلافية، وفتشت السيارة مستطلعاً مخابئها، مستدركاً كيف أقدر أن أخفي بضاعتي، مفكراً بالنفقات التي سأواجهها وكيف يسدها الله.

وأخيراً قبل حلول آخر شهر مارس، الموعد المحدد للسفر، ذهبت إلى السيد "دي كراف" لأودعه. لم يبد أي عجب عندما رأى بالعيان ما رآه سابقاً بالإيمان، بل قال بهدوء وثقة: "لم أشك في أنك ستحصل على السيارة. الآن خذ هذا الظرف، فالله أعلن لنا أنك ستحتاج إلى المال الذي في داخله."

أخذت منه الظرف. لم أفتحه، لعلمي أنه يحتوي على سدّ إعوازي تماماً دون زيادة أو نقصان. وهكذا بقلب مفعم بالشكر والامتنان، ودعته وودعت عائلتي، والسيد "وتسترا" وزوجته مغادراً هولندا إلى يوغوسلافيا في الرحلة الأولى خلف الستار الحديدي.

(١٠)

مصابيح في الظلام

على مقربة مني رأيت الحدود اليوغسلافية، ولأول مرة بحياتي أوشكت على الدخول إلى بلد شيوعي، وحيداً، دون أن أكون فرداً من جماعة تحت رعاية رسمية. لذلك أوقفت سيارتي في قرية صغيرة في النمسا واقتربت من الحدود.

منذ عام ١٩٥٧، منعت الحكومة اليوغوسلافية زائريها منعاً باتاً من إدخال أي نوع مطبوعاتٍ أو كتب حسبتها دعايات خارجية. فكانت تصادر أي نوع من المطبوعات مهما كان. وأنا الآن أحاول الدخول بسيارة مكدسة بالكتب المقدسة، وأجزاء من الكتاب، ونبذ مسيحية. فكيف أمرّ، والحراسة شديدة؟ صعَّدت صلاة المهربين، مهرّبي الله وقلت:

"أيها الرب، حمولتي كلها كتب مقدسة، أريد توزيعها على أولئك الذين حرموا منها مدة طويلة. أنت أيها الرب فتحت أعين العمي أثناء إقامتك على الأرض، أما الآن فأطلب إليك أن تعمي العيون المبصرة! أرجوك أن تمنع الحرس من رؤية هذه الكتب ليتسنى لأولادك المحرومين الاستفادة منها."

قدت سيارتي متذرعاً بهذه الصلاة ووقفت على الحدود. اقترب مني جنديان

حارسان يبتسمان، وقد بدت الحيرة على وجهيهما لرؤية هولندي يمر بهم. تفحصا جواز سفري بدقة، ودهشة بادية، وطمأناني باللغة الألمانية أن كل شيء قانوني وأعادا لي جواز السفر. ثم أقبل أحد الجنديين إلى السيارة متفحصاً محتوياتها. عثر على فراش وبعض الأغطية وخيمة احتوت بعض النبذ فقلت: "يارب اعم عينيه عن البصر."

فقال: "هل لك ما تعلن عنه؟"

أجبت: "نعم! معي ساعة، وبعض النقود، وآلة تصوير .."

في هذه الأثناء راح الجندي الثاني يدقق النظر في السيارة ومحتوياتها فطلب إليّ أن أخرج إحدى الحقائب، وأنا أعلم انها تحتوي على بعض النبذ التي بعثرتها بين ثيابي. انتشلتها من السيارة وقلت بسرعة!

"على أمرك يا سيدي" وأسرعت لتنفيذ أوامره. وضعت الحقيبة على الأرض ورفعت الغطاء. أخرج قميصين .. فأصبحت النبذ على مشهد واضح .. ماذا سيفعل الله؟ كيف يعين؟ أدرت وجهي عنه ورحت أتحدث إلى زميله عن الطقس، والمناخ، فقلت:

"يبدو أن الطقس جاف هنا!" وأكملت حديثي عن المناخ في بلادي، فأعلمته أنها باردة، كثيرة المطر والرطوبة. أخيراً عندما لم أعد أحتمل الانتظار التفتت إلى الجندي الآخر. وجدته واقفاً يستمع لحديثي عوضاً عن تفتيش أمتعتي. وعندما التقى نظرانا، شعر بالخجل لإهماله عمله وقال:

"حسناً، أغلق حقيبتك لست مخالفاً القانون. هل لك أشياء أخرى تعلن عنها؟"

أجبت: "أشياء صغيرة جداً .." ذاكراً أن النبذ صغيرة. فقال: "لا داعي للبحث في أمور تافهة. هيا امض ..." ناولني جواز السفر وأشار إليّ بالانصراف.

دخلت يوعوسلافيا، وكانت محطتي الأولى "زغرب Zagreb"، حيث يقطن، كما قيل في بولندا، رجل مسيحي غيور يدعى "جميلاً". أخذت هذا الاسم من جمعية الكتاب المقدس في بولندا لأن "جميلاً" كان يطلب منهم كتباً بكثرة، ولكنْ أخباره انقطعت منذ عام ١٩٤٥ عندما استولى الجنرال "تيتو" على الحكم، لم آمل أن أجده على العنوان الذي أُعطي، ولكن بالإيمان كتبت له رسالة، اخترت كلماتها اختياراً دقيقاً، أخبره بأن رجلاً هولندياً سيزوره في أواخر شهر مارس. والآن وجدتني في "زغرب". هل أجرؤ أن أبحث عن البيت حسب العنوان الذي معي؟

أما الآن، فلأخبر القارئ عما حدث لرسالتي. عندما وصلت إلى العنوان المذكور، كان "جميلاً" قد غير مسكنه، فأعيدت إلى دائرة البريد وصرف المسؤولون أسبوعين يبحثون عن الرجل وعنوانه الجديد.

وحدث قبل وصولي يوغوسلافيا بيوم واحد أن "جميلاً" استلم الرسالة واستغرب ما فيها. رجل هولندي يزوره؟ ماذا يفعل؟ هل يذهب إلى بيته القديم وينتظر هناك؟ أيجرؤ أن يسأل علناً عن هولندي في يوغوسلافيا؟

أخيراً، بإرشاد الرب ذهب إلى مسكنه القديم ووقف على الرصيف قبالة البيت ينتظر هذا الهولندي الغريب. وقف يفكر، ترى هل وصل هذا الرجل؟ أيسأل صاحب البيت عن قدوم رجل هولندي غريب لزيارته؟ ماذا عليه أن يفعل؟ كيف يهتدي إليه؟

في اللحظة نفسها، وصلت إلى مقره. أوقفت العربة، وقفزت منها لأقف أمام "جميلاً" وجهاً لوجه. عرفني تواً، وأخذني إلى بيته وهو يشكر الله لإرسالي إلى المسيحيين اليوغوسلافيين الذين يشعرون بالوحشة، والوحدة والانقطاع عن إخوتهم في سائر أقطار العالم. فراح يرتب لي مقابلات واجتماعات، ووجد مترجماً يرافقني، يدعى "نقولا"، وهكذا جلت أحيي المسيحيين باسم الرب، ولمدة سبعة أسابيع لم أتوان عن العمل، إذ شعرت بنشاط لم أعهده من قبل، فعقدت ما يربو على الثمانين اجتماعاً خلال الأسابيع الخمسة التي قضيتها في يوغوسلافيا، وتكلمت في الكنائس والبيوت حتى إنني وعظت أحياناً ست مرات في يوم الأحد الواحد – في كنائس وبيوت، ومزارع، بحريّة في الشمال، وبتحفظ في الجنوب حيث كانت المراقبة أشد.

لم اشعر باضطهاد الحكومة للكنيسة والمسيحيين، ولا شدتها عليهم في البداية. لقد وعظت بحرية تامة، وتنقلت من مكان إلى آخر، بعلم البوليس فلم يعترضني أحد، ولم يتحرّ حركاتي أي رقيب.

غير أن الحقيقة تجلت لي تدريجياً. لقد عمدت الحكومة إلى تربية الأولاد الصغار وتدريبهم. أهملت الكبار وتركتهم وشأنهم، ولكنها ركزت اهتمامها على الأولاد فأبعدتهم عن الكنيسة والدين.

كانت أول كنيسة دخلتها، كنيسة كاثوليكية. لاحظت أنه لم يكن من الحضور أحد يقل عمره عن العشرين. سألت "نقولا" عن السبب، وعوضاً عن إجابتي، عرفني على سيدة قائلاً لها: "أخبري الأخ أندرو عن سبب عدم مرافقتك لابنك إلى الكنيسة."

فقالت بحرارة وحسرة: "لماذا لم يحضر ابني إلى الكنيسة معي؟ لأنني جاهلة لا أفهم. هذا ما يقوله له معلموه وحكومته. إنهم يقنعونه بأنني فلاحة، جاهلة، لا أفهم، وأنهم هم الذين يفهمون ويعرفون كل شيء. لا وجود لله، ولا منفعة من الدين. ستقنع والدتك بهذه الحقيقة مع الوقت. هذا هو السبب: أنا جاهلة لا افهم الحقيقة."

بعد هذه الكنيسة، زرت مع "نقولا" بيتاً في بلدة ثانية. رأيت فتاة في العاشرة من عمرها تلعب بالتراب خارج البيت فسألته: "ولماذا لا تذهب هذه الفتاة إلى المدرسة؟" فأجابت الأم: "لقد عوّدنا ابنتنا "مرتا" على الصلاة قبل الطعام. فلذلك شكرت الله قبل تناول طعامها في المدرسة. اقتربت منها المعلمة مؤنبة وأفهمتها أن الحكومة تطعمها وتغذيها، لا الله، فشكرها هذا ضرب من الشر. أما "مرتا"، فنسيت ما تعملته في اليوم الأول وأعادت الصلاة في اليوم التالي. لذلك طردت من المدرسة."

من هنا ذهبنا إلى "مكدونيا"، أصغر الولايات اليوغوسلافية، وأشدها خطراً على المسيحيين، ولأول مرة شعرت بالخوف والذعر اللذين يسيطران على السكان. كان موعدنا الأول معهم في الساعة الحادية عشر صباحاً. ذهبت و"نقولا" إلى الكنيسة، ولكن أحداً لم يحضر. انتظرنا زهاء نصف ساعة، ولم يحضر أحد، ثم ساعة ولم يحضر أحد. أخيراً، قال "نقولا": "لست أدري سبب هذا التأخير لعلهم لن يحضروا، هيا بنا نعود من حيث جئنا."

ركبنا السيارة وهممنا بالرجوع عندما جاء أحد القرويين لتحيتنا والتعرف عليّ وانصرف بسرعة. ثم تلاه آخر. دامت الحال على هذا المنوال زهاء

خمس وأربعين دقيقة، بدا لنا ان جميع سكان القرية قد اتفقوا على الخروج من بيوتهم في هذا الوقت عينه، ليشاهدوا سيارة الرجل الغريب ويحيوه، مما أثار إعجاب "نقولا"، وأعجزه عن فهم ما يحدث.

ذهبنا حسب الموعد إلى كنيسة أخرى في "مكدونيا". دعانا الراعي إلى العشاء قبل اجتماع الساعة الثامنة، فتهيأت للذهاب إلى الكنيسة قبل الثامنة بخمس دقائق، فقال الراعي: "لا! لم يحن الوقت بعد." وجلس يحدثني عن أمور مختلفة. في الساعة الثامنة والربع قلت: "هيا بنا يا أخي!" فقال وهو ينظر من النافذة: "ليس الآن." في الثامنة والنصف، ذهب إلى النافذة، وعندما تحقق أنه قد حل الظلام قال: "الآن يمكننا الخروج، لا يأتي الناس إلى الكنيسة إلا في الظلام، لأن في الحذر خيراً."

سرعان ما تفهمت عادتهم، إذ أخذ العابدون يردون إليّ واحداً واحداً أو اثنين لا أكثر، الفلاحون أولاً عبر الحقول، ثم سكان المدينة، كل يحمل مصباحاً ضئيلاً، يهديه الطريق. دخلوا الكنيسة، وعلقوا مصابيحهم على الجدران دون خوف، إذ شعروا أنهم جميعاً تحت خطر واحد.

كلمتهم عن نيقوديموس ومجيئه إلى الرب ليلاً وفي الظلام، مشيراً إلى أن المكان والزمان لا أهمية لهما مادمنا نسير مع الرب ونخدمه بأمانة وإخلاص، ونثبت في إيمانه وعلى رجائه. حضر الاجتماع زهاء مئتي شخص، جدّد خمسة وثمانون منهم عهودهم مع الرب بالرغم من الضيق الذي أحاطهم.

طلبت إلى "نقولا" أن يأخذني إلى كنائس صغيرة وليس فقط إلى الكبيرة، فاختار دليلاً آخر يعرف "مكدونيا" أكثر منه. كان هذا مسيحياً غيوراً،

دعاه الجميع العم، ولذلك دعوناه نحن أيضاً بهذا الاسم. أشار علينا العم بزيارة كنيسة صغيرة جداً في إحدى الضواحي، وقادنا إليها، خلال طرق وعرة، ومسالك صعبة جداً إلى أن وصلنا حقولاً حديثة الحراثة، فقلت له: "وإلى أين أيها العم؟" لا كنيسة تبدو لي في هذا المكان، لعلك أخطأت الطريق."

أجاب: "لقد وصلنا." نزلنا من السيارة، وسرنا نحو بضعة أكواخ ترابية، تدعى "توساكي". كان من المفروض أن توجد كنيسة هنا، وبعد البحث، والتنقيب، علم "نقولا" أن الكنيسة في هذا المكان صغيرة جداً تنتمي إليها سيدة واحدة تدعى "حنّة". ولقد حولت "حنّة" إحدى غرف بيتها إلى كنيسة، كتبت على بابها "بيت الصلاة" لأن الحكومة منعت الاجتماعات في البيوت، وسمحت بها في الكنائس. زرنا "حنّة"، وعلمنا منها أن السلطات لم تؤذها، ولم تشدد الرقابة عليها لأنها وحيدة، لا يحضر أحد إلى بيت الصلاة عندها ولا ضرر ينتج عن "سخافتها" هذه. وبسرعة البرق انتشر الخبر بين السكان، بأن مبشراً غريباً يزور "حنّة"، فما إن خيم الظلام حتى بدت الحقول مشاعل متحركة، إذ أخذ الفلاحون يتوافدون إلى بيت "حنّة"، كلّ يحمل مصباحاً ضئيلاً ينير سبيله.

أخبرتنا "حنّة" بان النشء الجديد - الأولاد والأحداث - لم يعرفوا شيئاً عن المسيحية أو الإنجيل، ولم يسمعوا قط رسالته السارة فبدأنا اجتماعنا بتعليمهم ترنيمة، أعقبناها بتلاوة قصة الإنجيل، وما إن شرعنا بتعليم ترنيمة ثانية، حتى سمعنا قرعاً شديداً على الباب، جزع له الجميع وصمتوا فجأة وقد تملكهم الخوف.

فتحت "حنّة" الباب! دخل جنديان بلباسهما الرسمي الكامل وقفا أمام العابدين، ثم تجولا بينهم ينظرون إلى وجوههم. وأخرجا مذكرتيهما من جيوبهما، وراحا يكتبان أسماء الحضور. بعدها استخبرا عني وعن "نقولا" وخرجا. ولكننا فقدنا الروح والحماس اللذين بدأنا بهما. غادر كثير من الحاضرين الاجتماع، واستبد القلق بالقليلين الذين بقوا معنا. غير أنني دهشت عندما رفع كثيرون أيديهم طالبين الخلاص، مقررين اتباع المسيح.

قلت: "لقد شاهدتم ما يقاسيه أتباع يسوع !" ولكنهم أصروا على عزمهم، واعترفوا بإيمانهم. وهكذا نشأت أول كنيسة في تلك المنطقة المنعزلة، غير أنه لم يتح لها أن تنمو إذ أخمدتها السلطة. وأعلمني "نقولا" فيما بعد في رسالة بعث بها إلى هولندا أن "العم" نفي من البلاد لأجل المساعدة التي أسداها إلينا، وأنه الآن يقطن في كاليفورنيا في أمريكا، كما أغلق "بيت الصلاة" ولم يسمح لـــ "حنّة" أن تبقي هذه اللافتة على غرفتها.

أما ماذا تقصد السلطات من ملاحقة كنيسة صغيرة كهذه، في بقعة منعزلة نائية، وتغلقها، وتترك الكنائس الكبيرة وشأنها، فإنه أمر لم أستطع أنا ولا "نقولا" فهمه أو تفسيره.

شكلت الطرق في يوغوسلافيا صعوبة قصوى لكثرة غبارها الذي يؤذي محرّك السيارة. فكنت أخشى من عطل يحصل فيها، ولا طريقة لديّ لإصلاحها. لذلك أخذت و"نقولا" نصلي لأجلها كل يوم ضارعين إلى الله أن يحفظها لنا من العطب.

في أحد الأيام، قابلنا سائق شاحنة، أوقفنا حينما رأى السيارة تصعد منحدراً رملياً، وراح يحدثنا فقال: "أنا أعرفك! أنت المرسل الهولندي، وستعظ في قرية "تيرنا Terna" هذه الليلة."

"نعم تماماً"

"وهذه سيارة العجائب!"

"أقصد السيارة التي تصلي لأجلها كل يوم!"

ضحكت، وقلت: "نعم." فسأل: "أتسمح لي بأن أفحصها؟"

أجبته: "سأكون شاكراً ممتناً" لقد زودتها بالوقود والزيت فقط، آملاً أن يكون عملي كافياً، لكن هذا الميكانيكي، أخذ يتفحصها بدقة وتفهم ثم أردف قائلاً: "يا أخي أندرو، لقد اهتديت إلى المسيح حديثاً، وأنا الآن مؤمن مخلص! هذه السيارة في مسيس الحاجة إلى الصيانة. انظر! مصفاة الهواء، وشمعات الأشعال، والعادم ... جميعها معطلة تقريباً!! لا! لا يجوز لك أن تسير بها أكثر. يؤلمني استعمالك هذه العجيبة بهذا الشكل. أتسمح لي بأن أصلحها، وأغير زيتها وأعيدها إلى حالة جيدة؟"

شعرت بيد الله تعمل حتى في صيانة السيارة، فشكرته جداً وتبعته إلى قريته حيث تركت السيارة بين يديه الخبيرتين وذهبت مع "نقولا" إلى الاجتماع المعين. بينما انهمك ذلك السائق الميكانيكي بتفكيك آلات السيارة، وتنظيفها قطعة قطعة، يغير بعضها ويصلح الأخرى، فأعادها إلينا كأنها جديدة. لقد استجاب الله صلواتنا.

انتقلنا إلى "بلغراد" في اليوم الأول من شهر مايو سنة ١٩٥٧ وهو يوم الاحتفال بالشيوعية. لم نجد مكاناً في مطعم ولا غرفة في فندق. كدنا نبيت ليلتنا أنا و"نقولا" في السيارة لو لم يأخذنا راعي الكنيسة التي سنعظ فيها إلى بيته.

اكتظت الكنيسة بالحضور حتى لم أجد مكاناً لوضع لوح الصور التي أتيت بها، كوسيلة لإيضاح الرسالة التي نويت عليها. فما إن انتصف الاجتماع، حتى رأيت بعض الأخوة يخلعون الباب ليستطيع المزدحمون في غرفة جوقة الترنيم أن يستمعوا. كان الحاضرون من سكان المدن الذين بدت عليهم علامات الثراء والأناقة، خلافاً للفلاحين الذين قابلتهم، وأحببتهم أثناء تجوالي بينهم.

في نهاية الاجتماع طلبت ممن يطلب الخلاص أن يرفع يده. فارتفعت أيدي الجميع. لا شك أنهم أساءوا فهمي، فرحت أشرح لهم معنى التلمذة، وصعوبتها، ونتائجها في بلد مثل بلدهم، وطلبت هذه المرة ممن صمموا على اتباع الرب أن يقفوا. فوقف الجميع.

دهشت لهذا الإقبال والحماس، واسترسلت في الوعظ مبيناً لهم أهمية الصلاة، والإيمان وقراءة الكتاب يومياً، وكدت أضع لهم برنامجاً يسيرون عليه كما تعلمت في معهد الكتاب المقدس، حين لاحظت أن الحضور أشاحوا أنظارهم عني. ولم تعد أعيننا تلتقي، حتى ظننتهم ملوا السماع. فنظرت إلى الراعي متسائلاً، فوجدته هو أيضاً، بعيداً عني، ولكنه أفهمني بواسطة "نقولا" أن الصلاة ممكنة، والإيمان موجود، ولكن الكتب المقدسة، من أين يأتي بها؟ وليس لديهم كتب. لم يكن بين الحضور جميعاً سوى

سبعة يملكون كتباً مقدسة. ما العمل؟ لقد وزعت الذخيرة التي أتيت بها إلى يوغوسلافيا فماذا أفعل الآن؟ ماذا أعطي هؤلاء الذين، رغم صعوبة الظروف وعداء الملايين حولهم، قرروا أن يسلكوا الطريق الضيق تابعين مخلصيهم؟

جلست مع الراعي، ودبّرنا برنامجاً جماعياً، يشترك فيه أفراد الكنيسة بفرق صغيرة وكبيرة لدرس الكتاب، مستخدمين الكتب السبعة التي عندهم.

أما أنا فشعرت بالنار تتأجج في قلبي لوعة على هؤلاء الجموع الذين حرموا من التمتع بالشركة مع الله عن طريق قراءة كلمته، وعزمت على أن أهرّب ما استطعت من الكتب إلى هذه البلاد التي أغلقها الشر، وعزلها عدو الخير عن باقي العالم المسيحي. كيف أشتري الكتب؟ وكيف أقوم بتهريبها إلى ما وراء الستار الحديدي: لم أعلم آنذاك! ولكنني عاهدت الرب على القيام بهذا العمل، واثقاً أنه سيُنجح عملي، ويفتح لي الباب لتهريب كلمته.

(١١)

الصلاة الثالثة

حاولت في طريق العودة إلى هولندا أن أضع تقييماً لزيارتي إلى يوغوسلافيا. لقد غبت عن البيت سبعة أسابيع، قطعت خلالها ستة آلاف ميلاً، وعقدت مئة اجتماع، وكانت لي مقابلات مفيدة للمستقبل أهمها مع مئات الذين تجددوا. كان أولئك السميحيون رجالاً ونساءً قد أخذوا على عاتقهم السير مع الرب وسط الاضطهاد والضيق والمراقبة الشديدة. أناس يعترفون بالله وملكوته في بلاد تنكر وجوده، وتضطهد أولاده! ما أصعب حياتهم، وما أشد بؤسي لعدم استطاعتي مشاركتهم في هذه الحياة.

أعدت النظر في عزمي على تهريب كتب مقدسة لأهل "بلغراد"، فبدا ذلك القرار في غاية من الصعوبة. منذ عام ١٩٥٧ منعت السلطات إدخال أي كتاب، مهما كان نوعه إلى البلاد الشيوعية، فكم بالحري الكتاب المقدس؟ كيف أدخله؟ كيف أوزعه دون تعريض من يساعدونني للخطر؟ أي البلدان في أشد الحاجة إليه؟ أين أبدأ؟! هذه وغيرها من الأسئلة تسارعت إلى ذهني، وأنا أذرع الأراضي الأوروبية ميلاً بعد ميل عائداً إلى بيتي.

لا! لست عائداً إلى بيتي! لم تعد "فتي" بيتي. ولذا خففت سيري وتوقفت كثيراً في الطريق أتحدث إلى الفلاحين عن مزروعاتهم ومحصولاتهم وأنظر إلى ما لدي من خرائط لأتأكد صحة الطريق الذي أسلكه.

منذ اللحظة التي غادرت فيها يوغوسلافيا شعرت بأنني لا أرغب في العودة إلى "فتي" إلى تلك الغرفة الموحشة، غرفة والدي التي ورثتها بعد وفاته لاحتوائها على مدخل مستقل، بحيث أخرج وأعود دون أن أزعج أهل البيت. أحسست بالفراغ الذي سأعود إليه، وبالوحدة القاتلة التي تنتظرني. وقفت في ألمانيا، وأعددت فنجان قهوة، وبينما أشربه فتحت كتابي المقدس، والتفت إلى آخر صفحة فيه حيث دونت طلباً لم يستجبه الرب بعد. مضى على هذا الطلب سنة، دعوت الرب آنذاك قائلاً: "يارب أنت تعلم انني أكاد أبلغ الثلاثين من عمري، وأنت هيأت لكل رجل امرأة، فهلا استجبت طلبتي ومنحتني زوجة تشاركني في هذه الحياة؟" بعد هذا بخمسة أيام سمعت الرب يجيبني عن طريق العدد الأول من إشعياء ٥٤: "... لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل قال الرب." كررت قراءة هذا الجواب مرة بعد المرة. وفرحت به وأيقنت أن الرب سيمنحني أولاداً روحيين كثيرين، فشكرته.

ولكنني اليوم، وقد أنهيت شرب قهوتي، بجانب أحد الحقول، تيقنت أنني لا أريد أولاداً روحيين فحسب، بل أولاداً لي، يملأون بيتي حياة، وحركة، وضجة. أريد زوجة تحبني، بيتاً دافئاً أعود إليه عوض العودة إلى فراغ وغرفة خاوية.

وفجأة ناجيت نفسي قائلاً: "لِمَ لا أفتح كتابي عن غير قصد، وأقرأ ما تقع عليه يدي. فعلت، وغذا بعيني تقع على العدد عينه أي إشعياء ٥٤: ١ "لأن أولاد المستوحشة اكثر من بني ذات البعل قال الرب." فقلت: "يارب هذا ليس الجواب الذي أنتظره، ولكن على أي حال فإجابتك واضحة."

عدت إلى آخر صفحة من كتابي ودونت طلبي مرة أخرى، وأمامه الجواب، واستأنفت سفري إلى "فتي"، إلى الغرفة الموحشة الخاوية.

قابلني أهلي كعادتهم، وكالعادة جلست معهم إلى ساعة متأخرة من الليل أقص عليهم أخبار يوغوسلافيا والبلاد الشيوعية، ثم صعدت إلى غرفتي. وجدتها مقفرة، جدرانها مبللة بالرطوبة، مكتبتها مغطاة بالغبار. هذه أمور اعتدتها، فما بها تزعجني اليوم؟ عدت إلى مراسلة الصحيفة الهولندية، قضيت ستة أسابيع أزور الأصدقاء متكلماً عن البلاد اليوغوسلافية، فزرت السيد "وتسترا" وزوجته وأخبرتهما كم خدمتني سيارتهما الصغيرة، كما زرت السيد "كارل دي كراف"، وقضيت ساعات طويلة في الصلاة معه. على العموم ملأت وقتي وشغلت نفسي بأعمال كثيرة، تلافياً للوحدة.

غير أنني ضقت ذرعاً إذ لحَّت عليّ الوحدة، فجلست على سريري الحديدي وصرخت إلى الرب قائلاً: "أيها الآب، هذه المرة الثالثة أضع أمامك وحدتي، وأشكرك على وعدك بأن تعطيني أولاداً كثيرين، ولكنك تعد للمتوحدين أيضاً بيتاً يأوون إليه." وفجأة ذكرت العدد السادس من المزمور الثامن والستين فطالبته بوعده القائل: "الله مسكن المتوحدين في بيت" يارب أقدر عملك وأشكرك على البنين الذين أعطيتني، وأشكرك لأجل هذه الغرفة، ولكنني أريد بيتاً وزوجة وأولاداً. ثلاثاً طلب إليك بولس أن تخلصه من الشوكة التي في الجسد وثلاثاً رفضت. فها أنا الآن أقتفي إثر خطواته وأطلب إليك مرة أخرى، فإن رفضت فلن أعود إلى ذكر هذا الموضوع. سأدون هذه المرة أيضاً في كتابي." وقلبت إلى الصفحة المعهودة ودونت المرة الثالثة، ذاكراً الزمان .. والمكان .. "فتي"

٧ يوليه عام ١٩٥٧، وأغلقت الكتاب قائلاً: "لقد عيَّنت لبعض الناس أن يعيشوا وحيدين! أما أنا فلست كذلك! أرجوك أيها الرب بأن تخلصني من هذه الوحدة."

انقضى ثلاثة أشهر تقريباً قبلما أجابني الرب بشكل مقتضب سريع ركعت أصلي ذات صباح وإذا بوجه يتراءى لي، ببسمته الجميلة، وشعره الطويل الأشقر، وعينيه الجذابتين – "كوري" – "كوري فان دام" – أهذه التي يريدها لي الرب؟ أيمنحني فتاة لم أحلم بها؟ عرفتها معرفة جيدة، عملت إلى جانبها، ذهبت معها وباقي العمال إلى المؤتمرات في نهاية كل أسبوع ولكن لم تخطر ببالي فكرة الارتباط بها. لقد كانت فتاة صغيرة. افترقنا منذ أربع سنوات، أنا إلى إنجلترا إلى معهد الكتاب المقدس، وهي لتدرس التمريض. لا شك أنها أنهت دراستها الآن، فبدت لي تلك الفتاة الصغيرة، صبية ناضجة، أمامها شبان كثيرون يطلبون يدها، إن لم تكن قد تزوجت بعد.

نهضت مسرعاً، ركبت سيارتي ونهبت الأرض نهباً إلى "الكمار"، إلى بيتها، حيث كنا نعود بعد المؤتمرات الأسبوعية، فيستقبلنا والدها بحرارة وتشجيع، وتقدم لنا والدتها القهوة والكعك. ولكن ماذا أفعل عند وصولي؟ ولو فتحت هي الباب، فماذا أقول؟ في غمرة الأفكار هذه، وجدتني أمام البيت، وقد أغلقت نوافذه، وأهملت حديقته، فاتضح لي انهم نزحوا عنه. وبقلب يائس أسرعت إلى معمل الشيكولاتة أستفسر السيد "رنجرز" عنها. أجابني بأنها تدربت على التمريض في مستشفى القديسة إليزابيث في "هارلم" وقد تكون أنهت دراستها حسب ظنه، ولكنه لم يسمع ما إذا كانت

قد تزوجت أم لا. وأردف قائلاً: "يا للرجل المحظوظ الذي يرتبط بهذه الفتاة!"

"هارلم"! نعم لقد أهملت بعض أعمالي التي وجب علي عملها في "هارلم" كزيارات جمعيات الكتاب المقدس وبعض الكنائس والناس. إذاً لأذهب إلى "هارلم". ولكن قبل ذلك اتصلت هاتفياً من "الكمار" بمستشفى القديسة إليزابيث سائلاً عن "كوري". فأخبرتني الموظفة أن "كوري" ستنهي دروسها هذا العام وأنها الآن تقطن في أجمل حي من أحياء "هارلم"، في شقة جميلة، قدمتها لها سيدة ثرية مقابل سكنها معها وتمريضها إياها! أعطتني العنوان موضحة أن شقة "كوري" تقع في الطابق العلوي من البيت. على الفور اهتديت إلى البيت، وتطلعت إلى النوافذ العلوية، عالماً أنها نوافذ "كوري" التي تطل على الشرفة.

أوقفت السيارة بجانب هذا البيت الفخم، وكأنه إحدى قلاع المنطقة، و"كوري" ملكته، وأنا فارسها. أم هي "جولييت"، وأنا "روميو"، وعندما تطل من الشرفة أقفز أمامها وأناجيها. جلست في السيارة أنتظر، ولكن "كوري" لم تطل عليّ .. جاء العصر، وحل المساء، و"كوري" لم تطل، فطرحت عني غباوتي، وطرقت الباب. فتحته خادمة جميلة، سألتها:

"أتستطيعين أن تدعي لي الآنسة "فان دام"؟"

أجابت: "الآنسة "فان دام" تقطن هنا، ولكنها الآن في "الكمار" مع عائلتها."

فقلت بلهجة اليائس: "في "الكمار"؟ مع عائلتها؟ ولكن جميع نوافذ بيتهم وأبوابه مغلقة، وحديقتهم مهملة .. لا أحد منهم في البيت ..!"

عند صرخة اليأس هذه، ظهرت سيدة، بيضاء الشعر، نحيلة الجسم وأخبرتني بلطف: "إن الآنسة "فان دام" الآن مع والدها المريض، وقد نقلا إلى بيت جديد يخلو من السلالم، كي لا ينزعج السيد "فان دام" من اعتلائها." أخذت منها العنوان شاكراً، ورحت أنهي أعمالي في "هارلم"، وكلي ألم، وشوق لرؤية "كوري"!

ذكرت الساعات التي كنت أجلس فيها أتحدث إلى السيد "فان دام"، ولذلك لم أجد ما يمنعني عن السؤال عنه الآن، إنه لأمر طبيعي لن يثير أي شكوك، وهكذا ذهبت لزيارته. فتحت "كوري" الباب فقلت: "جئت أسأل عن صحة والدك." بدا قولي سخيفاً، يفهم القصد منه طفل صغير، ولكن "كوري" اقتادتني بجد إلى غرفة والدها المريض. جلست إلى جواره زهاء ساعة أحدثه عن سفراتي خلف الستار الحديدي، وعن الحياة هناك، وآمالي المستقبلة، و"كوري" تذهب وتجيء بردائها الأبيض، تحمل الأدوية، وصواني الطعام، وغيرها فبدت لعيني أجمل فتاة في العالم، وبدا الارتباط بها مستحيلاً عليّ.

ومع ذلك أخذت أزور والدها المريض مرتين في الأسبوع. فأتحدث إليها بضعة دقائق على الباب، وأنصرف.

بين الزيارة والأخرى، كنت أعد العدة لطلب يدها!! ماذا أقول لها؟ "يا "كوري" أتتزوجينني؟ أم: يا "كوري" أترضين بي زوجاً؟ لست ثرياً، ولا أقدر أن أمنحك عيشاً يليق بك، قد أغيب طويلاً عن البيت، وتتعذر علينا المراسلة، أو تستحيل، قد تضطرين إلى التزام الصمت، فلا تجسرين على البوح بمكان إقامتي. قد تجهلين كل أموري، وإن لم أعد يوماً،

لا تدرين ماذا حصل لي. بالإضافة إلى هذه جميعها، ليس لي دخل منتظم، وبيتي مؤلف من غرفة واحدة." هل ترضين يا "كوري" بهذه؟

في وسط هذه الأفكار والتدابير، في أواسط شهر أكتوبر. استلمت من السفارة الهنغارية، تأشيرة الدخول إلى "هنغاريا". رغم أنني طلبتها بعد الثورة بأسبوع.

وفجأة انفتح أمامي السبيل لمواجهة "كوري". سأطلعها على رغبتي ولن أطلب جواباً منها إلا بعد عودتي من "هنغاريا". سأتركها مدة من الزمن لتعبر عن رأيها. وتقرر مصيرها، فتتذوق لوعة الفراق والبعد إذا ما كانت قررت قبول طلبي. وهكذا بقلب ملؤه الأمل، قفزت إلى السيارة وقرعت بابها منتظراً فتحه. فتحت "كوري"، وقد اكفهرّ وجهها مما أظهر الحقيقة المرّة، فسألت "والدك ..؟"

أجابت: "قبل نصل ساعة .. والطبيب مايزال في غرفته."

استحال عليّ مفاتحتها بحديثي المقصود، فحضرت الجنازة وعدت إلى "فتي" بقلب يكاد يحترق. ولم أرَ "كوري" مدة ثلاثة أسابيع، قضيتها في البحث عن كتب مقدسة ونبذ، وأناجيل باللغة الهنغارية، وفي جميعها رغم قلتها.

أخيراً، في ليلة صافية مقمرة، دعوت "كوري" للنزهة في ضوء القمر. لبت الدعوة وسرنا مسافة على الطريق العمومي، إلى أن انعطف، وبدأ طريق ضيّق منزو. أوقفت السيارة وبدأت بالكلام، ولكني شعرت أنني أخطئ في كل ما أقول. قلت: "كوري، أريد الزواج منك، ولكن لا تجيبيني

بالنفي، إلا بعد أن أعود من هنغاريا. فكري في صعوبة رفضك عليّ وعليك." ورحت أخبرها بالخطة التي وضعتها لحياتي، واثقاَ أنها إرادة الرب لي. أخبرتها أن الشهر المقبل سيريها نوع الحياة التي سأقدمها لها، وفترة تدريب لها على المستقبل معي إذا اختارت مشاركتي "قبولك طلبي ضرب من الجنون، ولكنني في مسيس الحاجة إليك .. أريدك أن تقبلي طلبي .."

لمعت عيناها واتسعتا. حاولت أن تجيبني، ولكنني وضعت يدي على فهمها وأسكتها، منتزعاً وعدها بالجواب بعد عودتي من "هنغاريا".

يا للفرق الشاسع بين هذه الرحلة وسابقتها!! الطريق التي كنت أنهبها نهباً فتقصر أمامي أصبحت الآن طويلة لن تنتهي كأنها تدعوني إلى العودة! هناك شخص يهتم بي وينتظر عودتي. حتى الجند، حراس الحدود خفتهم، خشيت تفتيشهم ولأول مرة في حياتي أحسست بانني أحب الحياة! لا أريد أن أموت! لا أريد أن يعيقني شيء عن الرجوع! لماذا؟! هل لكثرة ما سمعت عن سوء حال "هنغاريا"؟ أم لوجود من تهتم برجوعي وتنتظر عودتي؟! لست أدري.

على كل حال وصلت الحدود، وأبصرت الحراس، وللمرة الثانية، انعمت العيون المبصرة ووجدت نفسي أسير بمحاذاة نهر الدانوب الجميل! غير أن مياهه اليوم كانت مكدّرة بُنّية اللون عوضاً عن الزرقة الصافية. أحسست بالجوع، وصممت على تناول بعض الطعام. أوقفت السيارة في بقعة بجانب النهر، ورحت أجهز ما آكله، مخرجاً بذلك بعض صناديق النبذ التي لم يبصرها الحرس. وما ان بدأت بفتح إحدى علب البازلاء

حتى سمعت مخر الماء بالقرب مني. التفت، فرأيت زورقاً يخترق الماء باتجاهي، يقوده جندي مسلح، أوقفه بجانبي، وترجل نحوي يتبعه زميله.

"ربي أعني كي لا أستسلم للخوف." قلت هذا، وأنا أحرك البازلاء في العلبة. صوب أحد الجنديين بندقيته إليّ، وراح الثاني ينظر إلى السيارة، فتح بابها محاولاً تفتيشها. عندها بدأت أتكلم بالهولندية واثقاً أنهما لا يفهمانني فقلت: "يسرني أن أراكما هنا! فأنتما تريان أنني أجهز طعاماً أتناوله."

في هذه الأثناء فتح الجندي باب السيارة الثاني، فدنوت منه بسرعة، وانتزعت صحنين من السيارة قائلا: "لعلكما تشاركاني الطعام." قلت هذا ناظراً إليهما، ودعوتهما للطعام بالإشارة. هزّ أحدهما رأسه علامة الرفض. فهمت أنه لا يرغب في الرشوة. ليس بلقمة من البازلاء على الأقل! أقبل إليه الثاني وأخذ يهز الصناديق. متى تحل البلوى يا ترى؟!!

خاطبتهما بالهولندية، ثانية قائلاً: "إذا كنتما لا تريدان مشاركتي في طعامي، فلا شك أنكما لا تمانعان أن أتناوله ساخناً." وددت أن أبدأ بالأكل ففكرت ماذا أفعل؟ أأشكر الله؟ هل أصلي قبل الطعام، وقد سمعت ما يقاسيه المسيحيون في هنغاريا. ولكن أتيحت لي فرصة هنا للشهادة، هل أرفضها؟ أغمضت عيني، وأشبكت يدي، وبشكل واضح صليت صلاة طويلة، شكرت الله فيها لأجل الطعام الذي سأتناوله. فحدث أمر غريب. إذ توقف الجنديان عن التفتيش وأنا أصلي. عندما انتهيت، طرقا بابي السيارة، واقتربا مني بينما تناولت أول لقمة. نظرا إليّ بشزر، ثم قفزا إلى الزورق وانصرفا وهما ينفثان غضباً.

وجدت "بودابست" أجمل مدينة رأيتها في رحلاتي، ولكن آثار الخراب كانت ظاهرة فيها، جدران البيوت مثقّبة إثر الرصاص، والأشجار مكسرة الأغصان، وخطوط السكك الحديدية مقلوبة.

ذهبت إلى السيد "ب" أستاذ ذي مركز مرموق في إحدى جامعات "بودابست" المشهورة. سر هذا سروراً شديداً للكتب المقدسة التي قدمتها إليه لقلتها وندرتها، ولم يتردد لحظة في قبول دعوتي أن يكون رفيقي ومترجمي قائلاً: "نحن أيها الأخ نعمل لهدف واحد" غير عالم أن هذا الجواب وهذه التضحية ستكلفه مركزه ومعيشته. لقد كان مستعداً أن يتجول معي بقدر ما شئت، وأنذرني بضرورة احتمال المخاطر لأن السلطات تعد كل اجتماع كنسي مؤامرة، أو تمهيداً لانقلاب. فقد كابد مسيحيو "بودابست" وخصوصاً الرعاة أهوالاً كثيرة، إذ سجن كثيرون منهم مدة ست سنوات، وفرض على كل رجل دين أن يجدد إقامته كل شهرين، مما زاد قلقهم، ووتّر أعصابهم.

أخذني الأستاذ "ب" لزيارة صديق له راعي لكنيسة إصلاحية. فتح هذا الباب، والتفت يمنة ويسرة، قبل أن يدخلنا إلى بيته. امتلأ البيت بمختلف أنواع النجف بعضها جاهز، وبعضها على وشك أن ينتهي. كان هذا الرجل راعي كنيسة أرغمته السلطة على ترك كنيسته والمنبر دون أي عذر، فانسحب وزوجته انسحاباً كلياً من الكنيسة خوفاً من جلب الخطر على الآخرين. وهو الآن يشتغل ليلاً ونهاراً في عمل النجف لتأمين عيش عائلته. هكذا اضطهد كل راعٍ لم يقدم تنازلات للسلطات.

أما الذين يخضعون للسلطة فيصبحون آلة بين يديها. وتلبية لرغبتي

أخبرني بأن واحداً من هذا النوع يقوم بخدمة دينية في إحدى المدارس، وأخذني لزيارتها. أقبل الراعي لتحيتي وقال لي مشيراً إلى الأحداث أمامه: "أكثر هؤلاء الأحداث ينتمون إلى كنيستي." نظرت إليهم وإذا بكل واحد منهم يرتدي الشارة الحمراء حول عنقه وهي علامة الحماس والوطنية. وأضاف: "أحد شروط الوطنية اتخاذ الفرد موقفاً مرضياً تجاه تقاليد آبائه الدينية وتراثهم الديني."

سألته: "وما هي تقاليد آبائه الدينية وخرافاتهم؟"

أجاب: "اعتقادهم بالعجائب مثلاً، وقصة الخليقة، والخطية الأصلية، وسقوط الطبيعة البشرية، وغيرها من هذا النوع."

"والإيمان بأن المسيح هو الله؟"

"هذه العقيدة في رأس القائمة."

"ما شعورك أنت نحو هذه الأمور؟"

أخفض بصره! وهز كتفيه قائلاً: "ما العمل ..؟ علينا أن نعيش معهم."

بدت إمارات البهجة والفرح على وجوه الأولاد جميعهم، ولفرط سرورهم بدأوا بالتصفيق تلقائياً، وسرعان ما تحمسوا جميعهم، وعلا تصفيقهم بإيقاع موحد، حتى أحسست أنه يكاد يخترق عظامي.

بعد هذا الحفل، أخذنا الراعي لزيارة كنيسته، فحدثنا عن الشبابيك الجديدة فيها، وتحسين التدفئة، واتساع الملاعب خلفها، وفجأة التفت إليّ قائلاً: "يا أخي أندرو ماذا أفعل؟!"

لم أعرف بماذا أنصحه، وأنا لم أجرب موقفه. من السهل أن أقول له: "تشدد وتشجع" ولكن معيشة هذا الرجل، ومعيشة عائلته بأسرها تتوقف على رضى السلطة عنهم. لم يسعني إلا أن أروي له بعض ما يفعله المسيحيون في بولندا، وتشيكوسلوفاكيا، ويوغوسلافيا، وكيف يعيشون حياة مسيحية، يقاومون جميع مضايقيهم، ويحتملون الشدائد لأن محبة المسيح تملأ قلوبهم وتحصرهم. فإذا ما ملأت هذه المحبة قلوب الناس، يرشدهم الله إلى إرادته لحياتهم.

فأخبرني الأستاذ "ب" عند هذا الحد أن بعض الكنائس في هنغاريا تحيا بهذه المحبة وهذا الإيمان فتحتمل الاضطهاد، ويعقد المؤمنون ما يعرف عندهم بعظات الجنازات أو حفلات الزفاف التي عن طريقها يبشرون بالكلمة وينشرونها.

في اليوم التالي دعاني الأستاذ "ب" إلى حضور إكليل في كنيسة، وأخطرني بأنه ستتاح لي فرصة للوعظ، لذلك عليّ أن أبدأ بتهنئة العروسين ثم أعظ معطياً رسالة الخلاص بكل قوتها ومعانيها.

ابتسمت لهذه الدعوة، ولكن الأستاذ نبهني أن تلك كانت الطريقة الوحيدة التي يصلون بواسطتها إلى القلوب، ويتسنى لهم الوعظ، لأن الناس يخشون دخول الكنيسة ما لم يكن هنالك داع كحفل زفاف مثلاً أو جنازة. حتى إن أحد أفراد البوليس ادّعى أن الأستاذ يطلب من الله أن يميت أحد الأصدقاء كل يوم كي يستطيع أن يعظ.

وهكذا كان. هنأت العروسين، ووعظت، ثم أخبرت الأستاذ عن الطريقة التي استخدمناها في بولندا، أي تحية الحضور تحية هولندية، ثم تحية الله،

فتحمس لهذه الفكرة، فاتصل هاتفياً بعدد كبير في أكبر كنيسة في البلد. أعدنا الكرة الليلة التالية، وكل ليلة، مما اجتذب الأنظار واضطرنا إلى عدم البوح عن مكان الاجتماع حتى آخر لحظة.

قبل الوعظ، كنت أرى الرعاة يتفرسون في وجوه الحاضرين، بحثاً عن البوليس السري، فقد قال لي الأستاذ: "أصبحنا نعرفهم واحداً واحداً، إذ بعد الثورة الأخيرة، منعوا كل أنواع التجمهر." تسربت العدوى إلى الجميع وإليّ حتى بت أحلم كل ليلة بالأخطار الحتمية والبوليس.

تحقق حلمي، ولاحقنا البوليس في إحدى الليالي. علمت بوجودهم حال دخولهم بمجرد النظر إلى وجه الأستاذ "ب" الذي امتقع وتغيَّر لونه عند رؤيتهم وهمس قائلاً: "لقد حضروا." علمت مَن قصد، فأردف هامساً: "الحق بي إلى الغرفة المجاورة."

لحقت به فواجهني جنديان، أخذا يسألانني أسئلة عديدة، ويتحريان حقيقتي، ثم أمراني والأستاذ "ب" بالمثول أمام مكتب الإدارة في اليوم التالي.

قال لي الأستاذ "ب": "في آخر حادث من هذا النوع حبس رجلان مدة طويلة."

بعد الاجتماع، اجتمع الرعاة للمشاورة. أشار الأستاذ "ب" بضرورة الصلاة، واقترح أن نذهب جميعنا إلى بيته لهذا الغرض. لبينا طلبه ودخلنا بيته، الذي كان بمثابة قصر فخم. مما دلّ على مركز هذا الرجل في الهيئة الاجتماعية، ومع هذا فقد خاطر بمركزه وبيته لأجل المسيح.

عرفني على ابنه "يانوس"، وكان شاباً نشيطاً ناجحاً تزوج حديثاً، واتبع خطوات والده في المسيحية واستعد للتضحية بكل شيء لأجل المسيح.

جئونا تلك الليلة للصلاة، كما جئت الكنيسة الأولى، وأخذنا نتضرع ونصرخ إلى الله ليتدخل بنفسه في حل المشكلة. وفجأة توقفنا عن الصلاة، وشعر كل منا بأن صلاته استجيبت. نهضنا ونظرنا إلى الساعة، فإذا بها الحادية عشر والدقيقة الخامسة والثلاثين. وفي هذه الساعة عينها تأكدنا أن كل شيء سيسير على ما يرام غداً.

ذهبنا إلى مكتب الإدارة، أنا والأستاذ "ب" في تمام الساعة التاسعة صباحاً كما أمرنا فقال لي "إن مدير هذه الدائرة رجل قاس عنيد لا يغيِّر قراره مهما كلفه الأمر، أنا أعرفه جيداَ. أما مساعده فقد يكون أكثر ليونة منه. غير أننا على موعد لمقابلة المدير بنفسه في تمام التاسعة."

انتظرنا حتى نُدعى للمقابلة. حلت الساعة التاسعة ثم التاسعة والنصف، والعاشرة ولم نُدع. عند الظهر جاءنا أحد الموظفين قائلاً: "تعاليا من هنا." تبعناه في ممر طويل ضيق. تجاوزنا غرفة المدير، فالتفت إلينا الموظف قائلاً: "رئيس الدائرة مريض اليوم وأوكل أمركم إلى مساعده. لا ندري ماذا أصابه الليلة الماضية فنظر إليّ الأستاذ "ب" نظرة الأمل والارتياح، بعد عشرين دقيقة تقريباً خرجنا بأمان وحرية. كم وددت أن أسأل في أية ساعة مرض الرئيس، ولكنني لم أشك في أنها كانت الساعة الحادية عشر والدقيقة الخامسة والثلاثين ليلاً.

أغلقت بهذه المغامرة كل فرصة للشهادة، أو الوعظ في "بودابست" فدبر لي الأستاذ "ب" رحلة تستغرق عشرة أيام إلى شرقي "هنغاريا"، كما زودني بمترجم يرافقني.

عدت تواً إلى بيت الأستاذ "ب" بعد هذه الغيبة لأخبره و"يانوس" بما عملنا وما قمنا به. شعرت بمجرد دخولي بأن مصيبة حلت بالبيت. فقد كان الأب والابن في البيت وسط النهار، ولكنهما كتما الأمر عني، وتصرفا تصرفاً طبيعياً جداً، وألحّا عليّ أن أتناول طعام الإفطار معهما صباح اليوم التالي.

طاردني مرة أخرى الشعور بأن شيئاً ما ليس على ما يرام ولكن لم يبح أحد بشيء. عندما انتهينا من الطعام، قام "يانوس" وقدم إليّ علبة صغيرة قائلاً: "إنك تضحّي كثيراً لأجل زياراتنا ونحن نعجز عن شكرك. نرجو أن تأخذ هذه التقدمة الصغيرة للفتاة التي تنتظرك في هولندا. أما نحن فنصلي لك على الدوام."

فتحت العلبة وإذا بها تحتوي على دبوس ماسي قديم، لن يمكنني شراء نظيره. لعل تعبير وجهي أضحك السيد "يانوس" فأردف قائلاً: "نرجو الله أن تقبل بك فتاتك زوجاً لها."

عدت إلى هولندا، مخيماً على جوانب الطريق للمبيت. وفي إحدى الليالي استيقظت إثر كابوس أزعجني. حلمت أن فرقة كاملة من الجنود الشيوعيين يطاردونني، وقد لفّ كل منهم شارته الحمراء حول عنقه، وهم يصفقون تصفيقاً حاراً عالياً. أيقنت من هذا الحلم أن المصيبة قد حلت بالأستاذ "ب" فكتبت له رسالة، أرسلتها إليه من أول مدينة مررت بها على الطريق.

وصلت هولندا، فذهبت على الفور إلى "هارلم" وليس إلى "فتي"، ووقفت بباب المستشفى حيث علمت أن "كوري" تعمل من الثالثة بعد الظهر حتى

الثانية عشر، وما إن انتصف الليل حتى وقفت تحت مصباح الشارع قرب المستشفى أنتظر خروجها، فاحمرّ شعرها الأشقر تحت الضياء. وبدت بشرتها جميلة.

خاطبتها قائلاً: "لقد عدت يا "كوري"، وأنا أحبك، أحبك مهما كان جوابك، نعم أو لا!"

بدت تعبة مرهقة، إثر السهر والعمل المستمر، ولكنها ابتسمت وهي تجيبني: "وأنا أحبك يا أندرو. هذه هي المصيبة. سأقلق لغيابك، وأفقدك، وأدأب على الصلاة لأجلك. أليس من الأفضل أن أكون زوجة قلقة، بدلاً من مجرد صديقة تفكر بك؟"

بعد أسبوع ترافقنا إلى السوق، واشترينا خاتمين، ذهبنا بهما إلى غرفة "كوري" في الطابق العلوي من القلعة، وألبس أحدنا الآخر خاتم الخطبة في إصبع اليد اليسرى حسب العادة في هولندا، على أن نغيِّره إلى اليُمنى عند الزواج.

قلت وأنا لا أعلم ماذا أقول: "يا "كوري" لا ندري أين نُقاد ولا أين تنتهي بنا الطريق." فأجابت: "لنترافق إلى حيث لا ندري." وهكذا أصبحت هذه الجمل شعار حياتنا المستقبلة.

عدت إلى "فتي" لأجد رسالة من الأستاذ "ب"، يكرر فيها شكره على زيارتي إلى "هنغاريا"، لأن تلك الزيارة شجعت الكنائس وقوّتها إذ أكدت لها أن غيرها من الكنائس في بلاد العالم تفكر بها وتصلي لأجلها. وتمنى لو أعود مرّة ثانية ثم أعلمني بطريقة لطيفة ما حل به قائلاً: "لا بد لي أن

أشكرك في أخباري على ألا تظن أنها نتيجة زيارتك، لأن ما حل بي كان حتمياً. لقد أُرغمت على الاستقالة من عملي في الجامعة. لا تحزن، فقد ضحّى غيري بأكثر من مراكزهم لسيدهم. لا تتوانَ في عملك! لأن تشجيع الكنائس المضطهدة أمر مهم وضروري جداً. هذا هو عملك يا أندرو، ونحن لنا عملنا، ونصلي لأجلك كل يوم. ربما لا أستطيع أن أكتب إليك ثانية! رسائلنا جميعها مراقبة، وهذه حملها إليك أحد الأصدقاء. تشجع وتقوَّ، وأكمِل عملك!".

(١٢)

كنيسة مزيَّفة

عُقد قراني على "كوري" في "الكمار" في السابع والعشرين من شهر يونيه عام ١٩٥٨. حضر الحفلة أخواي وزوجتاهما، وأختاي وزوجاهما، والسيد "رنجرز" و"كريتجي" من شركة الشيكولاتة، وبعض الممرضات، كما جاء العم "هوبي" مهنئاً بالنيابة عن زوجته المريضة. وكم وددت لو تمكن من المجيء كل من "أنطونين" طالب الطب التشيكوسلوفاكي، و"جميلا" و"نقولا" اليوغوسلافيان، والأستاذ "ب" الهنغاري وابنه "يانوس".

استعرنا سيارة السيد "كارل دي كراف" بغية السفر فيها إلى فرنسا لقضاء شهر العسل، ولكن بعد حفلة الزواج، شعر كلانا بالتعب الشديد. أنا بعد عمل الساعات الطويلة في مخيمات اللاجئين بعد عودتي من هنغاريا، و"كوري" بعد الدرس والبحث لامتحانات التمريض النهائية، والحصول على الشهادة. وهكذا سرنا مسافة قصيرة، وصلنا بعدها إلى فندق صغير، رحب بنا أهله، وسمحوا لنا باستعمال حديقته للسيارة، ففعلنا، وقضينا شهر العسل هناك.

مازالت غرفتي رطبة، يكف سقفها في بضعة أماكن، لا مطبخ لها ولا راحة حقيقية فيها ولكن هذه الأمور لم تعد في الحسبان. ماذا يهمني مادامت "كوري" معي، ومادمنا متحابين متفاهمين؟! لم يكن ما يزعجنا سوى بالات

الثياب التي أخذت تتوارد علينا من بلدان مختلفة، كنت طلبت مساعدتها للاجئين؛ لم تتسع غرفتنا لها جميعها، ولم نجد مكانا آخر لوضعها، إذ اقتسم البيت أخوتي، وأختاي بينهم، فأخذت كل عائلة غرفة. والأسوأ من ذلك أن الثياب أرسلت دون غسل، فاضطررنا إلى غسلها أنا و"كوري"، ثم تحميل السيارة الصغيرة، ونقل الثياب إلى المخيمات.

رغبت جداً في اصطحاب "كوري" معي إلى المخيم، ليس لتتعرف على من تغسل لهم الثياب، بل لتطلع، بوصفها ممرضة، على أحوالهم وتسدي إليهم خدماتها. ذات يوم حمّلنا مقعد السيارة الخلفي إلى السقف بالثياب، وذهبنا إلى المخيم الأول، وهو عبارة عن ثكنة عسكرية، عسكر فيها الجنود النازيون أثناء الحرب، والآن صارت مخيماً للاجئين. نظرة واحدة إلى الحالة التي يعيشها أولئك البشر، كانت كافية لتمنع "كوري" عن الطعام تلك الليلة، وتسبب لها أرقاً مزعجاً.

هذه حال المخيم الأول، فكيف بـــ "كوري" لو رأت الثاني، بشقائه الذي لا يوصف، حيث تبيع الفتيات شرفها مقابل بضعة قروش لا تساوي شيئاً! اقتربنا منه، فما كان من شلة من الشبان إلا ان قذفوا علينا كومة من الزبالة والأوساخ. فقلت لـــ "كوري" وأنا أنفض أوراق الخس عن كتفها: "لا تغضبي يا "كوري"، لا عمل لهؤلاء الشباب هنا سوى اختلاق الأذى."

أما أسوأ المخيمات بالنسبة إليّ فقد كان الثالث، أطلق عليه اسم "هنري داننت Dunnant"، وهو اسم مؤسس منظمة الصليب الأحمر، وقد لجأ إليه جميع المهنيين المثقفين الذين حاولوا المحافظة على تقاليدهم، وعقائدهم،

ورفعة معيشتهم رغم التعاسة، والشقاء المحيط بهم، مما أدمى قلبي وأحزنني، لشعوري معهم بعدم جدوى محاولاتهم.

خرجت من مكتب الإدارة، فوجدت "كوري" تتحدث إلى آنسة، تدعى "هنرييت". كانت هذه معلمة تعلم أولاداً تراوح أعمارهم بين الثالثة عشر والرابعة عشر، وهذا العمر أحوج ما يكون إلى التوجيه والتعليم. تلك كانت مشكلتها فقالت: "لو كنت أعلّم أطفالاً بين السادسة والسابعة، لاستطعت أن أتغاضى عما أشاهده. ولكن السن التي تقيدت بها تعرف بسن التكريس، تكريس الشبيبة."

أرجعت صدى قولها: "تكريس الشبيبة؟!"

أجابت: "نعم أنا أنتمي إلى الكنيسة اللوثرية، ونحن نقيم أهمية كبيرة جداً لخدمة التثبيت، وانضمام الشبيبة إلى الكنيسة. ونعتبر يوم التثبيت أهم أيام الحياة، إذ فيه يصبح الولد شاباً، مسؤولاً عن نفسه، ينتظر منه أن يقوم بمسؤوليات تجاه نفسه والكنيسة، فتوجه الشبيبة بخطابات وإنذارات، ويأخذون على أنفسهم عهوداً جديدة هامة، لخدمة الله والكنيسة، والمحافظة على الإيمان والاستقامة. باختصار، يوم التثبيت بالنسبة إلينا حدث ديني مقدس."

ثم أخبرتنا "هنرييت" عن يوم تكريس الشبيبة في البلاد الشيوعية، ففهمنا أن الدولة تحاول أن تتخذ دور الكنيسة في حياة الشبيبة، فيستعاض عن الاحتفال الكنسي، باحتفال مدني تقيمه الدولة.

قالت: "تتخذ الشبيبة عهوداً أمام الدولة عوضاً عن الله، يتعهدون أن يطيعوها

عوضاً عن الله، ويضحوا في خدمتها لا في خدمة الله. لذلك على المعلمة أن تصرف سنة كاملة في تدريب النشء على هذه الأمور."

فهمت قصدها فسألتها: "وأنت رفضت الانصياع إلى هذه التعاليم؟"

فأجابت: "نعم، رفضت."

قلت: "يا لك من شجاعة."

فابتسمت وقالت: "لا لست بشجاعة. فأنا مجرد معلمة، أوشكت أن تتقاعد. لست بشهيدة، ولكنني لم أحتمل تعليم الأولاد أن الدولة هي الله."

توقَّعت الدولة أن تكرس الشبيبة كلهم. ولكن ٣٠ بالمئة فقط أقبلوا من صف "هنرييت". قالت: "أخذ مفتشو الدولة يزوروننى مرة في الأسبوع آملين أن تتغير الحال في السنة القادمة. ولكن الحال لم تتغير، فأصبحت الزيارات الأسبوعية زيارات يومية، يزورني مفتشون جدد كل ليلة، وعندما أصررت على مقاومتي الصامتة، أخبروني أن عملي هذا يعد خيانة للدولة، ويعتبر حائلاً دون التقدم. وإذا استرسلت في ذلك التعليم أعد خائنة تستحق العقاب."

لم يكفوا عن زيارتها، كل ليلة، يطيلون الإقامة في الشقة حتى ساعة متأخرة من الليل، يستعملون وسائل الإرهاب، والتخويف، حتى تعذر عليها النوم، واستحالت الراحة، فضاقت ذرعاً بالحياة، ولاسيما عندما أخذ الأولاد، بعد الضغط يظهرون ميلهم لحفلة التكريس، فقالت ودموعها تنهمر من عينيها: "هكذا هربت. لم أطق العيش، فقررت هاربة، شأن باقي المعلمين والمعلمات في هذا المخيم. لذلك لا تظنّيني شجاعة."

كوّنت بعد هذا الحديث مع "هنربيت" وزملائها، صورة عن الكنيسة في البلاد الشيوعية، وتذكرت ما رأيته من الحرية الظاهرة في كنائس بولندا، ويوغوسلافيا، وهنغاريا، وتشيكوسلوفاكيا، وألمانيا الشرقية. قيل لي أن خلف هذه البلاد دائرة شبه سرية لا تعرف للحرية معنى، تلك هي رومانيا، وبلغاريا، وألبانيا وروسيا نفسها. لذا قررت أن تكون رحلتي القادمة إلى ألمانيا الشرقية أولاً، وأنه عليّ ان أنطلق من هنا، من ألمانيا الغربية. ولكن "كوري" اضطربت عندما أخبرتها وقالت: "كيف أترك هذه المخيمات؟! لن أتركها وأهلها في مسيس الحاجة إلى خدماتي."

نظرت إلى وجهها، وقد احمر تعباً ودهشة، وعيناها المتألقتان تنمان عن محبة حقيقية فندمت للإتيان بها إلى هذه المخيمات. إنها تذهب من مكان إلى آخر، تمرّض هذا وتنظف ذاك، تجمع الفناجين والصحون، فتفصل أواني المرضى بالسل عن أواني الأصحاء. كانت تعمل بجد ونشاط، مطبقة حذاقة الممرضة، فتدرب الأمهات وتشجعهن، وتنظف الأطفال وتضمد جراحهم، وتنظف عيونهم وحلوقهم، وتدهنها بالأدوية، حتى إنها حاولت أن تقلع بعض الأسنان في بعض الأحيان.

وددت أن ابعدها عن هذا المحيط، تمنيت أن ترافقني لكي تستريح قليلاً، ولكنها أصرّت على البقاء قائلة: "اذهب أنت. أما أنا فلا أحسن الوعظ أو التكلم باللغة الألمانية، حتى ولا قيادة السيارة. اذهب وحدك، وأخبرني بكل شيء عندما تعود."

تركتها لأول مرة، وقطعت الحدود من ألمانيا الغربية إلى الشرقية. لم أستغرب الفقر الذي أدقع السكان، فهو نتيجة الحرب، ولكن هالني الصمت

الرهيب الذي هيمن على الناس. لم أسمع أحداً يتحدث، ولم أسمع صوتاً، كأن الناس جميعهم في حداد وحزن .. أم لعله الخوف والرعب؟! ولم تمض عليّ مدة قصيرة، حتى تسرب الخوف إليّ، وكاد يتملكني أنا أيضاً. شاهدت البوليس في كل مكان، في الشوارع، على الجسور، في الحوانيت، في المعامل، لهم سلطة عظيمة، يوقفون المارين ويفتشون جميع مقتنياتهم، حقائبهم، جيوبهم، دفاترهم وكتبهم!! في هذا كله لم يعترضهم أحد فكان التسليم المحض، جزءًا من الصمت الرهيب الذي ملأ الجو سماً مميتاً. بعكس صوت الجماهير، ارتفع صوت الدولة، وقد عوضت عن هذا الصمت وعاكسته فراحت تنشر الدعاية بأعلى صوتها، في الجرائد، والمجلات، على التلفزيون والإذاعة، وبعض اللافتات في كل مكان وعلى كل حائط.

دهشت لما شاهدت من جفاف وقحل، وذلك لأن الفلاح الألماني هجر حقوله، ونزح إلى المدن إثر وعد الحكومة بأن تحصد المحصول بالآلات عوضاً عن اليد الفردية لأن الاشتراكية أفضل من الفردية، إلا ان انهمار المطر قبل موعد الحصاد بيومين، أتلف الغلّة، فتفشّى الجوع والحرمان. غير أن الدولة اغتنمت هذه المجاعة لإثبات كيانها، ودعم دعايتها، فعلقت لوحات في كل مكان تحمل بيتاً من الشعر ترجمته:

"ولو أن الإله لا يريدُ سيُجنى من مزارعنا الحصيدُ"

وكأن الدولة تتحدى الله وتصارع بقواها قواه تعالى.

أما المطر فلم يتوقف، والحقول لم تحصد، والخبز ندر ولم يوجد! ماذا تفعل الدولة الآن؟! علقت لافتات جديدة، بعد أن نزعت اللافتات السابقة، تحرض الشعب، كاتبة عليها:

"لا وجود للجوع في بلادنا. الخبز يملأ الأسواق والأفران. هذه نصرة أخرى للاشتراكية على قوى الطبيعة."

هل صدقت هذه الأقوال؟ كانت كلها دعاية كاذبة. حاولت شراء رغيف واحد، فلم أجد، حتى ولا في المطاعم أو الفنادق. أما الطامة الكبرى بالنسبة إليّ، فكانت صمت الشعب. صمت الموت! لم يتحدث أحد عن الواقع، أو عن الجوع، ولم يشك أحد من قلّة الخبز والحرمان. الشعب بأسره التزم الصمت.

قصدت في رحلتي هذه أن أركز زيارتي على ساكسونيا من أعمال ألمانيا الشرقية لأن "هنرييت" أخبرتني أن الكنيسة هناك حيَّة. ما نوع حياتها؟ لم أعلم. فألمانيا بلاد المتناقضات. فمن جهة، كان تشديد الدولة أقسى ما شاهدت في أي بلد شيوعي آخر، ومن جهة أخرى، كانت الحرية الدينية فيها أوفر من أي بلد شيوعي آخر.

على أي حال قصدت رجلاً كنت أحمل اسمه وعنوانه، يعمل مع الكنيسة اللوثرية، يقطن منطقة جبلية من ساكسونيا، في بيت جذاب وجميل. عندما وصلت المنزل وجدت دراجة نارية في الحديقة. أخبرني صاحبها "فلهلم Wilhelm" وزوجته "مار" أنها الوسيلة الوحيدة التي يستخدمها للتنقل في ألمانيا الشرقية، محتملاً الشمس وحرّها أو الشتاء بثلوجه ورياحه القارصة.

أمسك بيدي وأدخلني إلى بيته، وراح يحدثني وهو يسعل سعالاً جافاً هزّ جسده هزاً، قال: "إننا دائماً نتطلع إلى من يشجعنا ويقوّينا."

فسألته: "هل لديكم كتب مقدسة وأناجيل أم تحتاجون إليها؟! لقد أحضرت معي كمية لا بأس بها."

فأجاب: "الكتب المقدسة والأناجيل وافرة عندنا" واقتادني إلى غرفة المطالعة، فخلتني في غرفتي. وجدت زهاء اثني عشر كتاباً على الرف. فتناولت أحدها، وقرأت على غلافه، "طبع في الجمهورية الألمانية الديمقراطية."

لاحظ "فلهلم" دهشتي فقال: "لم تمنحنا الدولة في ألمانيا الشرقية حرية الدين والعبادة فحسب، بل أبقت على معاهد الكتاب المقدس، ومدارس اللاهوت التي تخرج مسيحيين حقيقيين، وتسمح لنا بالاجتماعات الانتعاشية التي يحضرها الألوف، ولعلي لا أبالغ في إذا أخبرتك أن بعض اجتماعاتنا تفوق اجتماعاتكم في هولندا."

فقلت له وأنا لا أكاد أصدق ما أسمع: "ولكنك قلت أنكم تترقبون من يشجعكم ويقويكم!! ماذا يعني؟!" امتقع لونه، وقبض كلتا يديه وقال: "نحن في ألمانيا الشرقية نحارب في أخطر معركة. فقد توسلت الدولة أساليب تختلف عن الأساليب الأخرى، فهي تحاول اكتساب المسيحيين بطرق غير مباشرة، لتثنيهم عن إيمانهم، وتعوق ذهابهم إلى الكنيسة!! تعال معي اليوم إلى اجتماع سنودس كنيستي، فتفهم ما أقول."

اقترحت أن نذهب بسياتي، فرحبت السيدة "مار" جداً بالاقتراح وشكرتني قائلة: "إنها الدراجة والرياح الشديدة والبرد تسبب السعال لـــ "فلهلم".

ربت "فلهلم" يدها قائلاً: "اشتداد السعال عليّ يقلقها. ولكن الدراجة يا عزيزتي هي الوسيلة الوحيدة للتنقل بين الشبيبة والنشء في ألمانيا الشرقية." في السيارة عاد إلى موضوعه الأول فقال: "لقد فتحنا نحن الألمان أعين الشيوعية إلى الحقيقة، وهي أن الكنيسة إذا ما اضطهدت، المرغمة على التخلي عن إيمانها، تتفحص هذا الإيمان: هل يساوي الأمر الاضطهاد؟ هل يستحق الإخلاص؟ عندئذ تتمسك به وتنتصر. لذلك تعلم الشيوعيون أن أفضل وسيلة هي الإقناع غير المباشر، والبدء في مرحلة لم يقرر الشباب فيها مصيرهم بعد، فيؤثرون على عقولهم وشعورهم وهم في سن مبكرة. اذكر هذه الأمور في الاجتماع."

انعقد اجتماع السنودس للنظر في هذه القضايا، قضايا الكنيسة المزيفة كما دعوها. فقام راع بعد الآخر يقرأ إحصاءات لم أفهم معناها في بادئ الأمر. فسمعتهم يقولون: "حفلة الترحيب ٣٥ بالمئة، حفلة تكريس الشبيبة ٣٥ بالمئة، خدمات الزواج والأكاليل ٣٥ بالمئة، الوفيات والجنائز ٥٠ بالمئة."

اقترب مني "فلهلم" شارحاً معنى هذه الأرقام فاتضح لي دهاء هذه الخطة، ومدى خطورتها، وهالني الخطر المحقق المنظم الذي يداهم الكنيسة. لقد بدلت الدولة في الخدمات الدينية بكلمة الله كلمة الدولة والوطنية، وراحت تقلد الكنيسة في جميع تقاليدها وخدماتها. فأبدلت بخدمة العماد مثلاً اسماً جذّاب دعته "حفلة الترحيب". أي عندما يسجل اسم الطفل رسمياً في الدوائر الحكومية، تحتفل الدولة بانضمام عضو جديد إليها، وتدعو أبويه وأقرباءهما إلى حفلة كبيرة هي حفلة الترحيب.

وهنالك خدمة الزواج أو الإكليل. فقد جرت العادة أن يقوم العروسان

بنوعين من الزواج: المدني والكنسي. لكن الدولة هنا أخذت النوعين على عاتقها. فعندما تصدر الأوراق الرسمية بقران ما، تدعو العروسين وذويهما إلى حفلة مجانية، وتجري لهما فيها مراسيم الزواج الرسمية والكنسية معاً، وتقدم لجميع المدعوين الطعام، والحلوى، والمرطبات، مرحبة بالعروسين كعضوين عاملين في العائلة الاشتراكية، كي تنمو وتزدهر. هل من حاجة لكنيسة بعد هذا؟!

أما خدمة الجنائز والدفن فلم تختلف كثيراً عن سابقتيها، إذ تقوم الدولة بخدمة كنسية، مجانية، وقورة، يؤبن خلالها المتوفىً وتذكر خدماته الجليلة للدولة والشعب، وشجاعته في سبيل الوطن والمواطنين، وإلى ما هنالك، ثم يدفن بكل وقار واحترام.

أخيراً، وليس آخراً، حدثتي عن خدمة التكريس التي أخبرتني عنها "هنربيت": تكريس الشبيبة للدولة، فهي حفلة تقام في وقت يقدر فيه الشاب ان يُقِرّ رأيه ويقرر مصيره: أيتبع الكنيسة أم الوطن! من الطبيعي أن يقتفي الحدث خطوات زملائه (أو زميلاتها) في صنعه، فيقرر على الانضمام إلى الدولة والوطن وإلا صار عرضة للهزء والسخرية.

تصاعدت الإحصاءات وارتفعت، فقرأ أحد أعضاء السنودس: "تكريس الشبيبة ٧٠ بالمئة، والدفن ٣٠ بالمئة." لم أر في هذا التزايد خطراً بادئ ذي بداءة، ولكن تملكني الخوف والقلق عندما أخبرني "فلهلم" أن أفراد الكنيسة أخذوا على عاتقهم عهود الدولة والوطن بدلاً من عهود الكنيسة.

وقفت الكنيسة في وجه الدولة أول الأمر، فمنعت كل شاب (أو شابة) يشترك في حفلة تكريس الشبيبة من سرّ التثبيت. بالطبع أدى هذا المنع

إلى نفور بين الشاب والكنيسة، مما أفاد الدولة إذ تدخلت، وعوضت للشبيبة واحتضنتهم. فارتفع عدد المنضمين إليها في سنة واحدة من ٤٠ إلى ٥٠ بالمئة، وأخذ يتزايد سنة تلو الأخرى مما حمل بعض الكنائس الطقسية على تخفيف الشدة، فسمحت باشتراك الشبيبة في سر التثبيت، بعد مرور سنة على تعهدهم للدولة، وانضمامهم إليها. لم يثبت على المقاومة سوى الكنائس الكاثوليكية.

قال "فلهلم": "هذه يا أخي معركة الولاء والإخلاص، والكنيسة خاسرة، إذ يصعب على النشء أن يتعرضوا لهزء زملائهم وسخريتهم." أما موقف الكنيسة في وجه هذا الدهاء، فلم يكن إلا التقهقر، والانزواء، عوضاً عن الاندفاع والدفاع، على حدّ قول "فلهلم".

"هذا هو سبب سروري لوجودك بيننا. أنت تقدر أن تذكرهم أن الكنيسة أقوى من الدولة، وأن الكنيسة أشد من أمة أو سلطة. لقد نسينا أننا بالسير مع الله وبحمايته لنا ننتصر."

ثم دعاني لمرافقته في زياراته نصف الشهرية إلى نوادي الشبيبة لعلي أقويهم، بالإضافة إلى أن السيدة "مار" تفضل السيارة على الدراجة. وهكذا رافقته.

تجولت معه مدة أسبوعين. شاهدت الكنائس الجميلة، ملأى بالأناجيل والكتب المقدسة، تجتمع بحرية تامة في الوعظ والعبادة وعقد اجتماعات روحية انتعاشية، يحضرها عدد كبير. لم أر كنائس كهذه، حرّة منطلقة، ولكنها منخفضة الروح المعنوية - في كُلٍّ من البلدان التي زرتها خلف الستار الحديدي.

وعظت بكل حرية وإسهاب، متخذاً موضوعاً واحداً كررته بأساليب متنوعة مختلفة. شجعت الأخوة المؤمنين الألمان أن يكونوا رُسُلاً، لأن الكنيسة الرسولية كنيسة حيَّة.

أصغوا إليّ باهتمام بادئ الأمر، ثم قام الراعي محتجاً يقول: "يا أخي أندرو يسهل عليك هذا القول. أنت حر طليق، تستطيع السفر كلما شئت، وأين شئت، تحمل البشارة، أما نحن فمغلق علينا، مقيدون لا يسمح لنا بالخروج من بلادنا."

فأجبته وقلت: "انتظر قليلاً يا أخي! فكِّر بما قلت. إنني أتكلَّف الكثير، وأحتمل المشقات للوصول إليكم، أما أنتم فقد وضعكم الله في وسط حقل التبشير. عليكم أن تشكروه لذلك! كم جندياً روسياً في بلدك؟ نصف مليون؟! فكِّر في جسامة هذه المسؤولية! لِمَ لا تبشرهم لم لا تصبح رسولاً إليهم."

ثم رويت لهم قصة رجل حوّل منفاه إلى مكان للتبشير. ذكَّرتهم ببولس الرسول في سجن رومية، وهو مقيَّد إلى جنديين رومانيين. قلت لهم: "كان بإمكانه اختيار أحد أمرين: إما أن يجلس بينهما متذمراً لأنه مقيد، وإما أن يغتنم فرصة وجودهما معه وربحهما للرب، فاختار الأمر الثاني، وشكر الله على الجنديين اللذين يسمعان. بعد فترة، اقتنع أحد الحارسين، ثم دخل جنديان آخران، فبدأ بولس تبشيرهما من جديد! ماذا كانت النتيجة؟ قَبِل هؤلاء الرجال الخلاص والإيمان، وبذلك أسَّس بولس كنيسة صغيرة في بيت القيصر الروماني. هذه هي مسؤولية المسيحيين، وفرصتهم التي لا تقدّر، خلف الستار الحديدي."

(١٣)

في الدائرة الداخلية

بمجرد وصولي إلى ألمانيا الغربية بحثت بجدية عن "كوري" في المخيمات حيث تركتها. أين عساها تكون، وماذا عساها تفعل؟ أخيراً وجدتها تفحص رؤوس مجموعة من الأولاد وقف أمامها بحثاً عن حشرات الرأس وحرصاً على النظافة، والأنظمة الصحية. ذعرت لمنظر وجهها الهزيل وقد تغيَّر بأقل من ثلاثة أسابيع. لقد ضعف جسمها، وشحب لونها. لمت نفسي مراراً وتكراراً لتركها في هذا العمل. فحاولت أن أبحث عن وسيلة لأخرجها من هذا المكان. وفجأة قررت الذهاب إلى يوغوسلافيا. وسأجبر "كوري" على مرافقتي. سأجمع بعض الأناجيل اليوغوسلافية وآخذها إلى تلك الكنائس التي يشترك فيها أربعمئة منهم بسبعة أناجيل أو كتب مقدسة فقط. وهكذا، بعثت بجوازي سفرنا إلى السفارة، رغم احتجاج "كوري"، لعلمي أن رحلة كهذه تفيدها وتعيدها إلى صحتها ونشاطها.

حصلت على تأشيرة السفر بعد أيام قلائل، فكانت تلك رحلتي الأولى مع "كوري"، خلف الستار الحديدي، لم يعترضنا حرس الحدود في يوغوسلافيا ظناً منهم أننا عروسان يبحثان عن مكان يقضيان فيه شهر العسل، فأخذا ينصحاننا إلى أي فندق نذهب، وأية أمكنة نزور، دون

الاهتمام بالسيارة وما فيها من بضاعة تتطلب التفتيش، مما أثبت لي أن اصطحاب سيدة في السفر يسهل المرور، ويقلّل من حدّة حرس الحدود.

وسار كل شيء على ما يرام، بلا تعقيد أو مشاكل حتى وصلنا يوغوسلافيا حيث استقبلنا "جميلاً" و"نقولا"، اللذان لم يصدّقا ما يريان عند رؤية الكتب والأناجيل التي جئنا بها إلى الكنيسة. ثم أقبل الباقون شاكرين، الأخوات يقبلن "كوري" ويهنئنها! والاخوة يربتون على ظهري مظهرين إعجابهم بالعروس.

مضت ستة أيام، على أكمل وجه، زرت خلالها كنائس يوغوسلافيا، برفقة "نقولا" الذي استمر في الترجمة لي رغم التهديد والوعيد، مما سهّل عليّ نقل أخبار كنائس ألمانيا الشرقية إلى أهل يوغوسلافيا، وإعلامهم عن امتداد الكنيسة الحديدية، عوضاً عن كنيسة المسيح.

وفجأة، مساء اليوم السابع، بينما كنا قد جلسنا جميعاً – ماعدا "كوري" التي انتابتها وعكة صحية في بيت أحد الأصدقاء – جاء البوليس! دخل رجلان بلباس رمادي، ومنظر مخيف. تفرّسا في وجهي قائلين: "أنت! تعال معنا!"

قلت: "معكما؟! إلى أين؟!"

فأجابا: "اخرس، لا تكمل طعامك! تعال فقط."

أخافت الضجة "كوري" فظهرت بالباب بوجهها الشاحب، وجسدها النحيل فقال الجنديان: "هل هذه معك؟!"

أجبت: "نعم." فقالا: "هي أيضاً! لتتبعنا!"

اتضح لي أن أعمالي وحركاتي السابقة في يوغوسلافيا، كانت جميعها معروفة لدى الحكومة مع أن هذين الجنديين عاملانا بمنتهى اللياقة قائلين إنه من الضروري أن نغادر البلاد فوراً، وطلبا إليّ تسليم جوازي سفرنا. فعلت كما أُمرت، وقلبي يخفق خوفاً من أن يختمهما هذان الجنديان بالختم الأمر الذي يسود صحيفتي عند باقي السفارات. نظرا إليهما، وتفحصا بدقة أختام حكومتهما وإذ لم يجدا ما يستحق العقاب ختما الجوازين باللون الأحمر الثاني، علامة على أنني شخص غير مرغوب فيه في يوغوسلافيا. أثر هذا كله على "كوري"، وهزّ كيانها هزًّا، فكانت تكرر قولها طول الطريق: "أندرو انني خائفة ومرتعبة! وهذان الرجلان كانا يعاملاننا بكل أدب ولطف، وكأن شيئاً لم يحدث."

قلقت جداً على صحة "كوري"، إذ اضطررت إلى التوقف عدة مرات في الطريق، لتتقيأ وتستريح قليلاً قبل مواصلة السير، وإذ وعدت رجلين في ألمانيا أن أوصلهما معي إلى هولنده، رحت أنهب الأرض نهباً لأقابلهما وأعود إلى البيت بأسرع وقت ممكن.

عند وصولي إلى ألمانيا، وجدت رسالتين في الفندق، الواحدة من السفارة البلغارية، والأخرى من سفارة رومانيا، وكلا البلدين رحّب بي زائراً في أراضيه، وعليّ أن أراجع السفارتين في ألمانيا للحصول على تأشيرة. شكرت الله على هذين النبأين وعلمت أنها يده القوية قد دبرت المعجزة. أخيراً سأدخل الدائرة الداخلية خلف الستار الحديدي.

لكن الختمين الأحمرين في جوازي سفرنا، بالإضافة إلى حاجة "كوري" الملحّة للراحة، منعاني من الذهاب إلى سفارتي بلغاريا ورومانيا في ألمانيا، عوضاً عن ذلك عدت إلى "فتي"، واستدعيت الطبيب لمعاينة "كوري". استغرق فحصها وقتاً طويلاً، ولبثت انتظر القرار على أحر من الجمر. أخيراً خرج الطبيب من غرفتها وحياني قائلاً: "زوجتك بكل خير، ويجب معاينتها مرّة في كل شهر."

فسألت: "ولكن ما بها؟"

فهم من سؤالي أنني أجهل الواقع، فرفع قبعته عن رأسه قائلاً: "أهنئك. ستصبح أباً عن قريب، لكن أرجوك أن تكف عن إرهاقها بهذا السفر الطويل." ثم أردف قائلاً: "من الضروري أن تزيل جميع هذه البالات من الغرفة. إن زوجتك ستصبح أماً لا بطلة في تسلح الجبال. أزل هذه البالات والصناديق الكبيرة من طريقها."

حدث هذا كله في شهر نوفمبر، فموعد ميلاد الطفل إذاً سيكون في يونيه. أما "كوري"، ولله الحمد، فقد استعادت صحتها ونشاطها وحيويتها في يناير. لذلك راودتني فكرة السفر مرة ثانية. سأسافر إلى تلك الدائرة الداخلية خلف الستار الحديدي، إلى بلغاريا ورومانيا! سأسافر وحدي وأترك "كوري" برعاية شقيقتي "كلتجي"، سأصرف ثلاثة أو أربعة أسابيع في كل بلد وأعود قبل مولد الطفل بوقت كاف.

وجواز السفر! كيف أغادر بلادي دونه؟ ماذا أفعل الختم الأحمر على صفحته؟ هل أمزقها؟ لا يمكنني ذلك لأن الصفحات جميعها مرقمة؟

هل أدعي أنني أضعته، وأستخرج واحداً جديداً؟! لا، هذه ليست طريقة الملك، ولا يجوز لخادمه أن يلوي عنق الحق.

ذهبت إلى "هايغ Hague"، وتوجهت نحو دائرة الجوازات، عارضاً مشكلتي على الشخص المسئول قائلاً: "أنا أعمل في الحقل الكرازى وأود أن أزور بلغاريا ورومانيا، لأتصل بالمسيحيين فيهما."

تفهم الرجل موقفي وأبدى أسفه لأمري، ولكنه قال: "آسف يا سيدي لا أستطيع أن أعمل شيئاً، أو أنصحك بشيء! لا أدري ما هي الطريقة الفضلى في حالة كهذه!!"

أما الرب فزودني بجواز سفر جديد بعد فترة لا تتجاوز أسابيع قليلة. وتهيأت للسفر والعمل.

شق علينا الفراق، وصعب علينا الوداع، وكادت "كوري" تتمسك بي وتمنعني من الذهاب، لولا وصول الأناجيل التي طلبتها من جمعية الكتاب المقدس بلغة رومانية. عندما رأتها راحت تحملها معي إلى السيارة وهي تقول: "لقد تعهدت بالزواج من مرسل كثير التنقل عديم الاستقرار."

عملاً بإرشاد الطبيب، تمكنت من نقل بعض بالات الثياب، والصناديق من غرفتنا إلى أحد ممرات البيت الضيقة، وشحن بعضها الآخر إلى المخيم، لأسهل الحركة على "كوري". آن وقت الرحيل! حزن كل منا للفراق، وكدنا نفقد شجاعتنا. فقالت "كوري": "إن بلغاريا ورومانيا ليستا يوغوسلافيا!! إن قبض عليك هناك فلن أراك ثانية! لا تنس يا أندرو إننا نترقب عودتك. أنا وطفلك."

حاولت أن أهدئ من روعها، بالرغم من هبوط معنوياتي، فركبت السيارة وهممت بالانصراف حين سألتني فجأة قائلة: "هل لديك ما يكفيك من النقود؟"

تحسست جيبي، مستغرباً للكمية التي كانت معي، متسائلاً عن السبب الذي حث قراء الصحيفة الهولندية على إرسال هذه الكمية في المرة الأخيرة. على كل حال، كان معي لأول مرة أكثر مما أحتاج إليه من النقود، وكم وددت أن أتخلّى عن بعضها لكوري، ولكنّها، بحدسها، أصرت على أن آخذها معي. وافقتها وافترقنا.

اتجهت نحو يوغوسلافيا لأنها أقرب مدخل إلى بلغاريا. اضطربت لاضطراري دخول بلاد طردت منها مؤخراً كشخص غير مرغوب فيه، ولكن لم يكن باليد حيلة، فالسفر عن طريق إيطاليا وبلاد اليونان يكلف كثيراً ويستغرق وقتاً طويلاً جداً. جلست أحلل موقفي. كنت أعلم أن الحصول على تأشيرة دخول من السفارة اليوغوسلافية أمر سهل، إذ بعد إصدارها بأربعة أيام على الأقل تأمر السلطات بالتشديد على مراقبة الحدود. إذاً فالأفضل لي أن أحصل على التأشيرة، وأقيم في يوغوسلافيا أربعة أيام فقط، كي أخرج منها قبل أن أتعرض للخطر.

صدق حسابي، ودخلت يوغوسلافيا. كان عليّ ألا أقيم فيها أكثر من أربعة أيام، فأسرعت والتقيت "جميلا" تحدثنا طويلاً، وأخذت منه بضعة أسماء وعناوين أذهب إليها في بلغاريا ورومانيا وإذ لم يحدث أي سبب للاضطراب والخوف، ولم يطاردني أحد، وتكاثرت الأعمال مع جميلا، قررت أن أجدد إقامتي يوماً خامساً. وفي مساء اليوم الخامس رجعت في

الفندق بعد منتصف الليل. سلمت جواز سفري لإدارة الفندق وصعدت إلى غرفتي. لم يحدث شيء! استسلمت لنوم هادئ، أظن لمدة خمس ساعات، سمعت بعدها قرعاً عنيفاً على باب غرفتي. فتحت الباب، وإذا برجلين بثياب عادية يقفان أمامي! نظرا إليّ وقالا بالألمانية:

"ارتَدِ ثيابك وهلم معنا. لا تحضر شيئاً معك. اترك كل شيء على حاله في الغرفة!"

لم يحوّلا أعينهما عني حتى ارتديت ثيابي ولحقت بهما. مشينا عبر ممر الفندق الضيق، وقد بدأت إحدى الخادمات في تنظيفه. قطعنا مسافة قصيرة في الشارع حتى وصلنا إلى بناء حجري قائم في وسطه. أدخلاني إليه، وأنا أكاد أسمع دقات قلبي السريعة، وصدى أقدامنا لخلو المكان.

أدخلاني غرفة واسعة، جلس إلى مكتبها رجل بيده جواز سفري. نظر إليّ بحدّة وقال: "لم أتيت إلى هنا؟! لم عدت إلى يوغوسلافيا؟!" وقبل أن أجيبه أردف قائلاً: "كيف حصلت على هذا الجواز؟ كيف تمكنت من تبديل جوازك القديم" أهذا ما تفعله هولندا؟ تسهل أمور العصاة المتآمرين؟

مدّ يده إلى درجه وأخرج منه الحبر الأحمر وختم التأشيرة اليوغوسلافية التي في جواز سفري ثلاثة أختام بدل ختم واحد وهو يأمر قائلاً:

"غادر يوغوسلافيا خلال أربع وعشرين ساعة دون أن تتصل بأحد عن طريق "تريست Triest" سنعلم الحرس بساعة بلوغك الحدود، ليترقبوا وصولك."

هلع قلبي عند سماعي "تريست" لأن هذه البلدة تقع في الشمال الغربي من يوغوسلافيا، وهذا يعني أنني سأعود إلى هولندا من حيث أتيت، بعد أن أصبحت على مقربة من بلغاريا.

فقلت بلهجة اليائس الفاشل: "إنني في طريقي إلى بلغاريا يا سيدي، فهلاّ سمحت لي بمغادرة يوغوسلافيا عن طريق حدود بلغاريا؟"

لم يجب. وعدم الجواب يعني الرفض. نكست رأسي وخرجت من الغرفة، وجهت طريقي نحو "تريست" كما أمرت ومنها إلى إيطاليا واليونان ذلك الطريق الطويل الذي تجنبته وقد اعتراني الفشل وأضنتني الخيبة. امتد الطريق كأنه بلا نهاية، قرية بعد الأخرى اعترضت طريقي، وأبعدتني عن "كوري". وافق في إحداها، يوم عيد ميلادها فأرسلت لها بطاقة، مما زادني يأساً، وقلقاً، وراودتني أفكار عديدة شريرة، لعل وعكة صحية تنتابها أثناء غيابي، أو لعل سفري يطول فيتعذر عليّ الرجوع قبل موعد ولادتها، وهذا الختم الذي خُتم به جواز سفري! ورغم هذه الأفكار المزعجة، شكرت الله لوجود كمية المال الزائدة معي.

وفجأة شعرت بألم في ظهري. ذاك الألم الذي قاسيته طيلة ثلاث، أو أربع سنوات خلت، إثر انحراف في إحدى فقرات العمود الفقري، وكلما قدت السيارة، ازداد الألم، حتى أخذت أصرخ ألماً، وكدت أنحني إلى الأرض. ماذا أفعل؟ لم أدرِ! لم يكن لدي متسع من الوقت للمعالجة، أو لاستشارة طبيب، فأكملت طريقي عاجزاً عن قراءة لافتات الطرق المكتوبة باللغة اليونانية. كم مرّة ومرّة ضلَلت الطريق وأرغمت على الرجوع بعد سير

مسافة طويلة لأجده. وهكذا ازداد فشلي، وتضاعف يأسي فانقبضت نفسي ورحت أتخيّل أشكالاً وألواناً، كأن أصواتاً داخلية تحدثني بشتّى أنواع المخاوف فأسمعها تقول: "لقد نجوت هذه المرة يا أندرو .. نجوت بأعجوبة .. طردوك من بلادهم .. كان بإمكانهم سجنك .. خمس سنوات، أو عشر .. ستتحقق الأمر في بلغاريا .. ربما لا يطلق سراحك .. ولن يسمح لك بمراسلة "كوري" .. ستجهل "كوري" مكان إقامتك جهلاً تاماً .. لن تعرف شيئاً .. لن تعود تراك قطعاً .."

استمرت بي الحال على هذا المنوال ساعة بعد ساعة، يوماً بعد يوم، حتى تلقيت الضربة الأخيرة عند وصولي حدود اليونان – منعت من الدخول منعاً باتاً. لم يكن مسموحاً بدخول بلغاريا عن طريق اليونان إلا لرجال السلك السياسي والدبلوماسيين. عدا هؤلاء لا يمكنهم قطع الحدود ولا دخول لهم إلا عن طريق تركيا.

عدت أدراجي، كسير القلب، منسحق الروح، لا مجال أمامي سوى الرجوع إلى تركيا، وما ان ابتعدت عن الحدود قليلاً، حتى اعترضت طريقي لافتة باليونانية، جهلت قراءتها، ولكن جذب نظري كلمة باللاتينية. تميزت حروفها فقرأت "فيلبّي" أوقفت السيارة، وفكرت في فيلبي. فيلبي، البلد الذي سجن فيه بولس وسيلا. البلد الذي فتح أبواب سجنه زلزال قوي.

ترجلت أنظر حولي – هذه هي فيلبي بعينها – مثلت أمامي آثار كثيرة! لعل أحدها بيت ليديا، حيث كان يستريح بولس ويقيم خدمات العبادة والصلاة.

بدا لي باب في السور، فتخيلت بولس يقف فيه صارخاً في مسيحيي العصور اللاحقة: "أيها المسيحيون، أين إيمانكم؟"

حرّك هذا الفكر قلبي، فخاطبت نفسي قائلاً: "يا أندرو أين إيمانك؟ لقد سجن بولس في هذا البلد، كما أنك أنت مسجون. أنت يا أندرو سجين الألم والخوف. دخل بولس وسيلا إلى هذا البلد بقصد الكرازة ونشر رسالة الخلاص. وهذا قصدك أنت يا أندرو. بمعجزة خلص الله ابنيه، بولس وسيلا من السجن. وأنت ابن له أيضاً! فتشدد وتشجع لأنه الآن سينجيك من سجنك!!"

في هذه اللحظة وثقت أن الله يقف بجانبي، وسينجيني بمعجزة. شعرت بالخوف يتبدد، واليأس ينقشع، وقلبي يتشدد!! وكما انحلت قيود بولس عن يديه، انحلّت قيود اليأس والفشل التي كبلت قلبي، وسجنت روحي. شعرت بالفرح والسرور يتسربان إلى قلبي الكسير، ووجدتني واقفاً بقامة منتصبة، مرفوع الرأس، وقد زال الألم كله، ولم أعد أحسّ به."

قفزت إلى السيارة قفزاً، كأن شيئاً لم يكن، وبقلب متشدد متشجع رحت أنهب الأرض نهباً لأصل إلى اخوتي في بلغاريا ورومانيا – خلف الستار الحديدي.

(١٤)

إبراهيم البطل قاتل الجبابرة

أخيراً، وبعد جهد جهيد، ومشقة السير على طرقات تركيا الضيقة وصلت إلى بلغاريا بطرقها الحديثة الواسعة، حيث يركض الأولاد لاحقين بالسيارة إلى أن تختفي عن أنظارهم.

رحب حارس الحدود بقدومي، وحدثني بالإنكليزية دون أن يبحث عما في السيارة، أو يسأل عما في الحقائب حتى دون أن يقلب صفحات جواز السفر. كل ما هنالك أنه صادق على تأشيرة الدخول إلى بلغاريا وصرفني بابتسامة وترحيب، بخلاف جميع الحرس الأوروبيين الآخرين.

سرت على هذه الشوارع الجميلة الرئيسية حتى المساء أبحث عن مكان أضرب فيه خيمتي للمبيت. وجدت زاوية منعزلة، حيث أوقفت السيارة، ورحت أعرب الأناجيل، فأخفي التي باللغة الرومانية، وأبقي على البلغارية. وفي الصباح انحدرت من عزلتي قاصداً الرجوع إلى الطريق الرئيسي، ولكنني ضللت السبيل، فوجدتني أسير في طريق ضيقة موحلة إلى أن غرزت السيارة في نهايتها، وعجزت كل العجز عن إخراجها من الوحل.

جلست متحيراً أفكر في ما أفعل، وما هي إلا بضعة دقائق حتى سمعت غناء خشناً ينبعث من مكان لا يبعد عني. خرجت من السيارة لأتحقق

مبعث هذه الأصوات، وإذا بحانة بالقرب مني ملأى بالشرَب، علمت من خشونة أصواتهم أنهم قد ارتووا شرباً وكادوا يسكرون رغم أن الساعة لم تتجاوز العاشرة صباحاً.

اتجهت إلى الحانة ودخلتها، فتوقف الجميع عن الشرب والغناء وحدقوا في وجهي كأنهم يتساءلون: "من هذا الغريب؟ ومن أين جاء؟" شعرت بثقل الجو من حولي ورائحة المسكر القوية فسألت: "هل بينكم من يتكلم الإنكليزية؟" لم يجب أحد فسألت: "الألمانية؟ الهولندية؟" لا! إذاً عليّ أن أتحدث إليهم بلغة دولية عالمية فقلت: "أهلاً بالاخوان والأصحاب" وذلك عن طريق الإشارات أفهمهم ما أريد، مقلداً صوت السيارة تارة، وطوراً ممثلاً أمامهم دور السيارة القابعة في الوحل.

ثم مددت يدي ممثلاً دور السائق وهو يمسك المقود بكلتا يديه. فصاح أحدهم قائلاً: "آه! آه!" وأتاني مادًّا إليّ يديه كما فعلت، وقد حمل كأساً من الخمر في كل واحدة.

قلت له: "لا! لا! أتومبيل! سيارة! كار ... بر بر بر ... ستوب ...! لم يفهم أحد ما أقول. أخيراً وضعت الكأسين على الطاولة وأشرت إلى بعضهم بأن يلحقوا بي قائلاً: "تعالوا".

لعلهم أعجبوا بالتمثيل والحركات التي صدرت مني، فنهض بعضهم مسرعين، وخرجوا ورائي، فقدتهم إلى مكان السيارة ففهموا كل شيء. لم يتوانوا عن المساعدة، فأومأ إليّ أحدهم كي أدخل السيارة، بينما يخرجها بعضهم من الوحل. فعلت كما أمرت فشمَّر عدد منهم عن أذرعهم، وحملوني والسيارة بما فيها إلى الطريق الأمين.

خرجت من السيارة شاكراً، مصافحاً كل واحد بدوره معبِّراً عن امتناني بقولي: "إنني أعجز عن تقديم شكري لكم، وشكر بلادي هولندا، وشكر إلهي أيضاً" ... وهممت بالانصراف. إلا أن أحدهم لم يحل يدي بعد المصافحة بل أصرّ على إعادتي معه إلى الحانة، مقدماً لي كأساً من البيرة رغماً عنّي.

لم أذق المسكر منذ تلك الليلة العاصفة في هولندا حين سلمت حياتي للرب، فماذا أفعل الآن؟ لم أجد مهرباً، ولا بد من شرب هذا الكأس. فرفعت صلاة قصيرة بالهولندية على مسمع الجميع قائلاً: "يارب ماذا أفعل؟" في اللحظة نفسها تيقنت أنه لا مناص من الشرب، وأن الرب تهمه نفوس هؤلاء الرجال أكثر من شربي الكأس أو رفضه، فكيف أهينهم بالرفض؟ لذلك تعبيراً على شكري ومحبتي شربت ما قدّم إلي، وصافحتهم مرّة ثانية وعيناي تدمعان تأثراً بالمشروب، ثم غادرتهم، راجياً لهم خلاصاً سريعاً.

ابتعدت عنهم وجلست على مرتفع أنظر إلى مدينة صوفيا الممتدة أمامي بمناظرها الرائعة وأبنيتها الحديثة، وكنائسها القديمة الجميلة. ففكرت في "بطرس" كيف أصل إليه؟ كان "بطرس" هذا أحد أعمدة الكنيسة، كما أعلمني صديقه الحميم في يوغوسلافيا. قال لي ذلك الرجل، وهو آخر رجل تحدثت إليه في يوغوسلافيا: "إن "بطرس" شخص تقي يجب أن تقابله."

هذا عين ما أردته فحفظت عنوان "بطرس" عن ظهر قلب، بدلاً من كتابته خوفاً من إيذائه. أما الآن فكيف أهتدي إلى بيته في هذا البلد الكبير؟ إن

سألت عنه أعرضه للخطر وإن لم أسأل كيف أهتدي؟ لا بد من الحصول على خريطة أهتدي بها في المدينة. ولكن الموظف اعتذر لأن الخرائط نفدت جميعها ونصحني بشراء واحدة من المكتبة المقابلة للفندق.

اتبعت نصيحته، ولكن المكتبي اعتذر مدعياً هو أيضاً أنها نفدت من مكتبته. رجعت إلى الفندق مطالباً بحقي كأحد نزلائه في ان أُزود بخريطة. فقال الموظف: "لا يسمح للغرباء أن يتجولوا في الشوارع كلّها، فما حاجتك إلى خريطة؟"

أجبت: "لا أريد أن أضل الطريق في بلد غريب بسبب جهلي اللغة البلغارية. فإن أريتني خريطة، فسأكون ممتناً."

يبدو أنه اقتنع بقولي، واشار إلى الخريطة الموضوعة تحت زجاجة مكتبه قائلاً: "هذه كل ما لدي الآن. ادرسها جيداً واهتد بها كلما أردت التجول." نظرت إليها، وأنا أكاد أثق أنني لن أستفيد منها، لأنها اشتملت على الطرق الرئيسية الكبيرة وحسب، و"بطرس" لن يقطن في شارع رئيسي. مع ذلك انحنيت فوق المكتبة متفرساً في الخريطة. ماذا شاهدت؟ شاهدت شيئاً غريباً جداً، وهو أن واحداً فقط من هذه الشوارع الرئيسية تفرّعت منه طريق صغيرة لا تبعد عن الفندق. كانت هذه الطريق الصغيرة هي ما أبحث عنه. عندئذٍ تيقنت من تدبير الرب مسبقاً لهذه الرحلة، وشعرت بقيادة يده، فشكرته.

بكرت في الصباح التالي وتوجهت نحو الطريق الصغيرة، باحثاً عن بيت "بطرس". كنت أحفظ الرقم، وذلك سرت أفتش عنه. شاهدت رجلاً يسير قبالتي، فالتقينا عند البيت الذي أقصده. ثم سرنا جنباً إلى جنب صاعدين

السلم إلى الشقة المطلوبة. لم نتحدث، ولم يكلم أحدنا الآخر، ولكن كمؤمنين شعر كل منا بأنه يعرف الآخر روحياً.

وصلنا الشقة، توقف أمامها وتوقفت معه. أخرج مفتاحاً من جيبه وفتح الباب فدخلت، قبل أن يدعوني إلى الدخول فقلت: "أنا أندرو من هولندا!" أجاب "بطرس": "وأنا بطرس."

كان "بطرس" وزوجته يناهزان الخامسة والستين من العمر وقد تقاعدا وأخذا يتقاضيان دخلاً شهرياً ضئيلاً جداً من الحكومة لا يكاد يكفيهما ضروريات الحياة من مأكل ومسكن وملبس. ومع ذلك فقد اعتادا تلك العيشة، واقتنعا بها. جثونا شاكرين الله الذي جمعنا بهذه السهولة وكفانا شرّ الأخطار، ثم أخذنا نتجاذب أطراف الحديث.

قلت: "أخبرت أنكم في بلغاريا ورومانيا في مسيس الحاجة إلى أناجيل وكتب مقدسة، هل هذا حق؟"

عوضاً عن الإجابة، اجتذبني إلى مكتبة فيها آلة كاتبة في غاية القِدم، وضع فيها ورقة، وقد فتح إلى جانبها كتاب على سفر الخروج. فقال: "منذ ثلاثة أسابيع، توفقت لشراء هذا الكتاب، وقد اقتطع منه سفر التكوين، وسفر الخروج، والرؤيا. لذلك اشتريته بثمن زهيد، لا يزيد عن تقاعدي الشهري .."

قاطعته سائلاً: "ولماذا اُقتطعت منه هذه الأسفار؟"

أجاب: "من يدري؟ لعلها بقيت على حدة لزيادة الربح، ولنعومتها استخدمت للف التبغ. على كل، هذا أمر لا يهمني، إذ بوسعي أن أعوضها بنقلها من كتابي الخاص، فيصبح لدي كتابان بعد أربعة أسابيع."

سألته: "وماذا تنوي أن تفعل بالكتاب الثاني؟"

أجاب: "أعطيه لمن لا كتاب له." وأضافت زوجته: "سنهبه لكنيسة صغيرة في "بلوفتيف Plovtiv" ليس فيها كتاب!"

"ماذا؟ لا وجود كتاب مقدس في الكنيسة كلها؟"

فقال "بطرس": "نعم! فالكتب المقدسة مفقودة في أكثر كنائس بلغاريا وروسيا إن لم يكن فيها كلها. ففي الماضي لم يكن يحصل عليها سوى الكهنة، وبعد الشيوعية اختفت اختفاء تاماً. فأنت ترى أنني وُفقت إلى شراء هذا الكتاب، ونادراً ما أوفق هكذا."

كدت أطير فرحاً للكنز الذي أحمله لبطرس، فخرجت مسرعاً وعدت بالسيارة إلى باب الشقة. وقفت لأتحقق خلو الشارع من المارة، ثم حملت صندوقاً، أدخلته إلى الغرفة الصغيرة ووضعته على الطاولة. نظر الرجل وزوجته إلى العلبة متسائلين: "ما هذا؟" فتحتها، وأخرجت منها كتابين، أعطيت أحدهما لبطرس، والثاني لزوجته. ارتجفت أيديهما، وارتعشت شفاههما وهما يقولان: "كتابان! كتابان! وفي الصندوق أكثر أيضاً؟!" أغلق "بطرس" عينيه شاكراً الله على هذا الكنز الثمين، وأردفت قائلاً: "لدي الكثير منها في السيارة." ففتح فاهُ وهو لا يعلم ماذا يقول أو كيف يشكر، ولشدة انفعاله انهمرت دموعه على وجهه، وانطلقنا للحال نوزع الكتب على الكنائس مبتدئين بأكثرها حاجة إليها.

في الطريق سألني "بطرس": "أتدري الحجة التي تتذرع بها السلطات لمنع طباعة الكتاب؟ إنها تدعي أن لغة الكتاب قديمة، لذلك تعيق التربية

والتعليم، وتقيد الناس بأساليب التهجئة، والقراءة والكتابة القديمة، وقد أصبحت لا تجاري عصرنا."

ثم أخذ بطرس يخبرني أن الكنيسة الوطنية في بلغاريا ليست إلا آلة في يد الحكومة وقد حذفت من عقائدها كل ما لا يتناسب وعقائد الشيوعية، حتى الكهنة أصبحوا لسان الحكومة، يمدحون أعمالها، ويثنون على جميع مشاريعها، وينتظرون امتدادها كما ننتظر نحن امتداد مملكة الله.

وأضاف قائلاً: "هنالك نوعان من الكنائس في بلغاريا، الواحدة تردد صدى الدولة، والأخرى سرّية تجتمع في الدهاليز وتحت الأرض. سأريك واحدة منها هذا المساء."

اجتمع في هذه الكنيسة السرية الموجودة تحت الأرض حوالي اثني عشر شخصاً، جاؤوا بالتناوب خلال ساعة من الزمن، حرصاً على عدم إثارة انتباه الدولة. وكلما وصل واحد، يجلس إلى الطاولة التي في الوسط، يحني رأسه مصلياً، في دهليز، علق على نوافذه ستائر سميكة جداً تمنع تسلل النور الضعيف، ولولا المصباح الضئيل الذي علق على أحد الجدران لكان الدهليز يعمُّه الظلام. في تمام الساعة الثامنة، وقف "بطرس" بين الجماعة معرفاً بي، ومرحباً بقدومي للاشتراك مع الأخوة. تحدثت إليهم معزياً ومشجعاً لمدة عشرين دقيقة تقريباً، أومأت بعدها له كي يفتح الصندوق الذي أحضره معه، ففعل. وما إن رأت الجماعة الكتاب المقدس، حتى كادت شهقاتهم تسمع في الخارج إلى أن فطنوا وصمتوا. تناول كل منهم الكتاب بدوره، ففتحه برقة، وحنان، وأغلقه. أخذ الرجال يعانقونني كل بدوره، وتقدمت السيدات إليّ بأحر الشكر.

استرعى اهتمامي رجل بين الجماعة، رجل عجوز شبيه بـــ "بطرس". علمت من "بطرس" ان اسمه "إبراهيم"، وهو متقاعد مثله، يحصل على خمسة دولارات أسبوعياً من الحكومة، يتدبر بها معيشته ومعيشة زوجته. وكثيراً ما يقتاتان بالنباتات، والأثمار البرية، ثم رجاني "بطرس" أن أزوره في مسكنه في جبال "رودوب Rhodope" لأرى بعيني مقدار تضحية هذا الإنسان المخلص لسيده وإلهه، وأضاف أنه يرافقه إلى كل كنيسة تملك كتابين، فيرجوان القسيس أن يعطيهما واحداً، أو يبيعهما واحداً ليمنحاه لكنيسة لا كتاب فيها.

لقد لقبه "بطرس" بالبطل – قاتل الجبابرة – إذ يخرج "إبراهيم" يومياً باحثاً عن جبار ينازله، فيلتقي أحياناً بموظف كبير أو قائد معروف، فيشتد بينهما العراك. كثيراً ما ينتصر الجبار، فيسجن "إبراهيم"، وأحياناً يكون النصر حليف "إبراهيم" فتنضم نفس جديدة إلى صفوف الرب، وكنيسته.

خرجت – قبل أن يغادر "إبراهيم" المكان – إلى سيارتي وأحضرت له الأناجيل البلغارية ووضعتها بين يديه. حملها بغاية الحنان والرقة كمن يحمل طفلاً عزيزاً، وعجز عن الشكر. لكنه نظر إليّ بعينيه الزرقاوين الملتهبتين قائلاً: "الحرب شديدة وطويلة، والعدو قوي شديد البطش. فتارة نُهزم أمامه، وتارة أخرى ننتصر ونتقدم. أما الآن فقد أحرزنا انتصاراً باهراً يا أندرو، وتقدمنا تقدّماً عظيماً."

أمضيت ما تبقى من مدة إقامتي في زيارة الكنائس البلغارية السرّية، تحت الأرض، ففهمت معنى عمق الأمر الإلهي "شدّد ما بقي". لذلك دأبت على تشجيعها وتشديدها. ما أشجع هذه الكنائس وأشدها، ما أقوى إيمانها،

وأعظم تضحيتها! إنها تقف وحيدة منبوذة مضطهدة ومع ذلك فهي ثابتة أمام التيار ومهما نسيت فلن أنسى ثلاثة رجال من بين رجالاتها الأشداء: "قسطنطين" ، و"آرمين"، و"باسيل".

سُجن "قسطنطين" سجن لمدة سنة ونصف لأنه عمَّد مؤمنين دون الحادية والعشرين من العُمر. وفي الليلة التي أطلق فيها سراحه، اصطحب سبعة وعشرين من الشبيبة - دون الحادية والعشرين - عمدهم خفية في نهر خارج البلد.

أما "آرمين" فقد حوكم، وعزل من خدمته ومنبره لسبب آخر. إنه شاهد بعضاً من البوليس في كنيسته ليلة الميلاد، ومع ذلك استمر في خدمته وسرد قصة الميلاد على مسامع الأطفال الجالسين بكل براءة وهدوء، سائلاً: "أتدرون لماذا نتبادل العطايا في موسم الميلاد؟ لأنها رمز عطية الله العظمى للبشر." سجنه البوليس لهذا القول لأنه بذلك كان متعدياً وعاصياً أوامر الدولة التي تمنع الكرازة للأولاد الصغار وتعليمهم. كان شعار الشيوعية "علموا الكبار واتركوا الصغار!" ولكن "آرمين" علم الصغار، فلذلك حوكم وعزل.

أما "باسيل" فقد كان عميل السلطة، يمتثل أوامرهم ويخضع لقوانينهم، فوثقوا به ثقة عمياء ومنحوه حرية التصرف.

أخذني "بطرس" إلى كنيسة "باسيل" لأكوّن فكرة عن الكنيسة المزيفة في بلغاريا وقد قلّ عددها وتشتت أعضاؤها، وهذا نفس ما تذمر منه "باسيل" فنظر إليّ نظرة جافة، باردة قائلاً: "أتَعِظ في كنيستي بعد ظهر اليوم".

تفرست فيه وأنا لا أكاد أصدق أذني ظاناً أنها مكيدة لمحاكمتي وإخراجي من البلاد فأجبته: "دعني أصلي قبل أن أجيب عن سؤالك."

صليت بحرارة طالباً إرشاد الرب فقال لي: "تقدم". في نهاية خدمة الصباح اعتلى "باسيل" المنبر وأعلن للأعضاء القلائل "إن الأخ الهولندي سيعظ في الكنيسة بعد الظهر". وطلب إليهم أن يحضر كل منهم صديقاً إلى الاجتماع.

هكذا كان وحضر إلى الكنيسة ما يقرب من مئتي شخص. ملأ الرب المكان، وشعرنا بروحه يسيطر على الكنيسة والحاضرين، وفي النهاية تقدم كثيرون منهم طالبين الخلاص. وما زادنا دهشة، كان طلب "باسيل" أن أعيد الكرة في المساء. لم أرفض ولكنني لم أستطع أن أعلل الأحداث، و"باسيل" لسان السلطة وعينها. اكتظت الكنيسة بالحضور مساء ذلك اليوم وطلب الخلاص عشرات من الحاضرين، مصممين على اتباع الرب يسوع مهما كلفهم الأمر. ومرة أخرى دعاهم "باسيل" إلى الكنيسة في المساء التالي.

ضاقت الكنيسة بالحضور مساء الاثنين، فوقف كثير منهم بجانبي الكنيسة، وجلس بعضهم في الوسط، ولاحظ "باسيل" بعضاً من أصحابه المتجسسين بين الجموع. أما أنا فوعظت بقوة الروح القدس ذلك المساء متفادياً الدعوة العامة للخلاص، خوفاً من تعريض الحضور للخطر.

بعد الاجتماع جلست مع "بطرس" و"باسيل" نفكر في ما حدث وبما سيحدث!! لن نستطيع أن نعقد اجتماعاً آخر بعد الآن، هذا أمر واضح. ولكن "باسيل"! ألعله في خطر الآن؟ هل سيلقى القبض عليه يا ترى؟

هل سيحاكم ويسجن؟ كان من الواضح للسلطة أنه سلك سلوكاً غريباً، وهو نفسه عجز عن تعليل سلوكه. فما هو موقف البوليس منه؟ وما العاقبة؟ وماذا سيحدث؟ هذه أمور لم نعرفها.

أما لماذا استخدم الرب "باسيل"، عميل السلطة دون غيره، فأمر أخذ يتضح لنا على مرّ الأيام. فقد وثقت السلطة به ثقة تامة. واتخذته صديقاً حميماً لها لنشر مبادئها، ولذلك فسرت أعماله الأخيرة هذه قضايا مبدئية تعود عليها بالنفع. فلم تتخذ أية إجراءات ضده، بل اتخذت موقفاً حيادياً، حتى تخمد الشعلة برحيل المبشر الهولندي إلى بلاده.

ولكن الشعلة لم تخمد بمغادرتي البلاد، بل ازدادت اشتعالاً وتوهجاً، وانضم إلى تلك الكنيسة الهزيلة أربعمئة مؤمن تقريباً حرّك قلوبهم الروح القدس، فعادت الحياة من جديد إلى تلك الكنيسة المائتة، واشتعلت فيها حرارة الإيمان. عند هذا الحد تدخلت الحكومة، حاولت كبح جماحها. فمنعت "باسيل" من العودة إلى بلغاريا إثر مغادرته إلى سويسرا لأسباب صحية، وعوضت عنه براع حسب ذوقها، فنجحت في إخمادها، وإعادتها إلى قلة أفرادها. أما الذين قبلوا الرب فيها واختبروه، فانتشروا كالرسل الأولين في أنحاء البلد مؤسسين كنائس جديدة، مضرمين نار الروح حيثما ذهبوا.

من هذه جميعها تعلمت و"بطرس" درساً هاماً هو ألا نحكم على أية كنيسة، ولا ندين أية كنيسة، مهما بلغت من الضعف والفتور، لأن الرب راعيها، وهو القائم على كل أمورها، ولن يتركها لأنه قادر عندما يشاء أن يقوي ضعفها ويشدد هزالها ويعيدها إلى الحياة من جديد، بقوة روحه القدس.

قبل الرحيل عن بلغاريا نهائياً وربما عدم العودة إليها قطعاً، ارتأيت و"بطرس" أن نزور "إبراهيم" في جبال رودوب. فكيف نهتدي إلى كوخه ونحن نجهل حتى اسم القرية التي يقيم فيها؟ سرنا على الطريق المؤدية إلى تلك الجبال، ولكنها تدريجياً اضمحلت واختفت، مفضية بنا إلى غابة كبيرة واسعة. ترجلنا ووقفنا بجانب بئر توافد إليه سكان القرية لاستقاء الماء. لم نعلم في أي اتجاه نسير. أين يقبع الرجل الذي نبحث عنه يا ترى؟ أين كوخه؟

نظر السكان إلينا من حول البئر مستهجنين وجود غريبين بينهم في تلك المناطق النائية. وما هي إلا لحظات حتى انتهى أحدهم من شربه والتفت نحونا. فإذا به "إبراهيم" الذي نبحث عنه.

لمعت عيناه الزرقاوان لرؤيتنا واستغرب اللقاء الذي لم يكن إلا مجرد صدفة إذ إنه لا يدخل القرية إلا مرة كل أربعة أيام لشراء الخبز. وهو الآن هنا لهذا الغرض، فاشتر حاجته وقادنا صعدا إلى بيته على رأس التلة. كم مرة رجونا هذا العجوز أن يخفف من سرعته لنتمكن من اللحاق به، وهو يسرد لـــ "بطرس" قصصه ويروي له كيف وزع جميع الأناجيل التي أعطيته، وأنه قد انتهى من توزيعها جميعها منذ أسبوع.

وصلنا الكوخ بعد ساعتين من التسلق ووقفنا ببابه فبدا لي "إبراهيم" كأنه أبو المؤمنين القديم، ونحن ضيوفه. رحبت بنا زوجته، وهي سيدة صغيرة الحجم، نحيلة مستقيمة الظهر، بشوشة الوجه، مجعدة البشرة. فكانت في حجمها الصغير عكس زوجها تماماً بحجمه الكبير. لم يشبه أحدهما الآخر إلا من حيث لون العينين والبراءة والثقة.

نظرت إلى هذه السيدة، فزادت دهشتي لما وجده على وجهها من علامات القناعة وهي من نشأت في قصر كبير، فرش بالسجاد والأثاث الفاخر، ويعج بالخدم، ومع ذلك فقد قنعت بحياتها الحاضرة قناعة تامة. قدَّمت لنا شيئاً من التوت والعسل البريين. أكلنا قليلاً، بغية التوفير، وقصّرنا الزيارة، خشية الانحدار من على الجبل في الظلام. زيارة قصيرة، ولكن بها وُطدت أواصر صداقة دامت مدى الحياة.

وهكذا انتهت الرحلة الكرازية إلى بلغاريا بالمحبة والتشجيع ولكنها لم تخلُ من الفشل أيضاً فقد جاءني وفد من أفراد كنيسة "باسيل" وأنا على أهبة السفر من بلغاريا إلى رومانيا يطلبون إلي بإلحاح أن أرجع معهم وأعقد عندهم سلسلة اجتماعات انتعاشية وخلاصية قائلين: "لقد انتظرناك مدة طويلة، ورحنا نعد الأيام لنراك ثانية. وإننا في أشد الشوق والمحبة إلى الرسالة مهما كانت العواقب."

نظرت إلى تلك الوجوه المحبة والمحبوبة ولكني رفضت، فلست إلا رجلاً واحداً. لا أستطيع أن أعمل عمل عشرة رجال. كيف أرجع معهم والله يدعوني إلى مكان آخر. فأجبتهم: "ليتني كنت عشرة رجال. ليت بإمكاني أن أقسم نفسي إلى اثني عشر قسماً، وأجيب كل طالب. سأجدّ إجابة طلبكم في المستقبل بإذن الله."

(١٥)

واحة الإلحاد

انطلقت من بلغاريا قاصداً رومانيا، ولم يكن أمامي عند دائرة الجمارك سوى ست سيارات تنتظر التفتيش والمرور. فحدثت نفسي مهنئاً: "سينتهي كل شيء بسرعة، وأمُر بسلام، غير أن ظني لم يصدق هذه المرة. استمر وقوفي خمساً وأربعين دقيقة تقريباً ومازال رجال الشرطة يفتشون السيارة الأولى. أشفقت على السائق ظاناً أنه، ولا شك، يحمل أمتعة أثارت شكوكهم. أخيراً صدر له الأمر بالمرور وأقبلت السيارة الثانية. لم تكن أحسن حظاً من سابقتها، لا بل أُنزل السائق من العربة، وأدخل غرفة جانبية حتى يستطيع رجال الأمن تفتيش السيارة. رأيتهم يُخرجون كل ما فيها من أمتعة، ويفكون بعض قطع المحرك.

خفت واستبدّ بي القلق فقلت: "إلهي الحبيب، يستحيل عليّ اجتياز الحدود هذه المرة، ما لم تسعفني بإحدى عجائبك. نعم أيها الآب لا بقدرتي ولا بقوتي، بل بعونك تتم الأمور. سأضع بعض الأناجيل المخبأة على المقعد الأمامي كي يكتشفها المفتش، بل تكون ظاهرةً له دون عناء. عند ذلك تكون أنت العامل، وأنت المنقذ وليس غيرك."

لم أتأخر بعد هذه الصلاة فقمت وأخرجت بضعة أناجيل من حيث أخفيتها، ووضعتها بجانب المقعد الأمامي. جاء دوري، فأقبلت متمهلاً نحو

المفتش، وناولته أوراقي مبتسماً، وأنا أستعد للوقوف بين يديه. لكنه وقف إلى يسار السيارة واضعاً ركبته على الباب، مما حال دون خروجي، فبقيت جالساً في مكاني، بينما أخذ هو الأوراق، ونظر إليها، مقابلاً الصور الفوتوغرافية التي عليها بصورة وجهي، وأشار إليّ بالسير.

لم يمض على هذه العملية نصف دقيقة! هل من المعقول أن يكون جاداً بأمره؟ لعله يريدني أن أبتعد عنه قليلاً حتى يمكن أن يُفك المحرك وتُفتش السيارة. لذلك سرت متمهلاً، ناظراً إلى المرآة لأتأكد حقيقة الأمر، فرأيت رجل الأمن يشير إلى السيارة التالية بالاقتراب، ويومئ إلى السائق بالنزول. تأكدت أنني نجوت وأن الله أجرى العجيبة التي طلبتها منه، وأنني خلال نصف دقيقة اجتزت الحدود الرومانية وسيارتي ملأى بالأناجيل والكتب المقدسة.

تسارعت دقات قلبي واعترتني رجفة الفرح - ليس الفرح بالنجاة بل الفرح بقوة الله ونصرته.

قبل شروعي في هذه الرحلة، كُنتُ أحسب أن بلغاريا ورومانيا بلد واحد، تحت حكومة واحدة، وسلطة واحدة إلا أن اختباري الحالي جاء مخالفاً لهذا الاعتقاد. وجدت نظام الحكم في رومانيا يختلف تمام الاختلاف عنه في بلغاريا، وما إن وطأت قدماي أرضها شعرت بمزيد الشدة والمراقبة، والكبح. لقد اشتهرت رومانيا بأنها مهد الشيوعية وواحة الإلحاد، إذ كانت المختبر الروسي لكبح الحرية الدينية، وقمع المسيحية. فاضطهدت الكنيسة فيها اضطهاداً شديداً، وسجن قادتها المخلصون، وزرع الشك بين جماعات المؤمنين، كما صودرت أملاكهم ومقتنياتهم، وسخرت الكنيسة تسخيراً كلياً

لإرادة السلطة، ومنعت الكرازة والوعظ الكتابي منعاً تاماً. وكل من لم يخضع لإرادة السلطة شُددت المراقبة عليه، أو سجن واضطهد، وعُذِّب.

تحققت هذه الأمور بنفسي إذ وجدت أن رجال الأمن يعلمون بقدومي، وبكل تحركاتي في رومانيا. فكنت كلما وصلت قرية استقبلني البوليس على حدودها فختم جواز سفري وأعلمني إلى أين أذهب، مشدداً أنه عليّ أن أصل المكان المحدد في الوقت المعين. فبدا لي أنهم قد وضعوا لي مخططاً أسير بموجبه وإلا ساءت العاقبة. وصلت إلى مدينة صغيرة قبل الذهاب إلى "كلج Cluj" موضع إقامتي في رومانيا. أعجبت بهذه المدينة الصغيرة وشعرت بالتعب، فعزمت على المبيت فيها للاستراحة. ولكن البوليس منعني قائلاً: "إن أصحاب الفندق الفلاني في مدينة "كلج" يتوقعون حضورك للعشاء، وقد تأخرت، فما لم تسرع لن تجد عشاء. وتحاشياً للمشاكل والعقوبة، أطعت مرغماً، وصلت إلى "كلج" لأجد الفندق في آخر فترة العشاء. قادني الخادم إلى طاولة أعدت لي خصيصاً، وقد وضع العلم الهولندي في أحد أقداحها.

تناولت العشاء بعد الشعور بجوع شديد، وأُخِذتُ على الفور إلى غرفتي، وأنا أشعر أن كل العيون موجهة نحوي، ولكن أحداً لم يعترض تجولي داخل المدن وشعرت بحرية التجول، فتنفست الصعداء.

بزغت شمس الأحد مبشرة بالطقس الدافئ الجميل، واستيقظت نشيطاً مقرراً البحث عن كنيسة أشترك فيها مع المتعبدين. نزلت من غرفتي سائلاً الموظف عن أقرب كنيسة من الفندق. فأجابني ببلاهة وغموض قائلاً: "لا توجد كنائس كثيرة في هذا البلد يا سيدي."

قلت: "لا بأس، هل تستطيع أن تهديني إلى أقربها من هذا المكان؟" أجاب: "ولكنك لا تفهم اللغة، فكيف تذهب إلى الكنيسة!"

أجبت: "لدينا نحن المسيحيين لغة نفهمها جميعاً!"

نظر إليّ بدهشة واستغراب سائلاً: "لغة دولية .. تفهمونها جميعكم .. وما هي هذه اللغة؟!"

أجبته: "تدعى "أغابي". ألا تفهمها يا عزيزي؟"

قال: "لم أسمع بهذه اللغة قط." فأجبته: "هذا لسوء حظك يا صديقي. ولكن هل تهديني إلى كنيسة؟"

اختلف السلاح الذي شهرته السلطة ضد الكنيسة في رومانيا عنه في بلغاريا. فبينما دققت في مراقبة الكنائس في بلغاريا، فإنها شددت على توحيد الكنائس في رومانيا. فقد وحدت الطوائف المسيحية جاعلة منها كنيسة واحدة جامعة، عوضاً عن طوائف متعددة، ووحدت ساعة العبادة. فجميع الكنائس تجتمع للعبادة في ساعة واحدة معينة صباح الأحد، كي يتسنى لها جميعها أن تمتلئ، فإذا امتلأت واحدة، ذهب العابدون إلى الأخرى. كما سمحت بخدمتين في الأسبوع، الأولى مساء السبت والثانية صباح الأحد. غير أن السبت كان يوم عمل مرهقاً في رومانيا، الأمر الذي منع الكثيرين من حضور الكنيسة. فالعبادة صباح الأحد إذن كانت الوحيدة في هذا البلد.

وصلت إلى الكنيسة متأخراً، وكانت ملأى، فقادني أحدهم إلى مقعد أمامي، عالماً انني أجنبي. وهكذا صرفت ثلاث ساعات تقريباً مع جماعة المسيحيين في الدائرة الداخلية.

انتهت الخدمة، فأقبل بعضهم يجمعون العطايا. وضعت في الصينية ما اعتدت أن أقدمه في أية كنيسة أخرى، وفي بلدي، غير أنني ارتبكت، وأنا أشاهد الكميات الضئيلة التي يتبرعون بها، ولاحظت أني أقدم ثلاثين ضعفاً أكثر منهم. وأدهشني بعضهم وهم يسترجعون من الصينية باقي ما دفعوه.

في النهاية، تقدم حامل الصينية إليّ عوضاً عن أخذها إلى المنبر. ماذا أفعل؟ هل آخذ باقي ما وضعت، أم لا؟! في هذه اللحظة تذكرت أن ما قدمته ليس من مالي الخاص. فوقفت وابتدأت أكلّمهم بالألمانية، فقام واحد من بين الجماعة يترجم. قلت: "هذه التقدمة ليست من مالي الخاص. إنها تقدمة المؤمنين الهولنديين لإخوتهم في رومانيا تعبيراً عن محبتهم ووحدتهم في الجسد الواحد."

أشرقت وجوههم عند سماع هذا الكلام، وامتلأت نفوسهم أملاً وهم يتساءلون: هل لنا اخوة؟ أهنالك من يذكرنا؟ ألسنا وحدنا؟ هل لنا إذن أخوة لا نعرفهم؟!

قبل الخروج من الكنيسة اقتربت من المترجم وهو أمين صندوق الكنيسة طالباً التحدث إليه، إلا انه اقتضب الحديث وانفلت مني بلباقة. ظننته لا يريد أن يكلمني جهراً، فلحقت به على مسافة معقولة إلى أن دخل بيته. انتظرت فترة من الزمن، ثم تحققت خلو الشارع من المارة، ودخلت خلفه. فتح لي الباب واجتذبني إلى الداخل، حيث سألني: "ما حاجتك؟ ولماذا أتيت إليّ؟" فقلت: "أود أن أتعرف عليك وأسألك إذا كان هنالكَ ما أخدمك به."

فقال: "ماذا تقصد؟ تحدث؟!"

سألته: "هل أنتم بحاجة إلى أناجيل وكتب مقدسة في رومانيا؟"

أجاب والذهول واضح على وجهه: "أتقصد أن لديك أناجيل وكتب مقدسة باللغة الرومانية؟ وأنك استطعت أن تهربها إلى رومانيا عبر الحدود!"

أجبته: "نعم، لدي أناجيل وكتب مقدسة بلغتكم."

أطرق إلى الأرض هنيهة ثم أردف قائلاً: "لا! لسنا بحاجة إلى أناجيل أو كتب مقدسة في رومانيا، لا يجوز لك أن تدخل بيتي! وبيت أي مؤمن آخر على هذه الشاكلة. أرجو أن تفهم هذا!"

وقفت أنظر إليه مفكراً هل يطردني بشدة وجفاء، أم أنني ألمس حاجته الماسة، وصرخة استغاثته في هذه النبرات؟ فسألته: "هل تسمح لي أن أزورك في مكتبك إذاً تحاشياً للأخطار؟"

فأجاب بشدة: "ليس هنالك أخطار. لم أقل هذا!" وفجأة لانت لهجته فقال: "نعم تعال إلى مكتبي غداً، وسأدعو الرئيس لمقابلتك."

بكرت إلى مكتب الكنيسة في الصباح التالي، وقابلت أمين السر والرئيس وقد تصبب العرق من وجهيهما واعتراهما قلق شديد وجلست في غرفة الرئيس فسألني: "ماذا تريد مني؟"

سلمت عليه وكدت أسأله عما إذا كان هو بحاجة إلى خدماتي. وفجأة تذكرت أن أضع الحديث في قالب آخر فقلت: "أنا سائح مسيحي في بلادكم. لعلك تحملني سلام مواطنيكم إلى أهل بلادي." استعاد الرئيس هدوءه لهذا الطلب، وتوقف العرق عن التصبب، وأشار إلي بالجلوس في

مقعد مريح بقربه. فعلت، أخذنا نتجاذب أطراف الحديث. تحدثنا عن جمال رومانيا، واعتدال مناخها، تحدثنا عن خضرتها وفاكهتها اللذيذة. تحدثنا عن الطماطم بحجمها الكبير الذي لم أر مثله قط، والبطيخ الذي ذقته فيها لأول مرة في حياتي.

وفي أثناء الحديث رحت أنظر إلى الغرفة ومحتوياتها، وأشد ما أدهشني أني لاحظت أن كل قطعة من أثاثها، كل طاولة، كل كرسي، كل صورة – كانت تحمل رقماً معيناً. لماذا يا ترى؟ لعل السلطة استخدمت هذه الوسيلة لتحفظ الأمتعة من الاستعمال الشخصي.

ولبثنا في حديثنا المذكور، دون هدف أو قصد إلى أن أعيينا، ولم يعد لدينا ما نقول. فشعرت بضرورة الجد، وتحدي هذين الرجلين المذعورين. ففتحت حقيبتي وأخرجت منها كتاباً مقدساً واحداً قائلاً: "أتسمحان لي – لا بل أتسمحان لأهل بلادي الهولنديين أن يتقدموا بهذه العطية إلى مواطنيكم في رومانيا؟!" يا للعجب، تشنج الرجلان فوراً وكاد الدم يتجمد في عروقهما كما عاود الخوف أمين السر، وأخذ العرق يتصبب على وجهه. أما الرئيس فأخذ الكتاب بعطف وحنان باديين. ونظر إليه ثم أعاده إليّ قائلاً: "لا حاجة لي إلى هذا الكتاب، وعلى كل حال فقد صرفنا وقتاً طويلاً في أمور تافهة، ولدي أعمال كثيرة يجب إنجازها هذا الصباح."

خرجت من ذلكِ المكتب، وانحدرت على السلم حاملاً الكتب التي أتيت بها. قابلتني الموظفة عند أسفل السلم، كأنني على موعد معها، ولاحظت عند خروجي أنها شطبت اسمي على لائحة أمامها، كأنها تنفذ أوامر

عسكرية. من يدري. لعلها تتحرى أمر كل من في العمارة والمكاتب، فكيف ألوم هذين الرجلين وأدينهما؟

لم تكن هذه الحادثة نهاية المطاف في رومانيا، إذ تعرفت بعدها إلى مسيحيين كثيرين، جميعهم من موظفي الدولة في الكنيسة، يأتمرون بأمرها، وينادون بمصالحها. فالمقابلة الثانية كانت شبيهة بالأولى، إذ جلس معي رجلان: قسيس وأمين صندوق في مكتب أنيق كالأول، وكالمرة السابقة أيضاً لاحظت الأرقام على قطع المفروشات جميعها، بالإضافة إلى صورة لرئيس الجمهورية الشيوعية، ولرئيس الحزب الشيوعي، والصورة الرمزية للبابين الضيق والواسع. أما كيف جاءت هذه الصورة إلى هنا، وكيف ترجمتها الحكومة، فسؤالان لم أستطع الاستفسار عنهما.

كان راعي هذه الكنيسة التي جلست في مكتبها، رجلاً حسناً، نحيلاً يشكو من ضيق النفس يدعى "غوركي"، ولا يعرف إلا لغته. فلذلك استحال علينا التحدث معاً، وفيما أنا أنظر إليه وإلى الصور التي على جدران مكتبه، استرعى انتباهي إنجيل على مكتبه، تمزقت صفحاته، وذابت أطرافها لكثرة الاستعمال، فراودتني فكرة إلهية، هي التكلم إليه عن طريق الكتاب. ففتحت كتابي على رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ١٦: ٢٠ وأشرت إليه كي يفتحها في كتابه ويقرأ: "يسلِّم عليكم كنائس أسيا .. سلموا بعضكم على بعض بقبلة مقدسة."

أشرق وجهاهما لهذه الآية، وفوراً فتح الراعي كتابه، وأشار إليّ أن أقرأ أمثال ٢٥: ٢٥: "مياه باردة لنفس عطشانة الخبز الطيب من أرض بعيدة."

أعجبنا بطريقة المحادثة هذه، ولفت أنظارهما إلى الرسالة إلى فليمون عدد ٤: "أشكر إلهي في كل حين ذاكراً إياك في صلواتي، سامعاً بمحبتك والإيمان الذي لك نحو الرب يسوع ..."

والآن جاء دور أمين الصندوق، وفي لحظة أشار إلى العدد السابع من الرسالة نفسها فقرأت: "لأن لنا فرحاً كثيراً وتعزية بسبب محبتك لأن أحشاء القديسين قد استراحت بك أيها الأخ."

ما أجمل هذه الدقائق التي صرفناها معاً، ومحور حديثنا الكتاب المقدس نتفاهم عن طريقة، ونتحدث بواسطته. وقبل أن أنصرف، أخرجت كتابين من حقيبتي وقدمتهما للرجلين الواقفين معي راجياً منهما أن يقبلاهما. دهش الرجلان لرؤيتهما، وما كان أعظم فرحهما عندما علما أنهما لهما. أخذا الكتابين وراحا يضمانني تعبيراً عن شكرهما.

أخيراً وفقنا الله إلى مترجم، فأخبرت "آيون"، أمين الصندوق عن الكتب المقدسة التي أدخلتها إلى رومانيا، وكلّفته توزيعها على المحتاجين إليها لأنه أكثر من خبرة بهذه الأمور.

عدت إلى الفندق مساء فتحدّاني الموظف قائلاً: "قلبت صفحات القاموس كلها لأجد مرادفاً للغة "أغابي" فوجدت أن هذه الكلمة ليست اسم لغة بل كلمة يونانية معناها "محبَّة".

أجبته: "نعم يا صديقي، فهذه هي اللغة التي كنت أتكلم بها طيلة هذا النهار – لغة المحبة."

أخيراً جاء يوم تحطم فيه الحاجز اللغوي - إذ زوّدنا الله بمترجم ماهر، تجول معي حسب إرشاد "غوركي" فأراني أنواعاً مختلفة من المؤمنين. منهم من اختبروا الهزيمة والتقهقر، ولسان حالهم يقول: "ماذا نقدر أن نفعل؟ لا نستطيع شيئاً" ومنهم من كانوا يودون لو يهجرون رومانيا إلى غير عودة. ومنهم من صمدوا صمود الأبطال في وجه الهجمات والاضطهاد.

زرت يوماً مزرعة دجاج لعائلة رومانيا في الضواحي، أبقت لهم الحكومة المزرعة شرط أن يقدموا عدداً معيناً من البيض كل أسبوع، وكانت الكمية المفروضة تتجاوز ما تستطيع المزرعة إنتاجه، فاضطروا إلى شراء ما نقص من البيض مما أدى إلى خسارة فادحة. فسألت: "ولمَ تقيمون هنا إذاً؟ هل للاحتفاظ بالمزرعة؟" فأجاب الفلاح قائلاً: "لا أبداً! سيأتي يوم أخسر فيه المزرعة ولا محالة. ولكني أبقى هنا" وأجال نظره في الوادي حوله: "أبقى هنا ... لأنه إن غادرت هذا المكان فمن يبقى فيه؟ من يحيي فيه حلقات الصلاة؟" إذاً كلما قوي إيمان المؤمنين، وازداد إخلاصهم لسيدهم، ازداد تعلقهم بأرضهم، وازداد اهتمامهم الروحي بزملائهم ومواطنيهم.

بعد هذا زرت والمترجم كنيسة صغيرة تعمل وسط الأشرار. زرنا الكنيسة في ذات مساء وتوجهنا إلى مسكن الراعي خلفها. لم نجده في البيت ولكن زوجته رحبَّت بنا وأضافتنا. ثم أخبرتنا بأن الدولة تطالب ببناء الكنيسة لأنها بحاجة إليه وأن زوجها ذهب إلى العاصمة ليتداول الأمر مع السلطة. لقد عمل هذان الشخصان بمحبة وإيمان وسط الأشرار واكتسبوا عدداً منهم للرب، ثم حاولا أن يجدا لهم أعمالاً مختلفة حسب مقدرتهما،

وذلك بمساعدة بعض رجال الدولة. وعندما نجحا بهذه المهمة، ونفذت الدولة رغبتها بتوظيف بعض هؤلاء المؤمنين الجدد اشترطت عليهما شرطاً: هو أنه لا يحق لمن ينضم إلى الكنيسة أن يطلب وظيفة أو عملاً: "وهكذا" قالت زوجة الراعي بحزن ظاهر، "تضاءل عدد العابدين في الكنيسة، فحسبت الدولة من حقها أن تأخذ البناء أيضاً، وأنا متأكدة من أنها ستطردنا، وتستولي على العمارة قبل نهاية هذا العام."

ثم أخذت تبكي وتنتحب بصمت وأسى، فاقترحت أن نصلي نحن الثلاثة كي يفرج الله هم هذه العائلة الصغيرة. وهكذا جثونا ورفعت صلاتي إلى عرش النعمة طالباً من الله أن يتدخل ويحل المشكل، ولما انتهينا، كانت عيناها مبللتين بالدموع فقالت: كان لنا أخوة في الرب وأصدقاء في الغرب يصلون لأجلنا، ويشعرون معنا، أما الآن، بل منذ ثلاثة عشر سنة لم نسمع منهم، ولا عنهم شيئاً، فشعرنا بالوحدة والوحشة وتيقنا أن أحداً لا يهتم بنا، أو يشاركنا مصابنا.

نهضت عن ركبتي، فهدأت روعها، وطمأنت قلبها، واعداً أنني سأشرك جماعات المؤمنين كلها بعد عودتي إلى بلادي، في الصلاة لأجلهما، ولا داعي بعد اليوم للشعور بالوحدة والوحشة، فالأخوة في الغرب يشتركون معهما.

أخيراً اقترب وقت عودتي إلى هولندا. لقد انتهت مدة إقامتي في رومانيا، وموعد "كوري" للولادة قد اقترب، فتهيأت للسفر. ورتبت أن يصادف يوم اثنين كي يتسنى لي أن أصرف صباح الأحد مع "غوركي" و"آيون" في الكنيسة.

كان اجتماعاً لا يُنسى، ويوماً لن يغيب عن ذاكرتي. ابتدأت العبادة الساعة العاشرة، وانتهت في الخامسة بعد الظهر حين جلسنا لتناول الطعام. صلينا خلال هذه الساعات، واستمعنا إلى كلمات الوعظ وأخبار الأخوة في شركة مسيحية مباركة. ختم "غوركي" الاجتماع بكلمة وداع شخصية، فحدثنا عن الإرهاق الجسدي الذي كان يعانيه بسبب ضيق تنفسه، وشكر الرب قائلاً: "لقد شعرت بتحسن هائل في نفسي، منذ أن تحدثنا لأول مرة في مكتبي عن طريق الكتاب المقدس، والآن أنا أتنفس بأكثر سهولة."

ثم فتح كتابه وقال: "أود أن أترك معك رسالة صغيرة يا أندرو! فهلا فتحت أعمال الرسل ٢٠: ٣٦-٣٨؟"

وجدت المكان المعين، فقال "غوركي": "أود أن أودعك بهذه الآيات". "ولما قال هذا جثا على ركبتيه مع جميعهم وصلى. وكان بكاء عظيم من الجميع ووقعوا على عنق بولس يقبلونه، متوجعين ولاسيما من الكلمة التي قالها إنهم لن يروا وجهه أيضاً. ثم شيعوه إلى السفينة."

ضحكت لهذا التشبيه، هل حسبني "غوركي" مثل بولس؟ فقلت له: "يا أخي أتشبهني ببولس؟ أتحط الأعظم إلى درجة الأصغر؟"

نعم لسنا شيئاً بالنسبة لجبابرة الإيمان أولئك، غير أننا نستطيع التمثل بهم، واقتفاء إثر خطواتهم. لذلك جثونا مرة أخرى بعد العشاء، وصليت مع جميعهم، فوقع أولئك الأخوة على عنقي يقبلونني، ثم رافقوني إلى سفينتي الزرقاء الصغيرة.

(١٦)

اتساع العمل

عدت إلى البيت بعد غياب شهرين، وما إن وصلت حتى أخذت أصرخ: "كوري! كوري!" نزلت تقابلني ووجهها يفيض بالفرح. التقينا على منتصف السلم وعدنا لنجلس في الغرفة الضيقة. تحدثنا حديثاً متقطعاً في شتى المواضيع والأحداث. نعم أنا بخير، والرب بارك العمل، والعائلة بخير، وهي، "كوري"، على ما يرام، والطبيب حدد لها أول يونيه. وهكذا كان، ووُلد "يوسف" في البيت، في الرابع من شهر يونيه ١٩٥٩.

ضاقت الغرفة بالعائلة. والبيت عموماً كاد يضيق بساكنيه، فشقيقتي "كلتجي" سترزق بمولودها الثالث و"كرنيليوس" مولوده الأول، وهكذا أصبح لزاماً علينا، حتى بالنسبة إلى مستوى طبقتنا، أن نجد بيتاً مستقلاً. ولكن أين نجد بيتاً، و"فتي" مازالت تقاسي آثار الحرب؟! إذ عوضاً عن بناء مساكن جديدة للأهلين، استخدمت الدولة كل ما لديها من حجارة وأرصدة لترميم ما دمرته الحرب من بيوت ومساكن. ومع إن "فتي" بأسرها ضاقت بسكانها إلا أن بيتاً جديداً لم يبن منذ الثلاثينات.

رغم علمي بكل هذه الحقائق، ذهبت إلى رئيس البلدية مستطلعاً الأمر. هزّ الرجل رأسه قائلاً:

"سأضع اسمك في أسفل القائمة يا أندرو. ولكن اسماً واحداً لم يتزحزح من مكانه هذه السنوات الثلاث الأخيرة."

أجبت: "لا بأس يا سيدي، ضع اسمي أينما شئت، فمن المهم أن يكون في مكان ما."

عندها قال: "شراء بيت أسهل من استئجاره. هذه القائمة الطويلة جميعها للإيجار لا للشراء."

فأجبته: "شكراً يا سيدي، ومن أين لي النقد لشراء بيت؟"

قال: "ليس هذا فحسب، بل يعسر إيجاد بيت للشراء."

مرت الأيام، وكاد الصيف ينتهي ومازالت بالات الثياب تتوافد علينا، فنضعها في الغرفة حتى أصبح حالنا لا تطاق. عندها شرعنا بالصلاة بجد وحرارة كي يتدخل الله ويحل المشكلة. وفي صباح أحد الأيام بعد أسبوع من الصلاة المتواصلة الحارة، تذكرت أمراً وأنا في طريقي نحو دائرة البريد. تذكرت أن أستاذ مدرسة القرية، سينتقل إلى "هارلم" تاركاً بيته الذي كان قد استأجره من صديقي "فيم". وكان "فيم" قد عرض ذلك البيت للبيع. سأذهب إذاً وأتفاوض عليه. ثم توقفت متسائلاً: "ومن أين لي ثمنه؟ أقل ما يطلب في هذا البيت هو عشرون ألف ليرة!" ولكن شيء ما همس في أذني دفعني إلى الأمام لعله وحي إلهي، فذهبت إلى مزرعة "فيم". وجدته يحلب بقرة، فوقفت بجانبه وحييته: "مرحباً يا فيم."

أدار رأسه ملتفتاً إليّ وقال: "مرحباً يا أندرو. سمعت أنك تكثر من السفر هذه الأيام!! أهو في عمل الرب؟"

أجبته: "نعم يا سيدي."

فسأل: "وماذا عساي أفعل لك؟"

قلت: "سمعت أن بيتك شاغر، فهل فكرت في بيعه؟"

فأجابني مستغرباً مستهجناً: "وكيف علمت أنني أريد بيعه؟ لم أعزم على ذلك إلا الليلة الماضية، وما أخبرت أحداً قط؟"

فقلت: "إذاً هل تبيعني إياه؟"

تأملني "فيم" بصمت ثم قال: "لم تتخل عائلتي عن هذا البيت طيلة الأجيال الماضية، ولكن مجرد استعماله لخدمة الرب يملأ قلبي فرحاً بعد أن قل عددنا، ولم نعد بحاجةٍ ماسّة إليه."

عند هذا الحد، وضربات قلبي تكاد تسمع، سألته: "ولكن كم تطلب فيه؟"

فأجابني بلهجة المفكر المتأمل: "أندرو! لك أن تدفع عشرة آلاف ليرة؟ أتشتريه بهذا الثمَن؟!"

لم أكد أصدق أذنيّ! عشرة آلاف، وأنا خمنته بعشرين؟ وفوراً أجبته: "نعم يا عزيزي "فيم"، لقد اتفقنا! سأشتري بيتك بعشرة آلاف ليرة!" وأنا لا أملك درهماً واحداً من هذا المبلغ.

أسرعت إلى الهاتف واتصلت بالسيد "فيليب وتسترا". أنا الذي لم أستدن مالاً في حياتي بعد. ولكن لم يكن لدي حل آخر، ووعدت نفسي، بعون الرب، أن أفي الدين بأقصى سرعة. أجابني السيد "وتسترا" إلى طلبي

وأعلمني أنه سيجهِّز لي المبلغ المطلوب في اليوم التالي. هرعت إلى "كوري" أخبرها بالصفقة، وأخذتها على الفور للاطلاع على البيت.

كم كان فرحها عظيماً بهذا الأمر، فراحت تقفز طرباً من غرفة إلى غرفة وهي تقول: "هذه لـــ "يوسف"، وهذه لنا، وتلك تناسب بالات الثياب وهي مزوّدة بحنفية ماء، أما هذه فلك كأنها بنيت لمكتبتك وكثرة كتبك." وهكذا، ولأول مرة، شعرتُ، كما شعرت "كوري"، أننا أصبحنا في بيتنا.

بكرت في اليوم التالي، إلى السيد "وتسترا"، وقبضت المال المطلوب، دون كتابة أوراق، أو شهود، أو ذكر الدين لإنسان ما. لكن الرب تدبر الأمر بحكمته ومحبته. ولم يمض على الدين ثلاث سنوات إلا وتمكنت، بما ورد من تقدمات وتبرعات شخصية أن أسدد ديني وأستمر بالعمل. وهكذا اختبرت قوة الله وعنايته الأبوية بمن يحيا حياة الإيمان الثابت والاتكال الكليِّ عليه.

انتقلنا إلى البيت الجديد، فوجدناه كما يقول المثل: "قد أكل الدهر عليه وشرب." ومع ذلك فقد أحببناه وزاد ولعنا به كلما زاد عملنا فيه. وجدنا غرفة واحدة فقط، هي غرفة الجلوس تصلح للسكن، فأقمنا فيها حتى أجرينا بأيدينا كل ما لزم من الإصلاحات من دهان، ونجارة، وتنظيف .. إلخ. ولم نغفل الحديقة التي أملنا أن تدر علينا دخلاً من فاكهتها وخضرواتها.

بالإضافة إلى ازدياد الأعمال في البيت، ازداد أيضاً عملي خارجه، إذ خلال عام واحد عدت وزرت كل بلد كنت فيه، وفي بعض الأحيان أكثر من مرة. لذلك تضاعفت كمية الرسائل الواردة علي، وتطلبت ردوداً

كثيرة وسريعة فكنت ما أكاد أنتهي من مجموعة إلا وترد عليّ أخرى. وغدوت بعد رجوعي من رحلاتي الكرازية، أدخل مكتبي وأنكبّ على كومة الرسائل التي ملأت سطحه، عوضاً عن أن أحمل المحول أو فرشاة الدهان للعمل في البيت.

بمرور الوقت رأيت أنه حرصاً على سلامتي وسلامة الأخوة في البلاد الشيوعية عليّ أن أسافر وأجتاز الحدود باسم مستعار، فاخترت لذلك "الأخ أندرو". هذا اسم ملائم لأن الألقاب وأسماء العائلات لم تعد ذات قيمة خلف الستار الحديدي، وهذا الاسم الجديد لن يعيق من أراد أن يتعرّف عليّ. ثم اشتركت مع أخي في صندوق بريد - وهكذا أصبح عنواني: الأخ أندرو، ص.ب ٤٧، "إرملو Ermelo" هولندا.

أما المشكلة الصعبة فكانت كثرة تغيبي عن البيت، فالمتزوج غير الأعزب، وأنا لم أكن لأرى عائلتي، وقد حرمت من مشاهدة ابني "يوسف" يخطو خطوته الأولى مثلاً، ومشاهدة ظهور أول أسنانه، وذلك لأني تغيبت ثمانية أشهر من سنته الأولى. عاد السيد "رنجرز" يعرض عليّ وظيفة في شركته براتب ملوكي بالنسبة لي، كما عُرض عليّ رعاية كنيسة قريبة من "فتي". كدت أقع في التجربة لولا ورود بعض الرسائل من بعض الاخوة، في هنغاريا أو بلغاريا، أو بولندا، تخبرني بتطورات جديدة، وحاجة ماسة لخدمتي. فأحمل حقيبتي وأنطلق إلى بلد من بلاد الشيوعية.

في إحدى هذه الرحلات، تعطلت سيارة الفولكسفاجن الصغيرة وتوقفت تماماً. كنت آنذاك عائداً من بولندا وألمانيا الشرقية إلى البيت، وقد رافقني تلميذان من برلين تعرفت بهما في أحد مخيمات اللاجئين. انطلقنا ننهب

الأرض نهباً لنصل هولندا في أقصر وقت ممكن، ما كان من السيارة إلا أن تعطلت وتوقفت حاولنا كل ما في وسعنا لإصلاحها ولكن دون جدوى. حدث أننا وجدنا على جانب الطريق بالقرب منا هاتفاً للطوارئ. تناولته واتصلت أقرب جراج طالباً لخدمة الطرق، فبعث لنا برجل ميكانيكي ماهر. انحنى فوق المحرك يفحصه ثم وقف أمام السيارة يقرأ الكيلومتراج، ثم أطلق صفيراً وهو يقول: "٩٧,٠٠٠ كيلومتر" لقد سارت السيارة أقصى مسافة ممكنة. عندها أخبرته ان السيارة قطعت هذه المسافة بعد أن أقفل العدّاد في المرة الأولى، فقال: "إذاً لقد خدمتك بأكثر من ثمنها. هذا المحرك لن يصلح."

سألته: "أيستغرق تركيب محرك جديد وقتاً طويلاً؟" أطرق إلى الأرض وهو يجيب: "سينصرف عمال الكاراج بعد عشر دقائق، ولكن يمكنهم العمل ساعة إضافية إذا دفعت لهم أجرة إضافية مغرية." فسألته: "وما هو ثمن المحرك والأجرة الإضافية؟"

أجاب: "خمس مئة مارك".

قلت: "إذاً باشر بالعمل ريثما أذهب إلى محطة السكة الجديدة وأصرف بعض النقود."

أخذ السيارة إلى الجراج، وانطلقت إلى المحطة لأصرف الحوالات. أحصيت ما لدي من نقد، فوجدت الكمية لا تكفي. ماذا أفعل، لا يقدر هذان التلميذان أن يساعداني لأنهما قاصران، هل ألغي التصليح؟ لا. إن يد الله لا شك في هذه المعضلة. لِمَ تعطلت السيارة عند هاتف الطوارئ بجانب الطريق تماماً؟ لمَ تعطلت في ألمانيا، مركز صناعتها؟

فلو اضطررت إلى تركيب محرك جديد في بلد آخر معاد لكلفني ذلك أضعاف هذه الكمية، أو لكان مستحيلا، ولأثرت أسئلة وشكوكاً عديدة وتعرضت لأخطار أنا بغنى عنها. لقد تدربت على معاملات الرب، واختبرت اهتمامه بالأمور المادية المتعلقة بنشر رسالته، والآن، قضية التكلفة والمال بين يديه ولا شك أنه سيتدخل في الوقت المناسب. فانتظرت متلهفاً أرقب اختباراً جديداً.

صرفت الحوالات وعدت راجعاً أعد الكمية بالنقد الألماني فوجدتها تنقص خمسين ماركاً تماماً. فقلت في نفسي: "مازالت الطريق أمامي! لا شك من اختبار مفاجأة." لكن شيئاً لم يحدث.

وصلت إلى الجراج! أوشك الرجال أن ينتهوا من تركيب المحرك الجديد، وآخرون يغسلون أيديهم ويضعون أغراضهم في أمكنتها. أما صديقاي التلميذان فلم أرهما. سألت عنهما فقيل لي أنهما يتمشيان، عوضاً عن الوقوف والانتظار. أنهى الرجال عملهم، وركبوا المحرك الجديد، وحان وقت المحاسبة، ولا داعي للتأخير.

في اللحظة نفسها، رأيت صديقي يركضان نحو الباب، دخل أحدهم وهو يقول: "أصغ يا أندرو إلى ما حصل. اقتربت منا سيدة ونحن نسير في الشارع وقالت: "أنتما هولنديان؟!" أجبنا: "نعم" فقالت: "خذا هذه الحوالة! إن الرب قادني إليكما."

كانت الحوالة خمسين ماركاً لا أكثر ولا أقل.

تعامل معي الله على هذا الشكل يوماً بعد يوم، ولكنني كنت بطيء الفهم،

حديث العهد في ما لله. اعتمدت الأعجوبة، والعون الغريب عند الضيق، دون أن ألقي نفسي وكل همّي على أب محب رحوم يعتني بي، وتهمّه أموري أكثر مما تهمني.

وجدتُ لدى رجوعي إلى البيت مصاريف جديدة وباهظة، أكبرها قدوم طفلنا الثاني "مرقس بطرس" الذي ولد بعد "يوسف" بسنة واحدة .. لذلك اضطررنا إلى اعتماد الخضار للتغذية، وأقللنا من شراء اللحم. إنها طريقة التوفير، التي داومنا عليها، غير عالمين أننا بها نغيظ الله الكريم الجواد.

تعلمت هذا الدرس، من سيدة لا أعرفها. وذلك أنني تسلمت يوماً رسالة، تتضمن حوالة بأربعين دولاراً تقريباً، أرسلتها سيدة لا أعرفها، أرفقتها برسالة قصيرة تقول: "هذه التقدمة أيها الأخ أندرو لسد بعض حاجاتك الشخصية. لا تستخدمها للعمل، اقبلها كعطية شخصية بمحبة المسيح."

جلست فوراً أكتب رداً على هذه الرسالة. فشكرت السيدة المجهولة، وأخبرتها عن حاجتنا الماسة آنذاك، وتقديرنا العظيم لتقدمتها، وأفهمتها أننا لم نستعمل قط تبرعاً لسد نفقاتنا الشخصية، ما لم نحث على ذلك، وأننا نعيش بالتقتير، حتى إن ثيابنا جميعها من البالات.

ما كان من تلك السيدة المؤمنة إلا ان أجابت بلهجة التأنيب والتوبيخ، فذكرتني بقول الكتاب إن الثور الدارس لا يُكم بل يأكل مما يقوم بدرسه، فكم بالحري الإنسان العامل في حقل الرب بأمانة وإخلاص؟! ثم راحت تسألني عما إذا كنت مؤمناً بالله حقاً؟ وإن كان الأمر كذلك فنحن أولاد الله وهو يهتم بنا؟ هل أؤمن بإله وأب يملك العالم وما فيه، ومن ثم يقدر أن يسد حاجاتي جميعها؟ أم أنني أؤمن بأب فقير يحتاج إلى توفيري وتقتيري

ليقوم بنفقاتي؟ وأنهت رسالتها قائلة: امتحن نفسك يا أخي لعلك تأبى أن تتخلى عن هذا الشعور! أنت مسيحي ناضج وعليك أن تؤمن بإله، وأب يملك الكل، يعطي بسخاء، قادر على سد حاجاتك دون مساعدتك.

تأملت طويلاً هذه الكلمات. أهي على حق؟ أنحيا أنا وعائلتي حياة غير مسيحية، معتمدين على التوفير والتقتير كأن أبانا لا قدرة له على مصروفاتنا. وفي هذه الآونة كنت دعيت و"كوري" إلى حفلة عشاء. حان وقت الذهاب، و"كوري" لم تحضر. صعدت إلى غرفتنا، فوجدتها غير جاهزة. قالت: "ليس لي ما أرتديه." ضحكت قائلاً: "هذه حجة النساء جميعهن." امتلأت عيناها بالدموع تأثراً. مما جعلني أتفحص ثيابها واحداً واحداً، فاستنتجت أنها محقة. نعم لديها ألبسة دافئة، تصلح لكل يوم من أيام العمل ولكن لا ثوب لها يليق بمناسبة كهذه.

وفجأة أدركت أننا اخترنا لأنفسنا عيشة التقتير هذه، كما قالت الرسالة، ونسجنا حولنا جوّ القلة والفاقة، معتمدين حياة تختلف عن تعاليم المسيح الذي نبشر به، المسيح الرحب الصدر، المبسوط اليدين. ينبغي أن نتغير إذن. فقامت "كوري" وابتاعت لنفسها بعض الثياب الجميلة، كما اشترت ثياباً جديدة أيضاً لـــ "بولس"، ابننا الثالث الذي ولد بعد أخيه بسنة.

هكذا طبقت مبدأ الرخاء في حياتي اليومية المنزلية، كما كنت أطبقه في العمل – عمل الرب. لقد عملت جيداً طيلة هذه السنين، قطعت آلاف الأميال، اجتزت الحدود الشيوعية وحواجزها، شجعت الناس ونشرت الرسالة دون مساعد أو معين! فماذا سيحدث إذا تعاونت مع شخص آخر؟ ماذا لو انضم إلى هذه الخدمة المقدسة عدة رجال – ونساء؟ ألم يتعطل

عمل الرب في بلغاريا حين طُلب إليّ بحرارة أن أُنهض المؤمنين ولم أستطع لأن مدة إقامتي قد انتهت ولأنني لا أقدر أن أقوم بعمل اثنين؟ لو كان معي رجل آخر لما فاتتني تلك الفرصة، ولما فاتتني إنقاذ أخوة كانوا في أمسّ الحاجة إلى رسالة الرب على لساني آنذاك.

ماذا سيحدث لو رافقني أخ عامل؟ ألن تنتشر الكلمة على نطاق أوسع؟ ألا نربح نفوساً أكثر؟ لو كنا جماعة في هذا الحقل دون تنظيم دقيق كي لا يعوق أحدنا الآخر، أو يتقيد بأنظمة خاصة، لاتسع نطاق العمل وامتد.

قمت إلى "كوري" أستشيرها في ما يدور بخلدي فما كان منها إلا أن قفزت فرحاً وهي تقول: "لو وجدت زميلاً، لتسنى لنا أن نراك أكثر." وسرعان ما ندمت على ما تفوهت به، ولكنها صدقت. كان غيابي الطويل عن البيت يزعجها ويزعجني. لم أر أطفالي ينمون، ولم تكن لي شركة حقيقية معهم، وشعرت بوجوب الإقلال من هذا الغياب الطويل عن العائلة.

أين أبحث عن زميل؟ لقد تطوع شبان عديدون من بين مستمعي فمنهم من قال مثلاً: "علي أن أذهب معك للكرازة خلف الستار الحديدي – لقد أرشدني الرب إلى ذلك." وقال آخر: "ليتني أرافقك خلف الستار الحديدي لأحمل حقائب كتبك!" وقال ثالث: "يا لها من لذة – الكرازة خلف الستار الحديدي، خذني معك أيها الأخ أندرو فأنا أساعدك كثيراً."

ما جرؤت قط على إطالة البحث في هذه الاقتراحات والأمنيات، أو التفكير فيها. غير أن سلامتي في اجتياز الحدود لا ترد إلى احتياجي، أو مهارتي، أو أي شيء من هذا فأعلمه للآخرين. كل ما هنالك هو أنني

كنت أستودع نفسي ورحلتي بين يدي الرب صباح كل يوم، محاولاً أن أتعلم مشيئته وأعمل إرادته. بقولي: "سنبحث في هذا الموضوع أكثر، إذا ما تقابلنا خلف الستار الحديدي."

بهذا ينتهي كل شيء، ومع ذلك كنت أردد قولي لـــ "كوري": "لو قصد الله امتداد عمله واتساعه لهيأ له عمالاً أكفاء. أما أنا فكيف أجدهم؟ فتجيبني: "اعرض أمرك على الله بالصلاة!" نعم الصلاة - ولأول مرة بدأت أصلي إلى الله كي يرسل فعلة إلى حقله، وفجأة طرأ على ذهني "هانس كروبر Gruber". قابلت "هانس" هذا، وتعرفت عليه في النمسا، فبدا لي آنذاك عملاقاً، جباراً، قوي البنية، هادئ الطبع، مرن المزاج، يتحدث بلهجة ألمانية قوية. فأخذت أستعيد ذكرياتي عن "هانس".

تذكرت أنني سمعته يتحدث إلى خمس مئة ولد في أحد النوادي، فيجتذب انتباههم جميعاً بكلامه فقط، وحين ابتدأ المطر ينهمر، لم يتحرك أحدهم أو ينظر إلى السماء. ولم تقتصر قوته الجذابة هذه على الأولاد الطبيعيين فقط، بل امتدت إلى من اعتراهم القلق والضجر، فاستفزهم، واجتذب انتباههم بقصصه، وعذوبة كلماته، فجلسوا حوله كالحملان الوديعة يستمعون إليه.

قمت ذلك المساء عينه وكتبت لـــ "هانس" عارضاً عليه استخدام مواهبه خلف الستار الحديدي. وأخبرته عن جهة رحلتي المقبلة، مطمئناً أن السلطات السوفياتية، قد سمحت بدخول الأجانب إلى بلادها، دون تشديد، أو مراقبة.

وأجاب "هانس" ملبياً الدعوة، معرباً عن سعادته بقبولها. فقد اعتبرها تحقيقاً لآماله، واستجابة لصلواته المتواصلة مدة سنين طويلة. أخبرني في

رسالته عن شعوره الغريب وهو ينظر إلى خريطة روسيا، فيتخيل صوتاً يقول له: "سيأتي يوم، تحمل فيه رسالتي إلى تلك البلاد." وأضاف قائلاً: "منذ ذلك الحين، رحت أدرس اللغة الروسية استعداداً للدعوة، فأنا الآن أتقن الروسية كما أتقن الألمانية. متى تسافر؟!" وهكذا دخلت خدمتي نطاقاً جديداً، وتضاعف العمل. لذلك رأيت لزاماً عليّ أن أحصل على سيارة جديدة، إذ ضاقت هذه الصغيرة، وقصرت عن أن تحمل "هانس" بحجمه الكبير، فاشترينا عربة أوبل كبيرة، اتسعت لكلينا، ولعدد أكبر من الأناجيل والكتب المقدسة، وأدوات السفر والتخييم.

أما "هانس" فلم يكن يعرف قيادة السيارات، وظننت أن تعليمه أمر سهل، ولكن الواقع كان عكس ذلك، ولم أسمع من "هانس" سوى قوله: "لن أتعلم! لن أتعلم!" حتى كاد اليأس يقوى عليه. ولكنني شجعته، وأقنعت نفسي أنه سيتعلم ولو ببطء.

حان يوم الرحيل، فودعت "كوري" والأولاد، وحمّلت الأوبل بشكل لم أعهده من قبل، وانطلقنا، على أن نتناوب على قيادة السيارة، فالقانون في أوروبا يسمح لمن لم يحصل على رخصة القيادة بعد، أن يقود سيارة، إذا جلس بجانبه سائق ماهر يتحمل مسؤوليته. وهكذا عندما وصلنا ألمانيا سلمت "هانس" السيارة.

قادها ثلاثة أميال على طريق رئيسي، تعرقل بعدها السير كلّه لبطئه، فاضطررت أن أعود إلى القيادة قائلاً: "لا بأس يا "هانس". لقد أحسنت، غير أن السير البطيء لا يصلح على طريق رئيسي كهذا، ستجيد القيادة بعد قليل تدريجياً."

أجاب بلهجة اليائس: "لن أتعلم! لن أتعلم!"

فقلت: "كلام فارغ! ليتك شاهدتني إبان تعلمي." وسردت عليه حادثة قيادتي للمدرعة العسكرية، مما أضحكه وشجعه حتى وصلنا إلى برلين.

امتاز "هانس" بالجرأة والإقدام، فعندما عرض علينا بعض الأصدقاء في برلين حمل كتب مقدسة باللغة الروسية إلى الاتحاد السوفياتي أجابهم إلى طلبهم. ثم التفت إليّ قائلاً: "إذا قبض علينا نهرّب كتباً، فلتكن كمية كبيرة منها." ولم أجد بداً من القبول على مضض، خوفاً على السيارة من ثقل الحمولة.

كدنا ننطلق عندما أقبل بعض الأصدقاء يحملون صندوقاً كبيراً يحوي عدداً كبيراً من الكتب باللغة الأوكرانية. نظرت إلى "هانس" متوسلاً فأجاب: "قلت لي إنك اعتدت أن تترك قليلاً من الكتب الظاهرة للعيان، كي يكون الفضل لله وليس لك. سأضع هذا الصندوق في حضني فلا بأس عليك."

وصلنا وارسو، وأقمنا فيها ثلاثة أيام حسب تأشيرتنا. لقد تغيرت هذه البلدة كثيراً عما كانت عليه يوم زرتها لأول مرة. فهي أفضل من حيث النظافة والجمال، وقد أنشئت فيها الحدائق العامة. عرّفت "هانس" ببعض الأصدقاء في وارسو وغيرها من المُدن، بقدر ما سمحت لنا الأيام الثلاثة. وما إن وصلنا على مقربة ثلاثين ميلاً من الحدود الروسية، حتى وجدت أنني أخطأت خطأ كبيراً. فالتفت إلى "هانس" قائلاً: "أتدري ما فعلت؟"

فسأل: "ماذا؟"

قلت: "لقد أكثرت من تحويل العملة الهولندية إلى عملة بولندية."

فسأل: "ألا يمكن تحويلها ثانية؟"

فأجبت: "وارسو هي المدينة الوحيدة التي يسمح فيها لأجنبي بتحويل العملة. وإذا عدنا إلى هناك الآن ستنتهي مدة تأشيرنا."

انطلقنا من وارسو، والسيارة بقيادة "هانس"، يسوقها ببطئه المعهود. فأشاهد عضلات وجهه تتقلص وترتخي وعرقه يتصبب على وجهه حسب صعوبة الموقف، أما عيناه فركزهما على الطريق لا يديرهما يمنة أو يسرة. استمررنا على هذا المنوال، إلى أن اعترض طريقنا جسر، بدا عبوره صعباً، إلا أن "هانس" ثابر على عمله بالرغم من أن سيارة أخرى تقدمتنا، وكان عليه تخفيف سيره كي يتفادى صدمها، ولكنه لم يفعل، فترقبت المحتوم، ووقع الحادث. صدمت مقدمة سيارتنا مؤخرة السيارة السابقة، مما أثار غضب سائقها فنزل يصرخ ويصيح.

قلت لـــ "هانس": "صلّ انت وأنا أهدئه!" ثم واجهت السائق البولندي قائلاً: "أسعد الله صباحك يا صديقي. نهارك سعيد." ومشينا كلانا نتفحص مؤخر سيارته فوجدنا الخسارة بسيطة. ولكن الرجل أصر على أن ندعو البوليس، الأمر الذي لا يوافقنا لاسيما وسيارتنا مليئة بالكتب المهرّبة. وفجأة تذكرت محفظة نقودي التي تمتلئ بالعملة الروسية فقلت له: "كم تخمِّن يكلفك تصليح العطل؟ ستة آلاف "زلوتي "Zloty"؟" أما الرجل فاستمر بقوله: "البوليس! البوليس!"

فقلت: "سبعة آلاف، ثمانية آلاف؟"

مددت يدي إلى محفظتي، وناولته ثمانية آلاف زلوتي. هزّ رأسه علامة

الرفض، أضفت ألفاً ثانياً، وثالثاً، فبلغت الكمية عشرة آلاف. انفرجت أساريره عند رؤية النقد، فتناوله وعاد راكضاً إلى سيارته وهو يقول: "لا حاجة بعد إلى البوليس."

عدت إلى "هانس"، فبادرني بسؤاله: "هل أتنفس الصعداء؟"

قلت: "تنفس!" وهكذا شكرنا الله الذي سمح لنا بارتكاب خطأ واحد لتصحيح آخر.

وصلنا إلى حدود بولندا، فأصرّ "هانس" على التحدث إلى الحرس بالروسية، ومع تكسيرها وعدم اكتمالها، قدّروا جهوده لتعلمها، فأخذوا أوراقنا، وتفحصوها، وإذ لم يكن فيها خطأ أعادوها إلينا، والابتسامات على ثغورهم. وزادت بهجتهم عندما دفعنا الرسوم المتوجبة بالدولارات.

وأخيراً جاء دور السيارة، فأقبل أحد الموظفين لتفتيش محتوياتها. بقي "هانس" جالساً فيها، حسب اتفاقنا سابقاً، يرفع الأمر إلى الله بالصلاة، بينما نزلت أنا ملبياً طلب المفتش. أمرني بفتح بعض الحقائب ففعلت، ولكنه لم ينظر إليها. كان جل همه محرك السيارة، فرفع الغطاء، وراح يسألني بعض الأسئلة التكنيكية، ثم أعاد إقفاله وأومأ إلينا بالمرور.

وهكذا اجتزنا الحدود البولندية بسلام وأمان.

(١٧)

أول رحلة إلى روسيا

كانت رحلتنا إلى روسيا هي الأولى من نوعها بالنسبة لـ "هانس"، وأما بالنسبة لي فقد زرتها من قبل، وذلك بعد ولادة ابني "مرقس بطرس"، مع جماعة من الشبيبة الهولنديين والألمان، والدانماركيين، لحضور مؤتمر الشبيبة العالمي في مدينة موسكو، وهو مؤتمر شبيه بالذي حضرته في وارسو منذ عدة سنين. والآن بينما نقترب من موسكو قاطعين مسافة سبعمائة ميل، رحت أقص على "هانس" بعض المشاهِد التي علقت في ذاكرتي، من ذلك المؤتمر، قلت:

"كان الفندق الذي نزلناه عبارة عن ثكنات عسكرية إبان الثورة الشيوعية. وحالما وصلنا موسكو، خرجت من الفندق أبحث عن الكنيسة الإنجيلية، فوجدتها بناية قديمة، مدمرة، نبت العشب على ممراتها الرسمية، وتكدست الطرود والبالات في فنائها وأمام بابها، وكأنها مخزن للبضائع. درت حولها لعلي أرى الصليب، ولكنه اختفى. درت ثانية، فرأيت عند الباب باقة من الزهور الصفراء الجميلة وقد تبعثرت على الأرض من حولها، أزهار ذابلة، مما دل على أن هذه الباقات كانت تبدل بين الحين والآخر. فتخيلت إحدى الروسيات الأمينات، تتسلل ليلاً لتقوم بهذا الواجب نحو كنيستها المحبوبة الخربة.

"جئت صباح الأحد إلى الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية الوحيدة في موسكو، آملاً أن أشاهد طائفة فاسدة، محبطة العزيمة على حد ما وصفتهم صحف هولندا. وظننت للوهلة الأولى أني أخطأت المكان، إذ وجدت جمهوراً من الناس واقفين حول الباب. ترى ماذا ينتظرون؟ وقفت خلفهم، فاقترب مني رجل بادرني بالألمانية قائلاً: "هل أتيت إلى الكنيسة يا صديقي؟"

"فقلت: إذاً هي كنيسة؟!"

أجاب: "نعم، تعال معي، في الداخل مكان مخصص للضيوف". دخلت معه إلى كنيسة كبيرة لها شرفتان على جانبيها، وأرغن فخم، ونوافذ زينها الزجاج الملون الجميل كتب على إحداها باللغة الروسية "الله محبة". أما منبرها فكبير يتسع لاثني عشر رجلاً، كما تتسع الكنيسة نفسها لألف متعبد. جلست في إحدى الشرفات، أنظر إلى الكنيسة الروسية وقد ضاقت بالعابدين الذين بلغ عددهم الألفين في ذلك اليوم، فوقف الكثيرون على الجوانب وفي الوسط وتجمهروا على الباب.

ابتدأت فتصاعدت أصوات الترنيم، وكأنها تخرج من حناجر ملائكية، علت على صوت أنغام الأرغن فأخمدته، وخُيِّل إليّ أنني أصغي إلى هتاف سماوي، فاغرورقت عيناي بالدموع، جُمعتَ العطايا بانتظام وسخاء، وتلتها عظتان، الواحدة تلو الأخرى.

تأملت جمهور العابدين أثناء الوعظ، فاستغربت سلوكهم، إذ كانوا يصنعون طائرات من الورق، يطيرونها من الشرفة، فوق رؤوس الحاضرين، فيلتقطها واحد ويضعها على المنبر. شاهدتهم إلى أن نفد صبري، فالتفتّ إلى الرجل الذي بجانبي ففهم معنى التفاتتي وقال: "هذه

الطائرات كتبت عليها طلبات لصلوات متنوعة منها فردية، ومنها جماعية، ومنها أودعها ضيوف حضروا هذه الخدمة اليوم من جميع أنحاء الاتحاد. سترى بعينيك.

انتهى الواعظ الثاني من وعظه، فقام الراعي إلى كومة من أكوام الطائرات، ورفعها عالياً ثم قرأ أسماء الكنائس الممثلة في خدمة ذلك الصباح قائلاً: "كم نحن سعداء بوجود أخواننا هؤلاء بيننا!"

فرد عليه الجمهور قائلاً: "آمين".

فقال: "ليتنا نرفعهم أمام عرش النعمة بالصلاة!"

"آمين"

فقال: "وها هي بعض الطلبات ..." وقرأ بعضها "ليتنا نرفع الأفراد أيضاً أمام العرش؟"

"آمين"

انحنت الرؤوس جميعها بوقار وصمت في صلوات سرية فردية ساد خلالها الصمت والسكون، وسمعت بعض التأوهات تخرج من قلوب خاشعة تتضرع إلى الرب الذي ملأ روحه المكان، وبين الحين والآخر قطع تلك التأوهات، وذلك الصمت بعض الأفراد، رفعوا صلواتهم بأصوات مسموعة. وبعد الخدمة، أعلن الرعاة أنهم يرحبون بأي زائر إلى اجتماع الشباب وأنهم على استعداد للإجابة عن أي أسئلة. وهكذا اجتمع اثنا عشر شاباً تقريباً. جلسنا نسأله فيجيبنا: "أين توجد كنيسة إنجيلية أخرى؟"

"في روسيا كنائس إنجيلية عديدة. وكثير منها قريب منا."

"ما المسافة بيننا وبين أقرب كنيسة؟"

"مئة وثمانون كيلومتراً."

"هل تتمتعون بحرية العبادة؟"

"نعم ملء الحرية"

"وما رأيكم بالمسجونين من الرعاة؟"

"لا رعاة في السجون عندنا، وإن سجن بعضهم فهم السياسيون."

ثم تقدمت بسؤالي قائلاً: "والكتب والأناجيل؟ ألديكم ما يكفيكم منها؟"

"نعم!! الكتب المقدسة عندنا وافرة." ولإثبات قوله أراني نسخة جديدة قائلاً: "لقد نشرت السلطة هذه النسخة الممتازة حديثاً."

"كم نسخة طبعت؟"

"الكثير، الكثير."

"مرّ على اجتماعنا وأسئلتنا مدة طويلة، ولم نحظ إلا بهذه الأجوبة التي لا تفيدنا بقليل أو كثير. فعدت صباح الاثنين إلى الكنيسة نفسها لعلي أجد أحد الرعاة. فأكلمه سراً وبأكثر حرية وفجأة سمعت صوتاً يسألني: "هل لي أن أساعدك يا أخي؟" التفت خلفي وإذا به صوت أحد الرجال الذين كانوا يجيبون عن أسئلتنا النهار الفائت. عرفني بنفسه، وهو يدعى "إيفانوف"، وأعلمني أن الكنيسة تتحول خلال أيام الأسبوع إلى مكاتب

المركز المعمداني السوفياتي. ثم دعاني إلى مكتبه الخاص للتعارف والبحث. سررت بهذه الدعوة، وتحيرت كيف أبدأ بالكلام، وكيف أوضح له هدفي من زيارة بلاده.

وأخيراً، وجدت أن أفضل وسيلة هي تحية المعمدانيين الروسيين باسم المعمدانيين الهولنديين فقلت له: "لقد أتيت بتقدمة من الكنيسة المعمدانية الهولندية إلى الكنيسة المعمدانية الروسية" ووضعت صندوقاً على الطاولة أمامه.

سأل: "ما هي محتويات الصندوق؟"

أجبت: "أناجيل وكتب مقدسة."

فسأل بدهشة ظاهرة: "كتب مقدسة باللغة الروسية؟"

قلت: "لقد أذنت لي جمعية الكتاب المقدس أن أقتطع الصفحة الأولى من هذه الكتب."

خيل لي أن الرجل يحاول إخفاء مشاعره، والاحتفاظ بتوازنه فسأل: "أتسمح لي بالنظر إليها؟"

عندها فككت الرباط، وفتحت الصندوق مقدماً له ثلاثة كتب كبيرة الحجم، نظراً لأن الطباعة الروسية تحتاج إلى صفحات كثيرة بعكس الطباعة الإنكليزية أو الهولندية.

نظر إلى الكتب وهو مايزال يحاول إخفاء دهشته وفضوله فسأل: "أهي تقدمة؟ أم لعلني أسأت الفهم؟"

أجبت: "نعم"، ولكني رغبت في إغاظته فأضفت قائلاً: "لعلكم لستم بحاجة إلى تقدمة كهذه، لأن السلطة كما قلت تزودكم بطبعة حديثة جميلة؟!"

أجاب الراعي مستعيداً حديثه بالأمس: "نعم". السلطة طبعتها وصدرتها إلى بلاد أخرى. إلى أسواق بروكسل مثلاً."

قلت: "آه!! الآن فهمت."

وبعد لحظات واجهني بسؤال مباشر فقال: "قل لي يا صديقي لم جئت إلى روسيا؟"

أطرقت قليلاً، وفكرت أن جواباً كتابياً في هذه الحالة سيكون أفضل اختيار فقلت له: "أتذكر تجوال يوسف في أرض شكيم، يقول الكتاب إن أحد سكان شكيم أتاه، يسأله سؤالاً. أتذكر ذلك السؤال؟"

فكر قليلاً ثم قال: "سأله: من تطلب؟"

قلت: "نعم! وماذا أجاب يوسف؟"

قال: "أجابه: إنني أطلب أخوتي."

قلت: "هذا هو جوابي عن سؤالك."

(١٨)

في روسيا

استمع "هانس" إلى ذكرياتي باستمتاع واضح، مقاطعاً حديثي بين الحين والآخر بسؤال أو استفهام. أخيراً، وببساطة الإيمان قال: "ليت الله يقودنا إلى "إيفانوف" ثانية." ثم أضاف قائلاً: "لنسترح قليلاً يا أندرو ونتناول فنجان قهوة."

أجبته إلى طلبه، وأوقفنا السيارة في فسحة بجانب الطريق سبقنا إليها آخرون. ولكننا لم ننتبه إلى وجودهم إلا بعد أن جهزنا القهوة وأصبح تراجعنا غير لائق. لاحظناهم ينظرون إلينا متمتمين متذمرين، سكب الرجل الشاي الذي كان يحتسيه بغضب على الأرض، وراحت السيدتان بغيظ ظاهر تجمعان أدوات الطعام لتضعاها في سلة من القش.

ندمنا على توقفنا في هذه البقعة، ولكن لم نجد لغير البقاء مجالاً، وفيما نحن نفكر في ما نعمل، سمعنا صوت سيارة تقف بجانبنا، فتفتح أبوابها، ويخرج منها جنديان اتجها نحونا. اقترب الضابط منا، وذهب البوليس إلى المجموعة الأخرى، يفتش سياراتهم.

بادر "هانس" الضابط بابتسامة عريضة وتحية روسية قائلاً: "أسعد الله صباحك يا سيدي، كيف حالك؟!" ولكنه لم يرد التحية، فانزعج "هانس"،

لجفائه وعاد إلى قهوته، وهو يصلي إلى الله بحرارة كي يصد هذين الرجلين عن تفتيش سيارتنا. ونحن في روح الصلاة هذه، أدار الضابط ظهره ومشى نحو رفيقه، ليساعده في تدقيق محتويات السيارة الأخرى، وفحص كل قطعة فيها. استغرقت عمليتهما هذه نصف ساعة، لم يلتفت أحدهما نحونا قط. لذلك جمعنا أغراضنا، وركبنا السيارة، وانطلقنا في سبيلنا مراقبين الطريق خلفنا. ولما لم يلحق بنا أحد شكرنا الله على معجزاته، وعنايته بأولاده.

التفت إليّ "هانس" سائلاً: "ما معنى هذا كله؟"

أجبت: "من يدري؟ لعلهم ظنوا أننا نتبادل بضائع مهربة يحذر إدخالها إلى روسيا. على أي حال يا "هانس"، علينا أن نصلي لأجل تلك العائلة كي لا يلحق بها سوء من جراء نزولنا بجوارها"

يا لشوارع موسكو وطرقها، ما أفسحها وأعرضها! إنها تكاد تتسع لعشر سيارات معاً. سرنا عليها بسهولة، وأمن، إلى أن بلغنا مكاناً نضرب فيه خيمتنا. أوقفنا السيارة، وبدأت أفك بعض الكتب حين همس "هانس" قائلاً: "تريَّث قليلاً، حولنا عيون تتجسس." أكملت عملي ووقفت، فرأيت رجلاً بسترة خضراء، يرقب السيارة. تناولت فناجين القهوة لأعد القهوة لم نكن بحاجة إليها، وما إن انتهيت من فك أربطة الأناجيل حتى أدار الرجل ظهره ومضى في سبيله.

فسألت "هانس": "ما رأيك في هذا؟"

أجاب: "هذه مراقبة تفزعني! ليتنا نتخلص من حمولتنا"

حدث هذا ليلة الخميس، الليلة التي تجتمع فيها الكنيسة المعمدانية للصلاة والوعظ، فأخذنا كتاباً واحداً فقط، وأقفلنا السيارة وذهبنا قاصدين الكنيسة.

حضر الاجتماع تلك الليلة ما يقرب من ألف ومئتي شخص، ولكن "إيفانوف" لم يكن بينهم. انتهت الخدمة. وكانت شبيهة بالتي حضرتها منذ سنتين، فخرجت و"هانس"، أتأمل الوجوه، وأطلب من الله أن يرشدني إلى شخص حسب إرادته، أأتمنه على كتب كلمته.

بعد قليل وجدته!! رجلاً نحيلاً أصلع يبلغ حوالي الأربعين من العمر يتكئ على حائط يتأمل من حوله. شعرت بدافع نحوه، ونسيت "هانس"، غير أن إرشاد الواحد يثبته إرشاد الثاني، فانتظرت "هانس"، وهو يدنو مني راكضاً يقول: "وجدته!! وجدت الرجل الذي نحن بصدده" قال هذا وأشار إلى الرجل الذي اخترته بنفسي. لذلك بثقة وإرادة ثابتة، دنونا منه وحييناه، معرفين بنفسينا، وغايتنا من المجيء إلى موسكو.

علمنا منه أنه ألماني، هاجر أهله إلى روسيا منذ جيلين وأنه ينتمي إلى كنيسة صغيرة في سيبيريا، تبعد عن موسكو نحو ألفي ميل، وقد أرشده الله أن يأتي إلى موسكو، كي يحصل على كتاب مقدس لكنيسته المؤلفة من مئة وخمسين عضواً، ولا نسخة من الكتاب لديهم. لم يلبّ الدعوة بادئ الأمر، ولكنه انصاع أخيراً وجاء إلى موسكو.

هذه كانت قصته، فأومأت إلى "هانس" لكي يتحدث فقال له: "لقد أرشدك الله كي تقطع ألفي ميل لتجد كتاباً، كما أرشدنا أن نقطع آلاف الأميال كي نزودكم به". وأراه الكتاب الروسي الضخم.

نظر إليه صديقنا وهو لا يكاد يصدق عينيه. أمسكه بكلتا يديه، ونظر إليه ثانية، ثم احتضنه بين ذراعيه وضمه إلى صدره، وهو عاجز عن الكلام وكأن لسانه انعقد لفرط الفرح. أخيراً استعاد وعيه وراح يشكرنا، ويثني على همتنا، ثم عانقنا الواحد بعد الآخر حتى كاد يجتذب انتباه الجمهور. فهمست في أذنه أن لدينا كمية من الكتب الكبيرة فإن جاءنا في الساعة التاسعة صباحاً اليوم التالي، أعطيناه بعضها إلى كنيسته.

أثار القول شكوكه فسأل: "أهي مجانية؟"

أجبت: "طبعاً! إنها يد كنيسة واحد تمتد لمعونة الأخرى."

وفي صباح اليوم التالي، قبل الموعد المضروب بساعة، رحت أجهز الكتب التي وعدنا بها ذلك الأخ الروسي، ووقف "هانس" يرقب الطريق حذراً. وما هي إلا لحظات حتى سمعته يصفر النشيد الهولندي الوطني. إعلاناً بقدوم أحد رجال البوليس بسترته الخضراء. تركت الكتب ورحت أجهز القهوة ثم دعوت "هانس" صارخاً: "هيا يا "هانس"! القهوة جاهزة!"

جاء إليّ وتناول من يدي القهوة المثلجة فسألته: "هل عاد؟" فأجاب: "نعم وهو أكثر فضولاً من الأمس!! كم كتاباً فككت؟"

قلت: "أربعة"

قال: "كفى! ضعها في أكياس الطيران ولنسرع إلى مكان الموعد."

وضعت الكتب الأربعة في أكياس شركة الطيران الهولندية، فحمل كل منا كيسه ومشينا مسرعين حتى اذا ما دقت الساعة العاشرة دخلنا ساحة

الكنيسة. انتظرنا ربع ساعة، ثم نصف ساعة ولم يحضر الرجل فاعترانا القلق. ثم في تمام الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والأربعين سمعت صوتاً خلفي يدعوني: "مرحباً أيها الأخ أندرو."

التفت لأرى صاحب الصوت وإذا به "إيفانوف" عوضاً عن الأخ الروسي، قال: أتنتظر أحداً؟"

أجبت: "أنا – نحن – نعم ننتظر أخاً تعرفنا عليه هنا الليلة الماضية."

فقال "إيفانوف": "هذا ما كنت أخشاه، فهو لن يقدر أن يأتي."

فسألت: "ماذا تعني لن يقدر؟!"

أجاب: "عزيزي، يحضر البوليس السري كل اجتماع، فإذا ما اشتبه بأحد، عمل واجبه. وهكذا لن يحضر صديقكم اليوم، ألديكم شيء له؟!"

"نعم لدينا أربعة كتب."

قال: "لا بأس! هاتها وأنا أسلمه إياها."

تبادلت و"هانس" النظرات ثانية، وسلمته الكتب ملفوفة بورق الجرائد. ثم تشجعت، وسألته: "هل من مكان نتحدث فيه؟"

قال بدهشة ظاهرة: "نتحدث؟"

"نعم لدي مزيد من هذه الكتب!!"

أجاب: "ماذا تعني؟ أخفض صوتك!! كم كتاباً معك؟"

"ما يزيد عن المئة!"

"إنك تمزح!"

"لا، إنها في سيارتنا!"

عند هذا قادنا عبر ممر طويل ضيق، وفي أحد منعطفاته، وضع الكتب على الأرض ومدّ يديه قائلاً: "أترَيان أظافري!" نظرنا وإذا أظافر يديه مشوهة، كأنها اقتلعت جذورها، فقال: "هذه سمات السجن، والاضطهاد الذي كابدته لأجل الإيمان. لا أقدر أن أحتمل مثله مرة أخرى! لا أقدر أن أساعدكم." (كان هو الشخص نفسه الذي قال لأعضاء اجتماع الشبيبة أن المسيحيين في روسيا يتمتعون بحرية دينية تامة).

كاد قلبي ينفطر فقلت: "لا لوم عليك يا صديقي! لقد فهمت قصدك! ولكن ألا تعرف من يقوم بالمهمة؟"

أجاب: "مرقس!.مرقس! سأتدبر الأمر معه، كي يستأجر سيارة ويقابلكم عند مخزن الدبغ في تمام الساعة الواحدة." ثم، بعد تفكير أضاف قائلاً: "احترسا وكونا على حذر." وحمل الكتب متأهباً للانصراف. فقال له "هانس": "ألا تخشى ما قد تتعرض له من خطر بسبب حمل هذه الكتب؟!"

أجاب: "لا ضرر اقتصاديً كبيراً من أربعة كتب! إنها تثمن بأربعمئة روبل، وقد تستحق أربعة أشهر من السجن. أما مئة كتاب فثمنها يقدر بعشرة آلاف روبل، هذا في موسكو، وأكثر من ذلك في الضواحي. منشورات جنسية بعشرة آلاف روبل! آه، يُعاقب لأجلها إنسان ..."

صرخت و"هانس" معاً: "منشورات جنسية؟ ما لنا وهذا النوع من الكتب؟!"

أجاب: "لا شيء، ولكنهم يتهمونك ببيع هذا النوع من الكتب إذا ما شوهدت تبيع أي نوع من المطبوعات!"

قال هذا وانطلق مسرعاً مختطفاً الكتب، كمن تنبَّه فجأة لأمر هام وغاب عن أنظارنا.

في الساعة الحادية بعد الظهر، حسب الموعد المضروب، أتينا مخزن الدبغ، فرأينا سيارة بانتظارنا. نظر إلينا سائقها بحذر ثم سأل: "الأخ أندرو؟" أجبت: "وأنت مرقس؟"

قال: "نعم. سر بسيارتك بعد الساحة الحمراء مدة دقيقتين فقط! وهناك حيث لا نثير شكوك أحد، نتمم صفقتنا، إنها حيلة عبقرية."

ذهبنا إلى حيث أشار، وحسب الاتفاق وقف "هانس" يصلي، بينما نقلت الكتب من سيارتي إلى سيارة "مرقس"، وبسرعة، كي لا يثير أي انتباه، ركب عربته قائلاً: "سأوزع هذه الأناجيل على كنائس روسيا كلها، في ظرف أسبوع واحد، كي يكون لدى كل راع كتاب قبل يوم الأحد المقبل."

وانطلق كالسهم، ينهب الأرض نهباً.

عدت إلى "هانس" فوجدته مايزال مصلياً وشاكراً في آن واحد. لقد انتهت مهمتنا والحمد لله، ولولا صندوق الكتب الأوكرانية، لوجد صاحب السترة الخضراء سيارتنا خالية خاوية.

رجعنا إلى هولندا عن طريق أوكرانيا، لنوزع ما بقي معنا من الكتب القليلة. وفي إحدى محطاتنا هناك، أرانا أحد الرعاة، كنز عائلته الثمين، وهو كتاب جيب، مقدس باللغة الأوكرانية. أخذت الكتاب من يده ونظرت إليه طويلاً. ما أنسب حجمه لمهمتنا، فلو كانت كتبنا بهذا الحجم، لأدخلنا آلاف الكتب إلى روسيا عوضاً عن المئات. قلبت الكتاب بين يدي، قلبت صفحاته، تفحصت طباعته وحروفه، جميعها واضحة، تقرأ بسهولة.

يا للعجب، ألا تعرف مطابعنا، وجمعيات الكتب المقدسة في بلادنا هذا الحجم؟ لم لا يطبعون مثله؟! وانهلت على صاحبه بالأسئلة: "من طبعه؟ من نشره؟ كيف حصلت عليه؟" ولكنني لم أحظ بجواب واحد. أما الرجل فعندما شاهد إعجابي به، اقترح عليّ أن أبدله بالكتابين اللذين معي. قبلت اقتراحه، فأعطيته كتابين كبيرين باللغة الأوكرانية، وأخذت كتابه الصغير، أودعته جيبي، بغية أن أعرضه على جمعيات الكتاب في بلادنا. فأصبح هذا حلماً من أحلام المستقبل. عملت طوال ثلاث سنوات لتحقيقه.

مودعاً هذا الكنز في جيبي، غادرت و"هانس" تلك البلدة إلى قرية أوكرانية لا تبعد كثيراً عن الحدود الهنغارية. دخلنا كنيسة معمدانية صباح الأحد واشتركنا في خدمة العبادة. تأثرنا بالترنيم الرخيم، والصلوات الحارة التي رفعها المتعبدون، ولكن عندما حان وقت العظة، رأيت الراعي ينزل عن المنبر ويتجه نحو أحد المتعبدين، فيتناول منه كتاباً، ويعتلي المنبر ثانية. فتح الكتاب، وقرأ المقطع المعين. كان ذلك الكتاب هو الكتاب المقدس. بهذه الحادثة تحققت بأم عيني ما سمعته عن الرعاة الروس من أنه لا كتب مقدسة لديهم، ولا أناجيل!

بعد الخدمة دعانا الراعي للحديث، وبدأ بنوع من الجدل والمشاكسة مدعياً أنها أفضل طريقة لتضليل رجال التحري. فاتخذ سيارتي موضوعاً لبدء هجومه علينا فقال على لسان المترجم:

"قل لي أية شركة تترأس؟"

أجبت: "لست رئيس شركة!"

ولكن الرجل استمر واتهمني بالكذب قائلاً: "أعلم أنك تكذب، فقد أوقفت سيارتك في الخارج. ولا يقتني سيارة إلا الإقطاعيون والأثرياء. أما عامة الناس فيتنقلون مشياً على الأقدام، إذ لا قدرة لهم على شراء السيارات."

ماذا أفعل؟ كيف أقنعه بهويتي؟ كيف أقنعه بأنني رجل فقير، ابن حداد القرية، وكنت عاملاً بسيطاً في شركة صغيرة في قريتي، لا علاقة لي بالاستقرار مادي؟ لم يكن بوسعه أن يفهم هذه الأمور، وغيَّر موضوع الحديث من بابِ اللياقة فقط. أو لأنه شعر أنه قد وطد علاقة بيني وبينه تطرد الشبهة.

عند ذلك رحنا نتحدث عن مجيء المسيح الثاني، وهو أحب المواضيع لقلوب الروس، فتناولت كتابي كي أتابع حديثه بلغتي، ولكنه ما إن رأى الكتاب حتى فقد حماسه للبحث، والتقط الكتاب بشغف ظاهر، ففتحه، وتأمل كلماته التي لم يفهمها، ثم أغلقه وفتحه ثانية، وعيناه تعبران عن شوقه الملتهب لاقتناء نسخة مشابهة، ولكن بلغته. أخيراً التفت إليّ، وبلهجة حزينة، كئيبة قال: "يا أخي ما أحوجني إلى كتاب مقدس!! فليس لدي ولا نسخة واحدة!"

أحسست بالإشفاق على هذا الرجل وهو بهذا النفوذ والتأثير الروحي على مئات النفوس، لا يملك كتاباً مقدساً يثبت تعاليمه عن طريقه؟! ويقرأه لتغذية نفسه ورعيته؟ فرغت ذخيرتنا؟ قد وزعنا كل ما أتينا به! ما العمل؟! وتذكرت! تذكرت تلك النسخة الأوكرانية الصغيرة، تحت مقعد السيارة، لا مناص من إهداء هذه النسخة الأخيرة لهذا الراعي الأمين المتحمس لخدمة سيده!! فهتفت به قائلاً:

"انتظر قليلاً يا صديقي."

وركضت إلى السيارة وأتيته بتلك النسخة التي اذخرتها لأحث جمعية الكتاب المقدس على طبع مثلها. عليهم الآن أن يصدقوني وحسب. جئته بها، وقدمتها له قائلاً: "خذ يا أخي! خذ! هذا الكتاب لك! احتفظ به وتلذذ برسالته!"

تناول الكتاب المقدس من يدي، وكأنه في حلم فسأل: "لمن هذا الكتاب؟"

قلت: "لك! لك يا أخي، إنه ملكك الآن فاحتفظ به."

بدا سرور لا يوصف على وجه خادم الرب هذا، ووجوه شيوخ كنيسته. لقد حصل راعيهم أخيراً على كتاب مقدس! كتاب خاص به، يملكه، ويحبه، فلا داعي له بعد الآن أن يقترض كتاب أحدهم ويرده إليه.

علمت حينئذ أن مهمة عظيمة تنتظرني، ومسؤولية كبرى قد ألقيت على عاتقي خلف الستار الحديدي. عليّ أن أبذل جهوداً واسعة لإقناع بعض المؤسسات كي تنشر الكتاب المقدس بحجمه الصغير، وعليّ أن آخذها بالآلاف إلى تلك البلاد المحاصرة خلف الستار الحديدي.

(١٩)

الكتاب المقدس بين أيدي الرعاة الروس

أصبح هذا الكتاب الروسي الصغير، همي الوحيد، إذ شغل تفكيري. فأوضت دور الكتاب المقدس كلها، فكان الجواب الوحيد أن التكلفة باهظة، وتحقيق الأمر عسير بالنسبة لحجم الكتاب الذي طلبته. حتى إن جمعية الكتاب المقدس الأمريكية، حسبت الأمر مستحيلاً بالنسبة لها، ولم تختلف عنها الجمعية البريطانية وشقيقتها الهولندية.

في إحدى الأمسيات، قال لي السيد "وتسترا": "لم لا تقوم بالنفقة بنفسك يا أندرو؟"

أجبت: "يا لها من سخرية!"

فقال: "بل إني جاد في ما أقول"

"ألعلك تحلم؟ قد يكلف هذا المشروع خمسة آلاف دولار على الأقل! كيف أحصل على هذا المبلغ؟"

نظر إلي السيد "وتسترا" نظرة حزينة وهو يقول:

"أهذا جوابك يا أندرو بعد اختبار الرب طوال هذه المدة؟"

كان على حق! التكلفة ليست من شأني أنا، وإنما من شأن الرب. خرجت من بيته وأنا أشعر أنني على أبواب اختبار جديد، وأنني قد تبنيت أعظم مشروع حتى الآن، استغرق تحقيقه وقتاً طويلاً، لأنني و"هانس" لم نهمل جزءًا واحداً من العمل، فراح يشجع أحدنا الآخر، إلى أن قال لي "هانس" في إحدى الليالي في بلغاريا: "أندرو، علينا أن نجد مساعداً آخر. هيَّا لنعرض حاجتنا أمام الرب."

جلست في فراشي وأجبته: "أنت على حق يا "هانس"!"

فأضاف: "أتذكر كيف عجزنا عن الذهاب إلى تشيكوسلوفاكيا عندما حصلنا على تأشيرة الدخول إليها لأنك أنت كنت في ألمانيا الشرقية، وأنا في روسيا؟ فلو كان معنا عامل ثالث لما فاتتنا تلك الفرصة الثمينة!!"

أجبت: "نعم إنني مصغ إليك، ولكن ليس من الحكمة أن نوسع العمل بسرعة."

فرد قائلاً: "أتدعو إضافة عامل في سبع سنوات توسعاً سريعاً؟" وأضاف: "دعنا نصلي" قبل أن أستعيد انتباهي. فأحنيت رأسي مصلياً معه، مصغياً إلى رجائه الملح أمام الرب كي يرسل لنا عاملاً ثالثاً. وما إن انتهى حتى صرخنا كلانا معاً:

"لم لا ندعو "رولف"؟"

فقال "هانس": "لعل هذه هي قيادة الرب!" فأجبت: "أجل" وقمت في الليلة عينها أكتب إلى "رولف" أدعوه إلى الخدمة معنا. كان هذا طالباً نشيطاً متفوقاً، يعمل بجد واجتهاد مع طموح جامح، لا يميل إلى عمل مرسل

بسيط، يتجول من مكان إلى آخر يوزع أناجيل، بل يتوقع مستقبلاً باهراً، ومركزاً كبيراً.

وهكذا كان رده! هل صرف هذه السنوات الطوال في الدرس والتنقيب والعمل المتواصل ليصبح موزعاً للكتاب؟ ولكن "رولف" لم يعرف للراحة معنى، إذ وجد نفسه "يرفس مناخس" إلى أن استسلم لإرادة الله تعالى وانضم إلى فرقتنا. فاصطحبه "هانس" فوراً إلى رومانيا، وأراه العمل هناك، فلمس بنفسه حاجة الكنائس إلى التشجيع والتثبيت، فعاد منعقد اللسان، مسلماً تسليماً تاماً للرب والعمل في حقله.

أطلعنا "رولف" على حاجتنا لطبع الكتاب الروسي الصغير، فما كان منه إلا أن ردد كلمات السيد "وتسترا"، وأشار علينا أن نتبنى المشروع بأنفسنا سائلاً: "ماذا يكلفنا طبع خمسة آلاف كتاب؟"

اعترفت أمامه أنني لم أطرح الأمر على أي مؤسسة ولا ناقشته من قبل أي دار نشر، لشعوري بالعجز التام. فألح عليّ أن أفعل، لذلك رافقته إلى دار النشر الهولندية، ثم الألمانية والبريطانية، فكان عرض هذه الأخيرة أنسب العروض، إذ طلبت ثلاثة دولارات لكل نسخة.

فقلت لـــ "هانس": أرأيت، يكلفنا طبع خمسة آلاف نسخة من الكتاب المقدس باللغة الروسية حوالي خمسة عشر ألف دولار!!"

ضحك "هانس" و"رولف" معاً على لهجتي قائلين: "أتهتم لأمر تافه كهذا؟!"

إنهما محقان فيما يقولان. لقد اعتدت أن أتكل على الرب للحصول على معجون الأسنان، وشفرات الحلاقة، وأمور أخرى تافهة، ولكن إيماني

بقدرته ضعف، ووهن، عندما بلغت الحاجة ١٥٠٠٠ دولار! يا لضعف إيمان البشر وتصور قلوبهم!

جلست في المطبخ تلك الليلة، أقلب صفحات دفتر الحوالات المصرفية، فوجدت كمية التبرعات التي جمعتها خلال ثلاث سنوات لم تتعدّ الألفي دولار. فكيف أجمع ما بقي؟

جلست "كوري" إلى جانبي، ولعلها انتبهت إلى ما يدور في ذهني فسألت: "بم تفكرُ يا أندرو؟" ناولتها الدفتر متأوهاً وقلت: "انظري هذا كل ما جمعته هذه السنوات الثلاث" ثم أضفت: "لو عرضنا بيتنا للبيع، فكم تظنين يدفع فيه؟"

امتقع لونها لهذا السؤال ولم تنبس ببنت شفة. فقلت: "لقد كان صفقة رابحة عندما اشتريناه والآن بعد التصليحات التي أجريناها عليه، لا شك في أن ثمنه قد ارتفع الآن: فبكم تظنينه يُباع؟ عشرة آلاف دولار؟ اثني عشر ألف دولار؟ هذه هي الكمية التي أحتاجها!"

"بيتنا يا أندرو؟! بيتنا؟ الآن ونحن ننتظر طفلاً آخر؟"

أجبت: "علينا أن نخرج من هذا المأزق الحرج!"

فقالت: "لعل الله لا يدعونا إلى طبع هذه الكتب! لعله يقودنا إلى إرادته عن طريق التأجيل!"

أجبت: "نعم قد تكونين محقة!"

هذا ما قلناه تلك الليلة، على أن "كوري" أخبرتني في ما بعد أنها بدأت

تطلب من الله أن يغير إرادتها، ويمنحها نعمته لترضى ببيع البيت. وأخذنا كلانا نبتهل أمام الرب ضارعين إليه أن ينزع من قلبينا حبنا لبيتنا، ويمنحنا قوة للاستغناء عنه إذا كانت مشيئته أن يباع لأجل الكتب المقدسة. وإن كان الأمر كذلك، فعليه إذاً أن يعمل المعجزة في قلبينا. وهكذا بعد صلاة حارة بضعة أسابيع، ولدت خلالها طفلتنا التي طالما انتظرناها، قررنا معاً أن سعادتنا لا تتوقف على البيت، وأننا بين يدي الرب يسكننا حيث يشاء. فقالت "كوري": "اذكر يا أندرو، أننا على كل حال نجهل أين سينتهي بنا المطاف." فأكملت جملتها بقولي: "لكننا سنسير الطريق معاً."

في ذلك اليوم عينه عرضت البيت للبيع، فساوى مجموع ما دفع فيه، وما ادّخرناه خمسة عشر ألف دولار - الكمية التي نحتاجها. كان هذا إثباتاً من الرب. فكتبت إلى صاحب المطبعة في بريطانيا، طالباً إليه أن يبدأ بطبع الكتب كما اتفقنا. وشعرت و"كوري" بتلك الليلة بسلام لا يفوقه سلام.

ما أعظم الرب، وأكثر جوده، وأوفر عطاياه. يطلب منا القليل القليل، ليعوضنا الكثير الكثير. فيوم الجمعة من ذلك الأسبوع ذاته أسرعت إليّ "كوري" تقول: "هيا ردّ على الهاتف يا أندي." لم أسرع في خطواتي ظاناً أنه مشتر يساومني على البيت. ولكن حدسي لم يصدق. إذ سمعت صوت مدير جمعية الكتاب المقدس الهولندية، يدعوني إلى مقابلته بعد الظهر.

ذهبت توا إلى الموعد المحدد، وجلست أمام بعض المدراء أتفاوض معهم. وتم الاتفاق على أن يتبرعوا بنصف المبلغ الذي يكلّفه طبع الكتب، شرط أن تتعهد الطبع جمعية أخرى نظراً لانشغال جمعيتهم آنذاك. وأضافوا

قائلين أنهم يدفعون تكلفة الطباعة كلها مبدئياً على أن أدفع ثمن الكتب التي أحتاج إليها عند شرائها.

عجزت عن شكر الرب لعطيته هذه وعنايته الفائقة. لم يعد هنالك داع لبيع البيت بعد الآن. ستعود حياتنا إلى مجراها الطبيعي، وتعود "كوري" إلى خياطة الستائر، وتجهيز غرفة "إستفني" المولودة الجديدة كما يجب، ولنشكر الله على فضله، وسخائه، إذ أعطيناه ذرة صغيرة، فعوضنا عنها أحمالاً محمَّلة.

لقد تحقق حلمي أخيراً، وتيقنت، وأنا أخرج من باب جمعية الكتاب المقدس في هولندا، أن الرعاة الروس سيحصلون على كتب مقدسة، صغيرة الحجم باللغة الروسية، خلال ستة أشهر من اليوم، أي في أوائل عام ١٩٦٤. في هذه الأثناء أقدم "رولف" على الزواج، رغم محاولتنا أنا و"كوري" أن نثنيه عن رغبته، مبينين له صعوبة الفراق وبعد الواحد عن الآخر مدة طويلة من الزمن. ولكنه أصر على أن سعادتنا شهادة قوية ضد العزوبة، بالإضافة إلى أن عروسه "إيلين" ستمد لنا يد المساعدة، وترافق زوجها في رحلاته وتعمل عمل الرجال. وهكذا تمت مراسيم الزواج وسط فرح وسرور عظيمين.

انتهت الطبعة الأولى من كتبنا المقدسة، فطلبنا إلى "رولف" و"إيلين" أن يأتيا بها من إنكلترا، ويا لها من ضجة، حدثت عندما دخل "رولف" و"إيلين" والنسخة الأولى من نوعها في يديهما. كم كان سرورنا عظيماً في تلك الساعة، لأن الرعاة الروس سيتمتعون قريباً بقراءة كلمة الله، وعلينا أن ننطلق فوراً لتسليمهم إياها، لاسيما وقد أصبحت وسائل النقل لدينا

أسهل بعد أن اشترينا سيارة كبيرة تتسع لعدد أكبر بكثير من سيارة الأوبل. وهكذا سافرنا في السادس عشر من شهر مايو ١٩٦٤. كان "هانس" في هنغاريا في تلك الأثناء، فوقعت مسؤولية مرافقتي على عاتق العروسين.

كان صباح الأحد، وموعد الذهاب إلى الكنيسة. تركت و"رولف" العربة، بقلبين مثقلين، إذ تركنا فيها ثروة كبيرة، هي ستمئة وخمسين كتاباً، يساوي كل واحد منها بقرة روسية. لذلك فنحن نعد مهربين اقتصاديين، وجزاء ذلك النفي أو الرمي بالرصاص، كما سبق وعوقب مهرب قبلنا. إلا أننا طردنا هذه الأفكار من رأسينا واستأنفنا طريقنا إلى الكنيسة.

كان "إيفانوف" على المنبر ذلك الصباح، ولا شك أنه عرفني حالما وقع نظره عليّ، ولكنه لم يبد أية إشارة تدل على معرفتي. خرج من الكنيسة بعد العظة إلى غير عودة، وعوضاً عنه سمعت صوتاً خلفي يقول: "أهلاً بك إلى روسيا يا أندرو." التفت وإذا به مرقس، فعرفته على "رولف" قائلاً: "لقد أتيناكم بتقدمة كبيرة ثمينة."

فقال: "أحسنت! انه لخبر سار." قال هذا بصوت مرتفع، كي لا يجتذب إلينا المخبر الذي يهتم بالهمس.

سألته: "أين نلتقي هذه المرة؟"

أجاب: "في المكان نفسه."

يالشجاعة مرقس! في المكان نفسه! في وسط البلد! أما أنا فلم أشعر بتلك الجرأة، وتملكني نوع من القلق فقلت له: "أرغب في رؤية مناظر جديدة."

عندئذ خفض صوته لأول مرة قائلاً: "إذاً عند مدخل البلد حيث تجد لافتة كتب عليها اسم موسكو. لنتقابل هناك في تمام الساعة الخامسة. فك الطرود، وجهّز كل شيء لننهي مهمتنا بأقصى سرعة."

بدا لي المكان الثاني أفضل من الأول، أما المشكلة الآن، فهي فك الكتب، كيف نفكها، ونخرجها من صناديقها، وهي عملية تستغرق نصف ساعة على الأقل وتتطلب عزلة تامة عن الأنظار!! كيف وأين؟

ثم خطرت لي فكرة فقلت لـ "رولف": "هيا نسير بالسيارة على الطريق العمومي كأننا نتمتع بمناظر البلد، فأنسلّ أنا إلى الخلف أفك الكتب، وتستمر أنت في السير، ومهما حدث فلا تتوقف أبداً. وما إن بدأنا بتنفيذ هذه الخطة حتى توقفت السيارة فجأة، ووقف البوليس قبالتها. فقال "رولف" بالبولندية: "صباح الخير يا حضرة الضابط! هل ارتكبت خطأ؟"

أجابه الضابط بضعة جمل روسية قالها بعنف وغضب، أنهاها ببعض الكلمات الإنكليزية قائلاً: "لا طريق! لا طريق! تقول اللافتة!"

فأجاب "رولف": "هل أخطأت في أخذ هذا الطريق يا حضرة الضابط؟! إني متأسف جداً، إذ لم أعتد السير على طريق عريضة جميلة كهذه." لكن البوليس راح يزمجر مرة أخرى، مما جعلني ألتصق بجدار العربة، مصلياً ألا ينظر إلى داخلها، وبعد مدة خلتها عمراً، قال البوليس شيئاً بالروسية، بلهجة أكثر لطفاً، وأجابه "رولف": "والقائل: باركك الله يا صديقي وشعبك وبلادك." وعادت العربة إلى سيرها، ولم أمد رأسي لأرى ماذا حدث إلا بعد مسافة طويلة طويلة. فقال "رولف": "لن أعود إلى هذه الوسيلة! لا أستطيع أن أحتمل حادثاً آخر كهذا."

قضينا ذلك النهار في السيارة نسير من مكان إلى آخر نبحث عن زاوية منعزلة تتيح لنا فك الطرود ولكن دون جدوى. أخيراً أزفت الساعة الرابعة، وكان علينا الانطلاق نحو مكان الموعد. وهكذا سرنا بقلبين مثقلين مهمومين. وفجأة التفت رولف نحوي قائلاً: "لماذا يملأ الهم قلبك يا أندرو؟ هذا عمل الرب وهو يجريه." قال هذا وابتدأ بالترنيم فشاركته، فانقشعت الغيوم عن قلبينا وإذا بغيوم فعلية تملأ الفضاء وتعكر صفاء الجو الجميل، فحجبت الشمس وعصفت الرياح، وومض البرق، وقصفت الرعود. ثم انهمر المطر بشدة لم أعهدها من قبل وكأن السماء انفتحت لتفيض على الأرض مياهاً وأمطاراً، مما أرغمنا على التوقف بجانب الرصيف كما فعل كثيرون غيرنا.

نظر إليّ "رولف" وقال: "أرأيت؟ ..."

أجبته: "أجل".

فأضاف: "لقد خبأنا الله خلف غيومه وأمطاره!"

وهكذا انسللنا إلى مؤخر السيارة دون أن يشعر بنا أحد أو يرانا إنسان. فحللنا الطرود جميعها وجهزنا كل شيء وعدنا إلى مكاننا عندما توقف المطر. في تمام الساعة الخامسة اجتزنا اللافتة المعينة حيث مرّ بنا مرقس. وخلال عشر دقائق، وجدنا أنفسنا في مكان تجاري، يحمّل عماله الشاحنات الكبيرة، بأنواع مختلفة من الطرود والصناديق. فنقلنا بدورنا رزمنا، وبضاعتنا إلى سيارة مرقس دون أن ينتبه إلينا أحد من الناس.

إلى هنا أعاننا الرب، وبعد خمس سنوات سمح لنا الله أن نبرّ بوعدنا للرعاة الروس خلف الستار الحديدي.

(٢٠)

التنين اليقظ

من نافذة الطائرة بدت لي هونغ كونغ، ذلك الضوء العظيم، عاصمة المستعمرة البريطانية الشهيرة، كفراشة تتلاعب بها الرياح، على ذيل تنين الشيوعية المتربص. امتدت حولها بلاد الصين الشاسعة الأطراف. كنت أتخيل هذه البلاد كمنفى منحصر ضمن جدران سور متين، مسلح، لا تخترقه قوة، ولا يلين لإنجيل المسيح. لذلك لم يخطر ببالي قط أن أزور الصين أو أكرز فيها.

أما الآن. ففي أحد الأتوبيسات العامة بموسكو، اجتذبني رجل صيني يجلس إلى جانبي، تجاذبنا أطراف الحديث، وإذا هو أمين صندوق جمعية الشبان المسيحية في شانغهاي. سألته: "وهل لهذه الجمعية وجود في الصين؟" فقال: "نعم، وهي تقوم بشتى أنواع الأشغال والأعمال." وإثباتاً لقوله أعطاني بطاقة باسمه وعنوانه طالباً إليّ أن أزوره. منذ تلك اللحظة، ومض بريق أمل جديد في نفسي، وساورني طموح شديد لزيارة بلاد الصين، وكرازة أهلها وخدمتهم.

على إثر ذلك رحت أستعيد تاريخ الإرساليات والمرسلين الذين اهتموا بالصين والكرازة فيها أكثر من أي بلد آخر. فماذا حدث للمسيحيين الأولين الذين سمعوا الكلمة وقبلوها؟ هل مازالوا مخلصين أمناء؟ ماذا

حدث للكنائس التي أسسها أولئك المرسلون؟ هل مازالت قائمة؟ رغم الاضطهاد الذي تقاسيه؟ هل تجتمع سرا في دهاليز متنوعة مختلفة؟ وهب الكنائس موجودة، فهل يحتاج أعضاؤها إلى كتب وأناجيل كما هي الحال في شرقي أوروبا؟ عليّ أن أجد أجوبة لهذه الأسئلة قبل أن أفكر في السفر إلى الصين.

وهكذا، عندما وجدت نفسي في ولاية كاليفورنيا، في الولايات المتحدة عام ١٩٥٦، عزمت على أن أستمر في رحلتي إلى "تايوان Taiwan". ومنها إلى الصين، معتمداً جنسيتي الهولندية، إذ سمح للهولنديين آنذاك بالدخول إلى ما خلف الستار الحديدي.

أما الآن، ففي الطائرة المتجهة إلى هونغ كونغ اكتشفت، عن طريق رجل جلس إلى جانبي، أنني قد أخطأت. كان ذاك الرجل مدير مصرف في هونغ كونغ. نظر إليّ بعدما علم أنني متوجه نحو الصين وقال: "ألم تركب الطائرة في تايوان؟"

أجبته: "أمضيت فيها عشرة أيام!"

قال: "أرني جواز سفرك!"

ناولته إياه! قلب صفحاته، وتوقف عند التأشيرة الأمريكية مردداً: "الولايات المتحدة!"

قلت: "كنت هناك!"

فقال: "يستحيل دخولك إلى الصين الحمراء بجواز السفر هذا!" اعتدت أن

ابتهج لأقوال كهذه تعني اختبار الرب وقوته من جديد، ولكن ما إن نزلت في جمعية الشبان المسيحية في هونغ كونغ حتى بدأت أشعر بالخيبة لكثرة ما تردد على مسمعي من أقوال لم تكن بالحسبان. قيل لي أن هونغ كونغ مليئة بأمثالي الذين حاولوا، دون جدوى ان يدخلوا إلى الصين - بينهم المعلمون الأكفاء، والأطباء الماهرون. مؤهلاتهم كلّها لا قيمة لها اليوم، وبمجرد عملهم في ظل النظام السابق، واعتراف السلطات السابقة بكفاءتهم ضُرب بمؤهلاتهم عرض الحائط، ومنعوا من دخول الصين الحمراء منعاً باتاً.

لكثرة هذه الأقوال، ولرغبتي التي أصبحت ملحة الآن لاكتشاف الصين الحمراء، عزمت على أن أحاول ما استطعت أن أحصل على جواز سفر جديد. ذهبت تواً إلى السفارة الهولندية، ودخلت على القنصل وهو يدخن غليوناً طويلاً. وقفت قبالته، أشرح له وضعي، وحاجتي. ابتسم عندما كاشفته برغبتي في زيارة الصين، ولكنه راح يقهقه ضاحكاً لمَّ علم قصدي بزيارة مسيحيي البلاد وتهريب كتب وأناجيل إلى أهلها، فقال: "أرني جواز سفرك!" ناولته إياه، فأخذ يقلب صفحاته، ونظرات التهكم بادية على وجهه وهو يقول: "مستحيل! مستحيل!" ليس بوسع السفارة الهولندية في هونغ كونغ أن تمنح جوازات سفر جديدة. والمفوضية في أندونيسيا، تتطلب أسباباً قانونية، قبل إصدار جواز سفر جديد.

شعرت بالفشل والخيبة بادئ بدء، ولكني عدت واستجمعت شجاعتي، وراودني أمل جديد، إذ تأكدت بعد هذا أنني لن أدخل الصين بقوتي أو مهارتي، بل بعون الرب وقوة ذراعه. فإن عين لي أن أزور الصين،

وأحمل إليها الأناجيل، فهو لا محالة يدبر الأمر، ولا شيء يقف حائلاً أمامه. لذلك فانيّ سأذهب صباح اليوم التالي إلى السفارة الصينية طالباً تأشيرة دخول إلى الصين، واثقاً أن الرب سيعمل إلى جانبي إن كان سفري إلى تلك البلاد وفق إرادته.

لكنني قبل المغامرة، تذكرت أمراً: لماذا لا ألتمس بعض الأخبار من الموظفين الصينيين الذين في هونغ كونغ أولاً؟ لذلك توجهت نحو أحد مكاتب السفر الصينية. وجدته مقفلاً، فأخذت أذرع الرصيف ذهاباً وإياباً، مصلياً بحرارة كي يفتح لي الرب الباب. وفي الصباح التالي، بكرت إلى المكتب عينه، ووجدت جمعاً كبيراً من الناس، ينتظرون تنفيذ أعمالهم. وقفت خلفهم منتظراً دوري. عندما مشيت نحو رجل يرتدي "سترة الشعب" الزرقاء وقلت له بالإنكليزية: "سيدي، بودي أن أقدم طلباً للحصول على تأشيرة إلى بلاد الصين."

سمع الرجل كلامي، فأدار طرفه عني، واستمر في ختم الأوراق المكدسة أمامه، أخيراً نظر إليّ سائلاً: "هل زرت الولايات المتحدة وتايوان؟" أجبت: "قدمت من هناك حديثاً." فقال: "إذاً لا حيلة، ولا وسيلة تدخلك الصين!" سألت: "ولِمَ؟" أجاب: "لأنهما من أعدائنا." فقلت مبتسماً: "أعداؤكم أنتم، ولكنهما ليستا من أعدائي. ليس لي أعداء، ومهما يكن من أمر، فاسمح لي بتعبئة طلبات السفر!"

أجابني إلى طلبي وهو يقول: "لن تنتفع شيئاً، ولن تصل إلى غايتك." أخذت الأوراق من يده، وبروح الصلاة والإيمان، ملأتها وأعدتها إليه مستعلماً: "متى أحظى بالجواب؟" فقال: "بعد ثلاثة أيام."

تناولت العشاء تلك الليلة مع أحد المرسلين الصينيين، فأخبرته أنني سأحظى بنتيجة بعد ثلاثة أيام. ضحك قائلاً: "ثلاثة أيام، في الصينية، تعني أبداً."

لم أعبأ بما سمعت، بل صرفت الأيام الثلاثة المحددة بالصوم والصلاة، والابتهال أمام الرب، بالإضافة إلى شراء أناجيل وكتب مقدسة باللغة الصينية، وانتظرت إجابة الرب.

عدت إلى غرفتي في جمعية الشبان المسيحية في اليوم الثالث، لأجد رسالة على طاولتي، تبلغني أن أتصل بمكتب السفريات الصيني. عوضاً عن التحدث هاتفياً، ذهبت بنفسي إلى المكتب المذكور. وجدت كل شيء جاهزاً على ما يرام. بفرح ما فوقه فرح، وبقلب مفعم بالشكر لله القدير، تناولت جواز سفري، مرفقاً بتأشيرة الدخول إلى الصين وشرعت أعد العدة للسفر.

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي ركبت القطار قاصداً الصين الحمراء، وهي رحلة استغرقت ساعتين مررت أثناءها بالمستعمرة البريطانية لاوو التي تقع على جسر يفصلها عن بلاد التنين اليقظ. وقف على الجانب البريطاني من الجسر جندي إنكليزي يقوم بنوبته. دنوت منه لضجري من الانتظار، وأخذت أحدثه، فعلمت منه أن الجسر يعرف بجسر البكاء والعويل لأن كثيراً من اللاجئين يأتون يومياً، محاولين التسلل إلى بلادهم، فيضبطهم الحراس ويرجعونهم، وسط البكاء والنحيب.

فصليت صلاة صامتة قائلاً: "إلهي ضع حداً للأحزان والشقاء وقرب ذلك اليوم الذي فيه يتحد البشر جميعهم تحت لواء المحبة في مملكتك."

أخيراً أشار إلينا الجندي بالمرور، فعبرنا الجسر واحداً خلف الآخر حفاظاً على السلامة، إلى أن بلغنا منتصفه، حيث تبدل لون درابزين الجسر من الأخضر إلى الأحمر. لقد بلغنا الصين الشيوعية، وبعد مسيرة قصيرة دخلنا دائرة الجمارك. لأول مرة شاهدت فتاة لا تزيد سنها عن العشرين أو الخامسة والعشرين تقوم بعملية التفتيش. شعرت برعشة تسري في أعضائي.

وازدادت دقات قلبي بسرعة! ما عسى هذه الصينية أن تفعل عند رؤية الأناجيل المكدسة في حقيبتي؟! وقفت بجانبها فقالت بابتسامة عريضة: "أرجوك يا سيدي أن تفتح حقيبتك." فعلت، وأزحت بعض الملابس مبيناً ذخيرتي. لكنها لم تقل شيئاً. نظرت إلى ما في الحقيبة ثم قالت: "شكراً! أغلق الحقيبة! هل لديك ساعة! أو آلة تصوير؟!"

عجباً، أيبلغ جهلها إلى هذا الحد؟! ألم تر في حياتها كلها كتاباً مقدساً فلم تعرف شكله ولا منظره؟ كان هذا اختباري الأول في الصين الشيوعية – بلاد التنين اليقظ!

وجدنا القطار إلى "كانتون Canton" بانتظارنا، كما كان التوقيت دقيقاً للغاية فلا تضيع دقيقة واحدة، ولا يتأخر شيء عن وقته. ما أنظف هذا القطار القديم، وقد زين بأزهار زاهية جميلة، كانت تدور بين المقاعد مضيفة لطيفة تحمل أكواب الشاي الساخن إلى المسافرين. وما إن وقع نظرها عليّ حتى راحت تبحث عن كلمات إنكليزية تحدثني بها، بعد أن شاهدتني أنظر إلى ساعتي فقالت: "سيصل قطارنا في الوقت المعين."

وهكذا كانت لهجة الجميع، "بلادنا"، "قطارنا"، "حكومتنا"، "ثورتنا كما امتلأت جدران كانتون باللافتات والكتابات، والحوانيت، وُضع في الغرف، والصالات، كتب جذابة باللغات الأوروبية، والإنكليزية، والألمانية، والفرنسية، لإغراء النزلاء، تتناول جميعها موضوعاً واحداً وتدور حوله بشتى الأساليب والطرق - "ناصروا ثورتنا واشكروا من قاموا بها - اكرهوا أمريكا وكيلوا لها البغضاء."

في إحدى الليالي ذهبت إلى مسرح في كانتون حيث كان الممثلون يتدربون على أدوارهم. كان أحدهم يقوم بدور من يشعل الصاروخ، وفي اللحظة التي فيها يكاد الصاروخ أن يشتعل، يقوم بطل المسرحية بقطع التيار الكهربائي، فيتوقف الاشتعال، وهكذا دامت الحال فصلاً بعد فصل، إلى أن اتسعت دائرة المتفجرات، فظهرت قنبلة ذرية، ملفوفة بعلم أمريكي كبير. وفي نهاية المسرحية، تمكن البطل من تدمير القنبلة، والفوز بالنجاح. عند هذا الحد، بدا جمهور المشاهدين، كأنهم قد مُسُّوا بنوع من الهستيريا، فقفز أكثرهم عن مقاعدهم هاتفين بعبارات وطنية حماسية.

ولم تتوقف الدعاية عند هذا الحد، بل أثرت في الشيوخ كما في الشبيبة، زرت يوماً ملجأ للعجزة، بدا لي حقيراً بمقاييسنا الأوروبية، غير أن ساكنيه، أظهروا كل قناعة وامتنان لوجودهم فيه. وقامت إحداهن، تكاد تبلغ الرابعة والثمانين، تحاول بلسان المترجم أن تقنعني بفضل الثورة التي وفرت بيوتاً كهذا للعجزة، إذ أصبحت تهتم بهم، بينما قبل الثورة كانوا جميعهم مهملين منبوذين، ليس من يعيرهم اهتماماً. أما بعد الثورة فهم يتمتعون بوافر العناية والراحة، وهكذا استمرت في المقارنة بين

ما كانوا عليه قبل الثورة، وما أصبحوا فيه بعد الثورة. وكلما قالت: "بعد الثورة" شعرت كأن تياراً كهربائياً يسري في عروق باقي العجزة، فيصفقون بأيديهم، ويطلبون التوفيق للنظام الشيوعي والسلطة الجديدة ويعودون إلى الهدوء ريثما تتم حديثها.

أما الشبيبة فكان حماسهم للدولة، واعترافهم بفضلها يفوقان الوصف، فقد قال لي المترجم يوماً في شانغهاي: "عرفت شانغهاي "قبل" الثورة بالعهارة والدعارة أما "بعد" الثورة فقد دربت السلطة المومسات جميعهن على مختلف أنواع المهارات والأعمال. كان أهل الصين أميين "قبل" الثورة أما "بعدها" فأكثرهم إن لم نقل جميعهم يتقنون القراءة والكتابة."

هذه الأحاديث عن النظام الجديد، والمقارنة بينه وبين القديم، أضرمت فيّ نار الرغبة لزيارة المجتمعات الشيوعية الصغيرة لأرى بأم عيني الحالة التي يعيشها الناس، لأن المترجمين الذين رافقوني كانوا جميعهم مدربين على يد الحكومة، متشربين مبادئها وأسسها، لذلك فهم لا يصرحون بالحقيقة التي سأكتشفها إذا زرت البيوت العادية والعمال العاديين.

وهكذا تسنى لي أن أزور ستة مجتمعات أثناء إقامتي في الصين. بلغ سكان الأول منها نحو عشرة آلاف نسمة، قمت فيه بزيارات غير رسمية، لبعض البيوت الصينية.

زرت بيتاً، سكنه رجل وزوجته، بدت على وجهيهما سيماء الكبرياء والاعتزاز وهما يريانني مخزن القمح في بيتهما. فسألتهما على لسان المترجم: "ألا تخافان من الفئران؟" فقالا: "بلى الفئران تضايقنا ولكن عندنا ما يكفي لنا ولها بخلاف ما كان سابقاً."

"كنا سابقاً" هذه النغمة آلمتني إذ لم يكن لدي مقاييس أقيس بها الحاضر أو أقارنه – بالماضي، لست إلا سائحاً دخل هذه البلاد للمرة الأولى. كيف عاش المواطنون في الماضي يا ترى؟

أما في المقاطعة الثانية، فأخذني المرشد إلى مستشفى كان مدعاة فخر المواطنين، مع أنه بالمقاييس الأوروبية يعد بدائياً لا نفع منه. فغرفة العمليات افتقرت إلى الأنوار الحديثة والأدوات الطبية، والصيدلية شكلت رفوفاً خشبية فارغة لا أدوية عليها، والأسرّة حقيرة بعضها بلا ملاءات، وبعضها بلا فُرُش. ومع ذلك فقد فخر به الناس وهنأوا أنفسهم للحصول عليه بعد الثورة، إذ عدّوه تقدماً عظيماً ومنحة سخية من سلطات الثورة.

هل صورة هذا الحاضر الرث إذن تكشف لي حالة الماضي؟

ابتغيت قبل كل شيء في شانغهاي أن أقابل صديقي، أمين صندوق جمعية الشبان المسيحية، الذي جلس إلى جانبي في الأتوبيس العام في موسكو، وعرفني بنفسه طالباً مني زيارته إذا ما نزلت شانغهاي. سألت عن هذه الجمعية، وسرني أنها كانت معروفة! توجهت إليها فاعترتني الدهشة وانتابني الفشل عندما دخلتها لأنه عوضاً عن الشبان رأيت شيوخاً يلعبون بعض الألعاب المسلية. إذا فهذه الجمعية أصبحت مؤسسة من نوع جديد، فالشبان والمسيحية أبعد ما يكونان عنها. سألت عن الصديق المقصود!! لم يعرفه أحد. ألمحت إلى أنه كان أمين صندوق الجمعية وأنني مصرّ على مقابلته. عندها ذهبت إحدى الموظفات تبحث عنه. وعادت تقول إن لا أحد يعرفه. استغربت: "مستحيل! انظري إلى هذه البطاقة. كان هذا الرجل أمين صندوق جمعيتكم، ولا شك ستجدين

من يعرفه إذا تفضلت بالسؤال عنه ثانية." وذهبت تبحث ثانية، واستغرق بحثها هذه المرة وقتاً طويلاً، ولكنها رجعت تقول: "نعم أنت على حق، كان صديقك هنا! أما الآن فهو ليس في هذا البلد!"

ترددت هذه الجملة "ليس هنا! ليس في هذا البلد!" على مسمعي مرات ومرات، فكلما سألت عن شخص، أو أردت مقابلة أحد في شانغهاي قيل لي: "كان هنا! أما الآن فهو خارج البلد!" أهو خروج دائم يا ترى؟ أم سيعود إلى بلده؟!

ماذا أفعل الآن؟ قيل لي في موسكو إن بيع الكتب المقدسة مباح في شانغهاي. اجتهدت حتى وجدت المكتبة. دخلتها، وإذا بها مكدسة بمختلف أنواع الكتب، منها الأناجيل، والكتب الدينية الأخرى، وقد علق على أحد جدرانها صورة جميلة، تمثل المسيح وحوله الأولاد الأوروبيون البيض.

سار بي المسئول في أنحاء المكتبة يريني ما لديه من بضاعة، وكتب متعددة الأنواع والأشكال. تفحصت إنجيلاً، وعجبت مما كتب عليه بالإنكليزية، إنه طبع في شانغهاي. سألت الرجل: "هل طبع هذا الكتاب هنا في شانغهاي، أم في هونغ كونغ؟"

أجاب بزهو وكبرياء: "نحن الصينيين نقوم بأعمالنا جميعها بأنفسنا."

سألت: "كم كتاباً تبيع في النهار؟!"

سقط وجهه عند هذا السؤال وأجاب: "أبيع كتباً قليلة!"

"كم إنجيلاً، وكم كتاباً مقدساً تبيع في الشهر؟"

"قليل جداً"

صرفت معه ما يقرب من ساعة كاملة، لم يدخل المكتبة أحد خلالها فسألته: "كم تخمِّن عدد زبائنك؟"

"قليلون جداً"

الزبائن قليلون!! بيع الكتب قليل! العمل قليل! إذاً لقد سمحت السلطة لهذه المكتبة أن تستمر في عملها لأنها لا تشكل خطراً، لا يوجد من يهتم بها وببضاعتها.

استعدت ذكرياتي واختباراتي في الصين. حاولت أن أوزع ما أتيت به من كتب مقدسة دون نجاح. قدمت كتاباً لمترجمتي الأولى، لكنها أعادته إليّ مع الشكر، معتذرة بأن لا وقت لديها للقراءة. تركت بعض الكتب في الفندق الذي نزلته، إلا إن الخادمة لحقت بي والكتب في يدها سائلة: "أهذه لك يا سيدي؟" فأخذته بقلب مثقل وانطلقت حزيناً. وزعت بعضاً على المارين في الشوارع، على مرأى من المرشد، أو المترجم، دون أي اعتراض. فما كان من المارين، إلا أنهم نظروا إليّ، وإلى ما معي بروح التهكم والاستهتار، فيتناول أحدهم الكتاب الذي أقدمه له، وينظر إليه، ثم يعيده إليّ دونما أي اهتمام.

والآن، فهذه المكتبة مليئة بأجمل الكتب المقدسة، وأوضحها طباعة. أما الزبائن فقليلون! والبيع قليل والعمل قليل! ماذا بقي؟! خرجت منها وقد

تملكني اليأس، وملأ الفشل قلبي، إذ تيقنت أن اللامبالاة، والإهمال أكثر خطرا على الكنيسة من الاضطهاد والعذاب والتشريد.

مع ذلك، لم يمت فيّ الأمل موتاً كلياً، لاح لي بصيص منه غير ضئيل، في كليات اللاهوت التي ما برحت قائمة. فعرجت إلى إحداها في "نانكين Nankin" حيث اجتمعت بالرئيس والعميد، اللذين اتقنا الإنكليزية، فشعرت بشيء من الحرية في الكلام، خاصة لعدم وجود مترجم. جلسنا نشرب الشاي دون أن يتكلم أحد منا. أخيراً انتهزت الفرصة، وبدأت بالحديث. لكن زيارتي لمعهد الكتاب المقدس في نانكين لم تسفر إلا عن تعريفي بالسياسة الشيوعية في الصين. فقد كان رئيس الكلية عضواً في البرلمان المحلي، لا اهتمام له بغير السياسة، والحزب وتطوره وتقدم مصالحه. لذلك ملأ جدران كليته بالإعلانات الشيوعية ضد السياسة الأمريكية، التي شبهها الشيوعيون بالقنبلة الذرية التي ستنفجر حتماً وتؤدي بالصين والصينيين إلى الهلاك ما لم يحاربوها بكل قواهم.

أما المسيحية التي كانت يدرس لاهوتها في ذلك المعهد فلم أكتشف نوعها، غير أنني متأكد أنها كانت جزءًا من تلك التربية الحديثة التي تتحامل على الغرب والمستعمرين مظهرة جميع سيئاتهم ونقائصهم، كما هو حال التعليم في جميع أنحاء الصين الشعبية اليوم.

كيف يمكن للمرء أن يتعرف ببلد غريب، يجهل لغة أهله – في زيارة واحدة، ترجم له، وقاده فيه المتكلمون باسم الدولة، جهدوا أن يظهروا محاسن دولتهم، وعدالة حكمها، فلا يظهرون للعيان إلا أفضل ما عندهم؟ استحسنت عدة أمور، وبقيت معي عدة انطباعات جيدة – فالبلد نظيف،

خلا من الشحاذين والمستجدين والباعة المتجولين، كما عمه الصدق وسادت فيه الأمانة. وحزنت لأمور أخرى، وبقيت معي انطباعات مؤسفة، كخلوّ المطاعم المزودة بأحدث الوسائل، والمفروشات من الزبائن، والشوارع الجميلة الحديثة وقد خلت من المارة والسيارات، كأن أحداً لم يجرؤ على مغادرة بيته، أو السير في الشارع أو ركوب عربة. وبعضها الآخر مفزع مرعب. فصباح سفري مثلاً، وأنا أتهيأ للطيران باكراً سمعت صراخاً مخيفاً في الشارع. أطللت لأرى مبعثه فشاهدت مئات الرجال والنساء والأولاد في ساحة البلد العامة، يتدربون على الحركات العسكرية والصيحات الحربية، كأنهم في استعراض عسكري حربي.

اخترق بي سائق العربة تلك الصفوف، وما إن بلغنا آخر الشارع، حتّى سمعنا صيحة مدوّية تأمر المتدربين بالجمود. فجمد كل شخص في مكانه، منهم من كانت يده ممدودة أو رجله في الهواء فشعرت كأن الأيدي امتدت نحوي، والأصابع أشارت إليّ والأعين اتهمتني.

في الطائرة، حاولت أن أتخلص من هذه النظرات، وهذه الأيدي وتلك الأعين المصوبة نحوي! هل ارتكبنا، أنا وإخوتي الغربيين، خطأ في رسالتنا إلى تلك الشعوب الشرقية وخصوصاً أهل الصين؟ كيف سلكنا بينهم؟ أي ملك، أو أية مملكة مثلنا في بلادهم؟ كيف عاملناهم؟ إن كانت معاملتنا لأهل الصين هي مصدر بغضهم للغرب والغربيين، فالنتيجة محزنة مؤسفة! أما إن كانت معاملتنا لهم هي مصدر إلحادهم ورفضهم لله وخلاصه فالنتيجة هي الخسارة، والخسارة جسيمة، أبدية، لا تعوض.

وما برحت أذكر قول أحدهم حين طلبت إليه أن يأخذني إلى الكنيسة، أجاب: "لا كنائس في مجتمعنا. جُعل الدين للطفيليين الضعفاء فقط. نحن أهل الصين لم نعد طفيليين، ولا ضعفاء، بل أصبحنا أقوياء نعتمد على أنفسنا."

طلبت صباح أحد الأيام إلى دليلي أن يرافقني إلى الكنيسة. فأجاب: "كنيسة؟ لم يعد للكنائس في بلادنا وجود لاسيما الإنجيلية منها، لكنني سأحاول جهدي لأجد لك واحدة." قال هذا وغاب نحو ساعة من الزمن عاد بعدها يقول: "لقد نجحت يا سيدي وجدت كنيسة حسب طلبك! هيا لنذهب." تبعته إلى الكنيسة الصغيرة، وقد أكل الصدأ بابها، ونبت العشب على أطراف نوافذها، وتهرأت جدرانها. دخلتها وحدي إذ رفض الدليل مرافقتي. وجدتها عبارة عن غرفة واسعة مهملة، حضرها ست وخمسون شخصاً، جميعهم تجاوزوا سن الستين وكأنهم لا يظهرون ميلاً إلى أي شيء.

قام رجل مسن نحيل يعظ فيهم، بصوت رتيب ناعس نام على نغمته معظم الحاضرين.

انفطر قلبي حزناً إزاء هؤلاء المسنين المساكين وهم يتمسكون بهذا الخيط الواهي من الإيمان الباقي لديهم بعدما تعلموه منذ سنين طويلة، من المرسلين الأوروبيين. ما نفع الإنجيل والرسالة في يد شرذمة من الشيوخ، الطاعنين في السن؟ كيف تنتشر الكلمة، بعد أن نبذتها الشبيبة، وتفاخرت باستقلالها عنها مدعية أن الدين للعجزة والطفيليين؟ لن تجد السلطة أية

مقاومة في إخماد كنيسة كهذه. فهي لا تحتاج إلى أكثر من نفخة ضعيفة لتبيدها.

غادرت الصين، وقد غمرني اليأس، واستبدّ بي الفشل، غير أن اتخاذ السلطات موقف اللامبالاة تجاه الكتاب منحني خيطاً ضعيفاً جداً من الأمل. لا تمنع الحكومة إدخال الأناجيل والكتب المقدسة إلى بلاد الصين، كما أنها تسمح، بل تشجع طبعها، وبيعها، ولكنها نجحت في خلق جو من اللامبالاة، وعدم الاكتراث بالكتاب في طول البلاد وعرضها. كما أثبتت للشعب أن الدين للضعفاء، والمساكين وحسب، ولا حاجة للأقوياء المستقلين إليه، غير عالمة ما لهذا الكتاب من قوة اختبرتها أنا وأمثالي. ألم تتغير حياتي بجملتها بعد قراءته؟

على أي حال لن ينجح في تقديم الكتاب للصينيين، وإقناعهم بقراءته أو الاهتمام به شخص غريب عنهم. لن يتمكن أي أوروبي، مهما كانت جنسيته أو شكله أو شخصيته أن يؤثر في أهل الصين. لا يقدر إنسان على هذا العمل ما لم يكن صينياً أصيلاً، اختبر الله وقوة خلاصه، ونعمة محبته كما هي في الكتاب.

وهكذا رحت و"كوري" و"هانس"، و"رولف" و"إيلين" نتضرع جميعنا إلى الرب ليلاً ونهاراً كي يرسل خداماً صينيين إلى حقله في بلاد الصين.

(٢١)

رسل الرجاء الاثنا عشر

جلست يوماً أتذكر ما عملت وأفكر في المستقبل. إن الأمر لواضح! إننا في حاجة ماسة إلى عمل جماعي في الصين وغيرها. ما المنفعة من زيارة بلد ما، دون العودة إليه لإتمام العمل! إنه لمن الأفضل والأكثر نفعاً أن نكرر الرحلات، وعلى الأقل أن نزور كل بلد مرة كل سنة، وأن نذهب اثنين اثنين لاختبارنا أفضلية هذه الخدمة على الخدمة الفردية. لكن أين نجد عمالاً ومساعدين؟!

تطوع كثيرون لمساعدتنا، إلا أنني كنت أتردد في القبول خشية عدم لياقة المتطوع. لذلك رحت أرد على كل سائل بقولي: "راسلني حالما تبدأ خدمتك خلف الستار الحديدي، لعلنا نشترك في العمل!"

في أحد الأيام تسلمت رسالة من رجل هولندي يدعى "مرقس" يقول فيها: "أتذكر قولك، راسلني حالما تبدأ خدمتك خلف الستار الحديدي، علّنا نشترك في العمل؟! هأنذا مستعد، فلنبحث في الأمر." نظرت إلى الغلاف وإذا به يحمل طابعاً يوغسلافياً.

أريت الرسالة لـ "كوري"، فقرأتها وهي تقول: "يبدو أن هذا الرجل يناسبنا." فاتفقنا أن نتفاوض معه جدياً إذا كتب لنا مرة أخرى. وهذا ما فعله

بعد بضعة أشهر إذ عاد وبعث لي برسالة ثانية من يوغسلافيا ألحقها بثالثة يقول فيها: "لقد وفيت كل شروطك! والآن أود مقابلتك." وفي ذات يوم، بينما كنت منكباً على مكتبي إذ بابني "يوسف" يدخل عليّ قائلاً: "لقد حضر "مرقس" يا أبي وهو بانتظارك."

أحببت "مرقس" حالما رأيته، فأخبرني باختباراته في يوغسلافيا، وكيف أدخل فيها كثرة من المطبوعات، كان يضعها على المقاعد في الحدائق العامة، ويبتعد عنها قليلاً ويشاهد المارة وهم يتناولونها. فقلت له: "سأرسلك في رحلة مع "رولف"، وهو يعرفك على بعض الرعاة، والقادة المسيحيين، وبعد ذلك تقرر إما الانضمام إلينا وإما الانفصال عنا."

قضيا كلاهما، ثلاثة أسابيع بين يوغسلافيا وبلغاريا، عاد "مرقس" بعدها بحماس منقطع النظير، يبشر منظر وجهه بأنّه لن يتردد في العمل المخلص معنا.

وهكذا انضم "مرقس" إلى زمرتنا.

أما العمل فأخذ يزداد اتساعاً. وبعد انضمام "مرقس" إلينا بشهرين غادرت و"هانس" أوروبا منطلقاً إلى البلد الشيوعي الوحيد في أمريكا. ركبنا الطائرة من تشيكوسلوفاكيا إلى كوبا فكانت أولى زياراتنا إلى الولايات المتحدة. بلغنا الجزيرة، فتمتعنا بحرارة الشمس ودفء المناخ بعد البرد القارس في "براغ Prague"، وفور وصولنا افترقنا. ذهب "هانس" إلى أوريانت بروفنس في شرق الجزيرة، وبقيت أنا في العاصمة حيث نزلت في فندق يدعى هافانا ليبر عرف سابقاً باسم هلتون.

أُبلغت في الفندق بضرورة إعلام الشرطة بوجودي فذهبت تواً إلى مكتبهم، حيث قضيت وقتاً طويلاً كالعادة، أنتظر دوري، ولما حان دخلت على الضابط، وقد بدا الشك في عينيه فقال: "ماذا أتى بك إلى هنا؟"

أجبت: "جئت لأكرز بالإنجيل."

تناول جواز سفري، وقلب صفحاته متفحصاً التأشيرة الروسية، والأمريكية وغيرهما من الدول الأوروبية. سألني عدة أسئلة كتب أجوبتي عنها، ثم أمرني بالعودة إلى الفندق. بدأت بالكرازة كما قلت له، واستمر بالأسئلة والاستجواب مدة أربعة أيام.

كانت الكنيسة التي عقدت فيها اجتماعاتي، كبيرة وجميلة، فيها راع وشخصان فقط. ولكنهم زادوا في الليلة الثانية فبلغوا الأربعين ثم الستين في الليلتين الثالثة والرابعة، ثم مئة وأكثر. لقد ضمت هذه الكنيسة قبل الثورة مؤمنين كثيرين، غير أن عددهم انخفض عندما راح المارون في أوقات الصلاة والعبادة، يتجمهرون على الأرصفة والأبواب يصرخون، ويضجون ويصخبون، مستخدمين مكبرات الصوت وكل وسائل الإزعاج، بينما راح البوليس يدخل ويخرج بينهم متحرياً، مرعباً.

تيقنت أن بعض الذين حضروا الاجتماعات كانوا جنوداً، لذلك تجنبت الدخول في السياسة، وركزت على الإنجيل، ومع ذلك استغربت الحرية التي يتمتع بها أهل جزيرة كوبا - حرية التجمع وحرية السفر، وحرية التعبير عن النفس - حرية لم تعرف معناها باقي الدول الشيوعية الكبيرة.

أمضيت عدة أسابيع على هذا المنوال، تجولت خلالها في منطقة هافانا،

واعظاً في عدة كنائس، لجموع يتزايد عددها يوماً بعد يوم حتى بلغ في بعض الأحيان ستمائة شخص أو أكثر. وفي هذه الأثناء، لم أتوان عن الاتصال الدائم هاتفياً بـــ "هانس" فأعلم منه أن الشرطة تطارده وأن الشعب في أوريانت حيث القاعدة الأمريكية، أشد تخوفاً من أهل هافانا.

ما أشد كراهية الشيوعيين للأمريكان، إذ يعتقدون أن الكنائس جميعها، ولاسيما الإنجيلية أصلها أمريكي. ولذلك أصبحت أساس الفوضى والخصام، فكالت السلطة لرجال الدين أشد العذاب والاضطهاد، فحرمتهم من بطاقات الإعاشة والكسوة، ونعتتهم بالكسل والسعي إلى هدم المجتمع، لذلك جمعتهم مع مدمني المخدرات، وذوي الشذوذ الجنسي والمجرمين، واستخدمتهم في حقول قصب السكر لقطع القصب والعمل المستمر.

بالرغم من هذه جميعها بقيت الكنائس تعمل وتفتح أبوابها، فيشتد الجوع بل النهم الروحي من الناس الذين أخذوا يتجمعون على النوافذ والأبواب ليسمعوا الوعظ وكلمة الحياة. أذكر مرة أنني جلست على رابية تطل على المحيط أتحدث إلى جماعة طلاب جامعيين، وما إن شعرت بنا السلطة، حتى شاهدنا سيارة ملأى بالجنود والشرطة تحوم حولنا ذهاباً وإياباً.

حرصت و"هانس" على إعلان جنسيتنا الهولندية أينما حللنا، فأخذ الناس يتجمعون حولنا يسألوننا عن البلاد الشيوعية التي نزورها وعن العقوبات فيها. وكانوا يسألوننا مثلاً عن مركز "ديفيد ولكرسون" للمراهقين في نيويورك أو عما يفعل "بلي غراهام" الآن. أو ما معنى القول إن الله قد مات؟ إذاً فالنشرات الدينية، لازالت تدخل هذه البلاد عن طريق البريد العادي، وتوزع على الناس.

قبل وصولنا إلى كوبا، أعلن "كاسترو" سماحه لمن يشاء أن يغادر البلاد. فتقدم للسفر ألوف مؤلفة، ينتظرون يوم سفرهم على متن إحدى طائرتين كانتا تأتيان يومياً فتنقلان عدداً قليلاً جداً بينما يخسر المنتظرون أشغالهم ومراكزهم في فترة الانتظار التي قد تمتد عشر سنوات. شكل هؤلاء المنتظرون أرضاً خصبة لتعليمنا ولزرع الكلمة.

دارت مواضيع البحث معهم حول مسؤولية المسيحي بالنسبة لوطنه، وماذا عليه أن يعمل عند حلول الأزمة به! أيغادره طلباً لسلامة نفسه، أم يبقى فيه محاولاً إنقاذه؟ صعبت الحياة جداً في كوبا سنة ١٩٥٦، ولكن من يعلم قصد الله من هذه المصاعب؟ لعله يريدهم أن يكونوا بمثابة يديه في هذه المحنة؟ لعله يقصد استخدامهم في خلاص البلاد؟ وفي إحدى الليالي، ونحن نتحدث في هذه المواضيع، نهض رجل قوي البنية، أسمر اللون يقول: "كنت راعي كنيسة إنجيلية تابعة لمذهب نهضة القداسة ولكنني تركت المنبر وزاولت مهنة الحلاقة خلال السنتين الأخيرتين! أما الآن فسأعود إلى كنيستي، وأجمع خرافي الذين خذلتهم فتشتتوا." وكثيرون غيره اتخذوا القرار نفسه، فهتف الحضور هتافات الفرح، والشكر لله الذي تحنن عليهم وإعاد إليهم خدامهم، الذين شعروا الآن بالمسؤولية، وعلموا أن كوبا هي حقل عملهم.

في الطائرة إلى هافانا تحققت أن كوبا أصبحت جزءًا من حقل عملنا، وأن الفرص فيها عظيمة لنشر الإنجيل، وتوزيع الكتب والأناجيل، والكلمة وقعت في أرض خصبة فحركت القلوب والنفوس لعمل المحبة والتضحية.

انقضت سنة كاملة على رجوعنا من كوبا عندما قام أحد مكاتب السفر بتنظيم رحلة إلى ألبانيا، تلك البلاد الصغيرة التي منع الدخول إليها منعاً باتاً. كنت في سيبيريا عندما نظمت هذه الرحلة، فانضم "مرقس" و"رولف" إلى أعضائها.

حاولا أن يأخذا معهما كتباً كالعادة؟ غير أنهما لم يجدا أناجيل باللغة الألبانية. وعلمنا من جمعية الكتاب المقدس الأمريكية أن مكتبتها تحوي على كتاب واحد بهذه اللغة، ولكنه لم يطبع. بالإضافة إلى هذا، فبلاد ألبانيا، التي يبلغ عدد سكانها مليوناً ونصف مليون، فيها ثلاث لغات مختلفة. وإذا وجد كتاب واحد في البلاد جميعها فهو باللغة اللاتينية، وفي الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية.

أما "مرقس" و"رولف" فتزودا بكثير من النبذ باللهجات الثلاث وحاولا توزيعها في ألبانيا، بعد وصولهما البلد بسلام واجتياز الجمارك ونقط التفتيش، غير أن الألبانيين جميعهم رفضوا ما قدمناه لهم، ولم يمد أحد يده إلى واحدة، بل كانوا يضعون أيديهم خلف ظهورهم بتصلب وإصرار. حتى إن أحد الأساقفة عندما قدم له "رولف" إنجيل يوحنا بإحدى تلك اللهجات انتفض، وولى هارباً كمن لدغه أفعوان.

أخيراً، بعد اليأس والفشل وضع "هانس" و"رولف" مجموعة من النبذ على حافة نافذة من نوافذ مكاتب الدولة، على أمل أن يلتقطها المارون على حين غرة. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث بل على العكس، لحقت بأفراد الرحلة سيارة من الشرطة تسأل عمن وضع تلك النبذ، إذ لا يجرؤ مواطن على وضعها، ولم يكن في البلاد أجانب سوى هذه الفرقة. حفاظاً على

سلامة الفرقة، وتجنباً لمشاكل لا داعي لها، اعترف "مرقس" و"رولف" بعملهما، واعدين أنهما لن يعودا إلى مثل هذا التدخل "السياسي". وهكذا شكلت ألبانيا بلاداً يستحيل فيها الكرازة وتوزيع الكتب.

أما الشعب فكان كريماً محباً للغرباء، يحب بعضهم بعضاً، يحترم الحاكم ويناصره، فهو يبذل جهوداً واسعة لتحسين البلاد وترقيتها. ومن جهة أخرى، فقد أعربوا عن جهل تام لما يدور حولهم سواء في بلادهم أو في بلاد أخرى من العالم. حاول "مرقس" عدة مرات أن يتحدث إلى بعضهم باللغة الإيطالية بمعزل عن الناس فسأله قائلاً:

"قل لي يا صديقي، كم سنة قضيت في عملك هذا؟"

ابتسم وهز كتفيه مجيباً: "لا أدري"

"كم ساعة تعمل؟"

فأجاب: "لا أدري، كل يوم يختلف عن الآخر."

"كم عاملاً في هذه الشركة؟"

جاءت ابتسامته عريضة، واشتدت هزّة كتفيه وقال: "من يعلم!" من تراه يحصي العمال؟"

عند هذا الحد شعر "مرقس" و"رولف" أن الشعب كله متحد ضد أي فضول أو استفسار أجنبي. ولم يحظيا بحديث إلا مرة واحدة عندما التقيا بكاهن كاثوليكي أظهر سروره لمقابلتهما، فأعلمهما أن أبريشيته أرغمت على

قطع علاقاتها الخارجية جميعها، فدعت نفسها الكنيسة الكاثوليكية الوطنية. فقال: "لا تتدخل السلطات بأمورنا الدينية."

"إذاً لديكم حرية دينية كافية؟"

أجاب: "القانون يمنحنا هذه الحرية."

"أتستطيع أن تعظ وتقول ما تشاء على المنبر؟"

"مفروض أن أجيب بالإيجاب."

وهكذا استمر بأجوبته المماطلة، لا يصرح بالحقيقة، وفي الوقت نفسه ظهرت الحقيقة المرّة بوضوح. غير أنهما علما منه أن نسخة من الكتاب باللغة الألبانية موجودة في إحدى الكنائس الأرثوذكسية.

وعلى الفور أخذا يرجوانه أن يأخذهما إلى الكنيسة المذكورة، ففعل وتقابلا مع الكاهن المسؤول الذي أثبت لهما وجود مثل هذا الكتاب على مذبح الكنيسة وقادهما إليه حسب طلبهما. وقف فجأة عن بعد أربعة أمتار من المذبح ولم يقترب إليه. نظر الرجال الأربعة بدهشة إلى ذلك الكتاب الجميل، الثمين فقال "رولف": "أود الاقتراب منه. أريد أن أمسكه وأقلب صفحاته، وأقرأ بعض مقاطعه!" اتقدت عينا الكاهن بالغضب والفزع لسماعه هذه الكلمات وأجاب على الفور وبلهجة المرتعب قائلاً: "لن يقترب من الكتاب المقدس، أو يلمسه شخص عادي." فتساءل "رولف": "إذا ما نفع هذا الكتاب إذا كان لا يُقرأ ومادام الكهنة يقرأون اللغة اليونانية وحسب فما الفائدة من طبع الكتاب باللغة الألبانية؟" فأجاب الكاهن:

"ليعرض للجموع، ليحمل في موكب فخم، يتبعه الجماهير، مؤمنين أن الله نفسه تكلم في كتابه بلغة الشعب الألباني العظيم."

وهكذا عاد "مرقس" و"رولف"، وقد رأيا أموراً خارجية فقط، يتعسر الدخول إلى أعماقها. رأيا خارج الكتاب دون داخله، كما شاهدا المظاهر الألبانية الخارجية، وعادات الشعب الخارجية دون تفهم نفسياتهم.

عكس هذا كانت رحلاتنا إلى البلاد الشيوعية الأخرى، فقد تضاعفت همتنا للسفر، وأخذنا نهرّب كميات أكبر من الكتب إلى روسيا، ومع تعدد الأسفار، اهتممنا أن نتبادل الأدوار، فلا تذهب الفرقة الواحدة مرتين متتاليتين، خشية أن يعرفها الجند أو الحرس، فإذا ذهب رجلان في رحلة واحدة ذهب رجل وامرأته في الثانية، وهكذا وصلت أسفارنا القمة عندما ذهب "رولف" وزوجته "إيلين" إلى روسيا. صرفنا الليلة السابقة لسفرهما في الصلاة، والابتهال أمام الرب، وقد ملأنا السيارة الأوبل بالكتب والأناجيل. لم تنقطع أخبار الاضطهاد، والسجن، والعقاب الصارم، والتعذيب الذي كالته السلطات الشيوعية لمن يُمسك في أية عملية تهريب، ومع ذلك فقد وثقنا من معونة الرب ومرافقته لنا. فقلت لـ "رولف": "قبض على بعضهم وسجنوا لأن هدفهم يستحق العذاب. أما أنت فذاهب بدافع المحبة، وإشباع نهم الشعب الجائع للروح، أنت لا تعطي مجداً لنفسك حين تنجو بل لسيدك الذي تتكل عليه اتكالاً كلياً ..."

بعد عودتهما أخبرنا "رولف" بكل ما حصل بالتفصيل. لقد قابلهما ستة جنود في دائرة الجمرك. توقف "رولف" عندهم، وقفز محيياً مبتسماً، يفتح

الباب لـــ "إيلين" وقد أوصاها بالصلاة المتواصلة كي يضلل الله أولئك الرجال. أما الحرس فلم يؤخذوا بضحكه أو هزله هذه المرة، بل اقترب أحدهم منه، وناوله ورقة كتب عليها أسماء المدن جميعها التي زرناها أنا و"رولف" في رحلتنا الأولى، قائلاً له: "إنك جئت بلادنا أكثر من مرة! اقرأ هذه الأسماء!"

صعق "رولف" لهذه المفاجأة، أما "إيلين" فأخذت ترفع صلواتها الحارة لله، كي يضلل هؤلاء الرجال.

بدأ التفتيش في محرك السيارة، ونوافذها، وفحص مؤخرها، كما فكت دواليبها وأعيد ترتيبها قطعاً للشك. أخيراً تناول أحد الجنود عدة النوم، من أكياس، وحرامات ووسائد، فنفضها واحدة واحدة دون جدوى.

في هذه الأثناء، بينما انكب الجنود على التفتيش الدقيق وقف واحد قبالة "رولف" و"إيلين"، يحدق في وجهيهما، لا يزيل نظره عنهما، كأنه يحاول الدخول إلى عقليهما وقلبيهما، أو لعله يلاحظ من بسمة أو نظرة، أو نقطة من العرق على وجه أحدهما، أمراً يبوح بالسر الكامن في نفسيهما – ولكن دون جدوى.

أخيراً، وبعد ساعات بدت كأنها أيام أو أسابيع انتهى الرجال من التفتيش، وأعاد "رولف" كل شيء إلى مكانه وأشار لهما الضابط بالانصراف وهو يسأل: "لِمَ سفرك إلى روسيا أيها الشاب؟ لقد كنت هنا منذ بضعة أسابيع فقط، لِمَ تزور بلادنا بهذه الكثرة؟"

أجاب: "لقد أعجبت وصديقي ببلادكم يا أخي، فأحببت أن أصحب

عروستي هذه المرة بالإضافة إلى أني أحب شعبكم – أحبه محبة خاصة، وله مكان خاص في قلبي."

نظر الجندي إلى "رولف" نظرة كأنه يحاول أن يقرأ أفكاره ولكن المهم أنه لم يجد شيئاً في السيارة، فأعادوا الأوراق وجوازي السفر إلى "رولف"، وأمروهما بالمسير.

لم يصدق "رولف" ولا "إيلين" ما قد حصل، وقد كانت الكتب جميعها بمتناول أيديهم – ماذا حدث؟

علم "رولف" كما علمت "إيلين" أن الله ضللهم.

تزوج "مرقس" بعد انضمامه بسنة. فصار عددنا سبعة عمال في حقل الرب خلف الستار الحديدي، أنا و"كوري"، و"رولف" و"إيلين"، و"مرقس" و"يولا"، و"هانس" الأعزب. ثم انضم إلينا أيضاً "كلاس" و"إدوارد" وزوجتاهما.

كان "كلاس" و"إدوارد" أستاذين، "كلاس" للغة الفرنسية و"إدوارد" للرياضيات في مدرسة رسمية كبيرة في جنوبي هولندا. سمعا، مع زوجتيهما مرة عن عملنا، فزارونا يوماً في بيتنا وهم يسألون أسئلة عديدة متنوعة، كاتمين رغبتهم في الانضمام إلى صفوفنا حتى يعلن لهم الله إرادته فيتبعونه بدون خطأ.

أما أنا فكنت في الوقت نفسه أفكر التفكير نفسه! فما إن رأيت هؤلاء الأشخاص الأربعة، وتحدثت إليهم، حتى شعرت أنهم منا، ولكنني لم أجرؤ على مصارحتهم بما يدور في ذهني عالماً عاقبة هذه الصراحة.

هل أطلب إلى الرجلين أن يتركا عمليهما، ويمتهنا مهنة لا راتب لها؟ هل أدعو هذه المجموعة إلى حياة الفراق، والبعد الواحد عن الآخر في رحلات طويلة، وأسفار عديدة؟ هل أُقدم على أمر كهذا قبل إرشاد الرب، والتأكد من إرادته؟ لم أشرك أحداً بأفكاري هذه! لم أبح لأحد سوى "كوري" بأمنيتي ورغبة نفسي. وهكذا أخذنا نصلي جميعنا لهذا الهدف الواحد، ولكن كل على انفراد خشية أن يؤثر أحدنا على الآخر.

سمع الرب صلواتنا واستجابها بعد سبعة أشهر وذلك أن كلا من "إدوارد" و"كلاس" استلم رسالة مسجلة من إدارة المدرسة تهددهما بالاستغناء عن خدماتهما في المدرسة، ما لم يكفا عن الكرازة في فصولهما والاجتماع بالطلاب للصلاة في بعض الأمسيات. اغتما لهذا النبأ في بادئ الأمر، وانزعجا له كما انزعج الطلاب وأولياء الأمور، إذ أحبوهما لحسن سمعتهما، وإخلاصهما لمهنتهما. وأنا أيضاً شاركتهما عندما أخبراني، ولكن ما لبثت أن رأيت إرادة الله وعلمت أنه استجاب صلواتنا، فصرخت منادياً "كوري" أقول لها: "اقرأي هذا النبأ العظيم!" فركضت سائلة: "ما هو" قلت: "إن إدارة المدرسة على وشك أن تنهي خدمات "كلاس" و"إدوارد"."

نظرت إليّ نظرة استغراب ودهشة، ظانة أنني أمزح، ولكنها سرعان ما فهمت أن إرادة الرب ترشدنا إلى إشراك هذين الشخصين معنا. في الأسبوع نفسه ذهبت و"كوري" لزيارتهما في المدرسة وأخبرناهما بصلواتنا المتواصلة لهما، ورغبتنا في انضمامهما إلينا.

نظر "كلاس" و"إدوارد" بعضهما إلى بعض، وأخبرانا بدورهما أنهما قضيا وقتاً طويلاً في الصلاة طالبين إرشاد الرب وقيادته. هل يتركان

المدرسة ويأتيان إلينا، وأخيراً قال "إدوارد": "لديّ طلب أرجو أن تجيبني إليه يا أندرو!".

قلت: "وما هو يا إدوارد؟"

أجاب: "أرغب أن أساعدك في الأمور الإدارية، فأكتب لك الرسائل مثلاً وأساعدك في أمور الطبع والشراء، وما إليها ..." وكأنه يحاول إقناعي بمقدرته أضاف قائلاً: "إنني دقيق في عملي، وأحب الإدارة! فهل من مجال لي في مكتبك؟!"

لم أسر قط لشيء أكثر من هذا الطلب! لقد تكدست الرسائل على مكتبتي حتى إن فنجان القهوة، و"كوري" تشربه، اختفى بينها عدة أسابيع، وها الله يحل هذه المشكلة أيضاً، فيرسل لي من يساعدني لإنجاز الأمور الإدارية.

فأجبته: "نعم يا "إدوارد"، سأكون سعيداً بمعونتك."

أما العضو الثاني عشر، فكان شخصاً غريب الشكل، كأنه خلق من عدة أقسام، فهو أحد هؤلاء الشباب الذين كانوا يشعرون بالحماس بعد عظة نعظها، أو حديث نخبر بواسطته الحاضرين عن أعمالنا، ورحلاتنا وما إلى هنالك. فيتقدم أحدهم سائلاً: "أتسمحون لي بمرافقتكم في رحلة تجريبية؟" فكرنا كثيراً في هذه الطلبات، وعندما أجبنا بعضهم إلى طلبهم اختبرنا أنهم يساعدوننا في الصلاة، فحين نكون جميعنا في سفر، أو عمل ضروري يبقى هؤلاء لرفع الصلوات والتضرعات. بالإضافة إلى هذه البادرة، وجدنا أننا نقدر بهذه الطريقة أن نتحدث إلى فرد من الأفراد المتحمسين فنعلمه أكثر، ونصرف معه وقتاً وهو واحد منا أكثر مما لو جاء متسائلاً، يحاول

التعلم بعد أحد الاجتماعات، وهكذا تكون عندنا فرق تعضدنا في الصلاة، والعمل بإخلاص وطيبة قلب. فينتفع مثل هذا كثيراً إذ يرى بأم عينه ما يحدث وراء الستار الحديدي، ثم يحمل معلوماته، واختباراته إلى حقل عمله أو مدرسته، أو كليته بعد العودة.

شاهد هؤلاء الشبان التأثير الذي يحدثه التلقين في الأولاد والأحداث والشبيبة، ورأوا أن يستخدموا التلقين كوسيلة لتجنيد غيرهم للعمل في حقل الرب. كتب لي أحدهم وهو طالب في كلية مودي للاهوت قائلاً: "لم أتحدث إلى رفاقي طيلة هذين الشهرين بعد عودتي من خلف الستار الحديدي عن شيء سوى ما شاهدته واختبرته هناك، فتحمس ثلاثة طلاب آخرون، وسنرتب رحلة إلى يوغسلافيا في عطلة الصيف القادمة."

هذا هو أحد جوانب عملنا – تعليم الآخرين وتدريبهم على الخدمة، وقد اشترطنا شرطين: أولهما أن يختبر المتدرب المسيح اختباراً شخصياً، وثانيهما ألا يحمل في قلبه أي نوع من البغض أو الحقد على سلطة من السلطات الشيوعية، ويمتنع عن إظهار أية عيوب في تلك الحركة. فأي من يشعر ببغض نحو الشيوعية لا يصلح للعمل.

وهكذا امتد العمل، وتجدد وتطور مع مرور الزمن. لم يعد هنالك حاجة إلى تهريب الكتب المقدسة إلى يوغسلافيا، بل أبيح إدخالها كما أبيح بيعها وطبعها في بلغاريا نفسها فأعطينا "جميلاً" ألف دولار ليشتري حاجته وحاجة الكنائس من الكتب. ما أسرع الوقت! لقد مرت عشر سنوات على معرفتي "جميلاً" وصداقته.

أما في بلغاريا فإبراهيم لايزال يبحث عن العمالقة غير أنه الآن قد حظي بحصاة لمقلاعه، هي الكتب المقدسة الصغيرة الحجم التي أخذنا ندخلها بالمئات دون معارضة، وقد عزمنا على طبع كتب بهذا الحجم الصغير بجميع اللغات الشيوعية، كي نحملها إلى البلاد الشيوعية جميعها، حتى ألبانيا.

وفي ألمانيا الشرقية سمحت لنا الحكومة بالكرازة والوعظ دون مراقبة، أو معارضة. فقد حضر أحد اجتماعاتي أربعة آلاف شخص دفعة واحدة، جلس ألفان على المقاعد في القاعة، ووقف ألفان داخلها وعلى الأبواب والنوافذ.

تضاعفت رحلاتنا بانضمام "كلاس" و"إدوارد" وزوجتيهما إلينا، فتمكنا من السفر إلى كل بلد شيوعي مرة في السنة، كما رتبنا زيارتين جديدتين واحدة إلى فيتنام الشمالية والأخرى إلى كوريا الشمالية قبل نهاية عام ١٩٦٧. وكثيراً ما تمكنا من زيارة البلد الواحد عدة مرات في السنة الواحدة وقد حرصنا على تبديل الأشخاص كل مرة، خشية أن يعرفهم الحرس أو الجنود على الحدود، وفي دوائر الجمرك.

تقدمنا من حسن إلى أحسن حسب قيادة الرب، وبإرشاده اكتشفنا حاجة جديدة خلف الستار الحديدي، هي حاجة الرعاة المتجولين إلى سيارات تساعدهم على التنقل من مكان إلى آخر فيجمعون شمل الكنيسة التي تشتتت وكادت تموت. ذكرت يوماً "فيلهلم" الألماني أمام رفاقي في هولندا وهو رجل الدين الألماني المتجول، الذي كان يقاسي سعالاً حاداً مؤلماً لتجوله على دراجة معرضاً للهواء العاصف والبرد القارس. فقدموا لي

حوالة مالية ضخمة قائلين: "هذه يا أندرو ثمن سيارة لــ "فيلهلم". نرجوك أن تبتاعها وتقدمها له."

ما كان أشد فرحه عند رؤية السيارة، وأصعب تصديقه بأنها له عندما ناولته مفتاحها. كما قدم له الإخوة الهولنديون أنفسهم سيارة ثانية استخدمها لتأليف فرقة من المتطوعين للكرازة ونشر كلمة الرب، بين الشبيبة المحرومين، في بولندا وتشيكوسلوفاكيا. أما زوجة "فيلهلم" فقد أخبرتني أن زوجها قد ذهب عنه السعال وأصبح معافى نشيطاً.

هذا ما كنت أهدف إليه، ولا أشك أنه ما دبره الله منذ البداءة: هو أن يساعد الإخوة بعضهم بعضاً، فيمد المسيحيون في البلد الواحد، يد المساعدة لإخوتهم في البلد الثاني خلف الستار الحديدي. فيجمعون شتات الكنيسة ويعيدون إليها القوة، والثقة، والمحبة الناتجة عن الوحدة. لقد نجحنا في إيجاد الطاقة البشرية لهذا العمل، ولكنها افتقرت للماديات فأعاننا الله وزودناهم بها كما أتاح لهم فرصة السفر، والمراسلات، والاجتماعات بعضهم ببعض بشكل لا يتاح للأجانب الغربيين. وقد تمكنت إحدى الكنائس من أن ترسل كارزيها إلى البرازيل وكوريا، حيث يعملون جنباً إلى جنب مع المرسلين العاملين هناك.

وهكذا استمر تيار التجديد والتغيير في التطور والتقدم، ولكن ليس على درجة واحدة من حيث الضغط والتشديد، فكنت ترى بعض التساهل تارة، وبعض التضييق والتزمت تارة أخرى. فبينما تسامحت السلطة مثلاً مع دار الكتاب المقدس في بلغراد، وسمحت لها ببيع الكتب دون مراقبة أو تشديد، أخذت تضيق الخناق على الهنغاريين، وأحرقت مئات

من الكتب المقدسة والأناجيل في الصين، وسط صيحات الجماهير والجنود وهتافهم.

إلا أن الله لا يتغلب عليه أحد. قد يقاومه الشرير ويهاجمه، ويسيء إلى أولاده، ولكن شكراً لله لأن كل الأشياء، حتى الشريرة، تعمل معاً للخير للذين يحبونه ويدعون باسمه.

تعرفنا بكاهن من رومانيا، فأخذنا نزوده بكتب مقدسة وهو يهربها إلى بلاده. في ذات مرة قبض عليه على حدود بلاده وسيارته مليئة بالكتب حسب العادة فأوقفه الحرس بعد أن اكتشفوا حمولته وحاولوا محاكمته. في اللحظة نفسها، مر بهم رجل أعمال مشهور، يعرفونه جميعهم. قفز من سيارته، ودخل دائرة الجمرك محيياً كلاً من الجنود والحرس باسمه ثم انتبه إلى ما حوله. كاهن معه مئتا كتاب مقدس. كل واحد من هذه الكتب يساوي راتب شهر كامل. إذاً فهذا إجرام اقتصادي يدعو إلى محاكمة الجاني وسجنه. أقبل الرجل قائلاً: "ما هذه؟ كتب مقدسة؟" فقال: "حتى ولا ب ..." وأقبل عليه هامساً في أذنه بمبلغ من المال، شهق عند سماعه قائلاً: "أتساوي هذه الكتب هذا المبلغ؟" أجابه الرجل: "أكثر، وأنا سأربح من بيعها." أطرق الموظف مفكراً وقال: "دعني أستشير زملائي." دخل إلى زملائه، ثم عاد وهم يتبعونه راضين مسرورين. لقد كان الثمن باهظاً، فضحوا في سبيله بمبادئهم.

بعد أن انتهت الصفقة، وعاد السكون، سأل الكاهن مذعوراً: "ألا زلتم تتهمونني بتهريب الكتب المقدسة؟"

أجابوه: "كتب مقدسة؟ أين تلك الكتب؟! أسرع اخرج من هنا قبل أن نغلق الباب."

أما الكتب نفسها، ولو أنها بيعت في السوق السوداء فقد دخلت رومانيا. وهذا ما يهمنا. وسيدبر الله للمؤمنين طريقاً لابتياعها.

أما اليوم فقد فتحت السلطات الباب أمام الأجانب والغرباء، وأتاحت فرص السفر لمن يشاء زيارتها، فيفد إليها ألوف السياح، أو المصطافين وغيرهم، مما يفسح المجال لمن لم يحلم قط أن يكون مرسلاً أو مبشراً أن يصبح مرسلاً أو مبشراً، وذلك لأن الحكومة تصرح لكل من يشاء أن يحمل بين ثيابه كتاباً مقدساً واحداً (يستطيع الحصول عليه من جمعيات الكتاب المقدس) بلغة البلاد التي يذهب إليها.

آلاف من الزوار والمسافرين بالإضافة إلى التفرج على المتاحف والآثار، يهتمون أن يبحثوا عن كنائس يقفون على منابرها محيين أهل البلاد بالنيابة عن أخوتهم الألمان، أو الأمريكان أو الإنجليز.

قلت يوماً لـــ "كوري": "لو قام بهذا الواجب كل سائح، وكل زائر أين ننتهي؟ أين ينتهي نهر الاهتمام بالآخرين؟"

أجابت: "لا أدري." ثم ضحكت قائلة: "لا ندري، ولا نعلم المستقبل. لا ندري إلى أين نحن ذاهبون، ولكن أذكر: ... إننا سنسير الطريق معاً".

معاً نحن الاثنين، نحن الاثني عشر، نحن الآلاف. كلنا لا يدري أين تقود الطريق ولا إلى أين ننتهي. ولكننا نعلم أن نهايتها أجمل جميع الرحلات، وأكثرها بهجة.

ماذا يحدث الآن؟

في عام ١٩٨٩ انهارت الأسوار الحديدة وهبت رياح الحرية مرة أخرى على أدريا الشرقية والاتحاد السوفيتي لم يتوقع أحد السرعة التي انهار بها النظام الشيوعي الذي ساد هذه البلدان لمدة سبعين عام.

كان للكنيسة دورها في حفظ الهوية الاجتماعية والقومية لهذه الشعوب وكان لدعم الغرب للكنيسة أثرها البالغ في مساعدتها للقيام بدورها في تحقيق التحول الاجتماعي والسياسي لدول المعسكر الشرقي.

لسنوات أظهر المؤمنون مجاهدة في الشهادة لإيمانهم ووجدوا في الفراغ الروحي الذي عانى منه الكثيرون فرصة ذهبية لربح النفوس ولا سيما الشباب.

إلا أن المحزن هو اندفاع هذه المجتمعات نحو القيم المادية الاستهلاكية وحدث نتيجة الأزمة الاجتماعية والاقتصادية بالذات في الاتحاد السوفيتي السابق (روسيا وأوكرانيا) ظهور الجريمة المنظمة وانتشار المخدرات والتجارة بالجنس.

نحن ناحية توجد فرص لتجاوب الناس مع الإيمان المسيحي ولكن من ناحية أخرى يوجد انجراف شديد للقيم المادية.

حدث أيضاً إنه بانفراط عقد جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق أن بعض الدول هذه الدول الجديدة استعادت هويتها الإسلامية وانجذب الشعب لممارسة شعائر الإسلام التي كان محروماً منها لسنوات طويلة، وما زالت الخدمة مستمرة لدعم الكنيسة في كل بلدان أوربا الشرقية كل بحسب ظروفها واحتياجاتها.

ولقد أظهرت الزيارات الميدانية المستمرة أن في بعض جمهوريات الاتحاد السوفيتي القديم وبالذات في جمهوريات وسط أسيا بأن هذه الدول ما زالت تتألم تحت وطأة الحكم الشمولي والديكتاتوري وأن المؤمنين ما زالوا يدفعون ثمناً غالياً لأمانتهم وشهادتهم.

نعم جاء فجر جديد من الحريات ولكن البدائل التي طرحها لم يكن جميعها لمصلحة البشر أو لخيرهم والكنيسة في أوربا الشرقية تحتاج إلى نهضة روحية عميقة لتستعيد مفاتيح القوة التي حفظتها طوال السبعين سنة التي قضيت تحت سيطرة الشيوعية.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هل الله الذي قدر على إطلاق المأسورين في العالم الشيوعي بعد سبعة سنوات من الصلاة من المؤمنين حول العالم لا يقدر أن يجرى معجزة مشابهة في مناطق العالم التي تحتاج إلى نور جديد يعلن خلاص الله في المسيح يسوع.

هذه دعوة لمزيد من الصلاة مزيد من الإيمان ومزيد من التوقع.

رغم المستحيل كتاب يروي قصة إنسان
استسلم لمشيئة الرب فتحول إلى مُهرب!!
فقد انتشر اسم "الأخ أندرو" على اللائحة السوداء
في جميع نقاط التفتيش الحدودية
في بلدان الستار الحديدي (الدول الشيوعية سابقا).
الأخ أندرو مُهرب نعم (مُهرب الله)
والبضاعة التي يُهربها هي: الكتاب المقدس.
ابتدأ منفرداً بعدد ضئيل من الكتب
وإمكانيات مادية محدودة ومعنويات متواضعة،
لكن الذي أرسله لم يتركه بل كان معه وشجعه
وهكذا اتسعت هذه الخدمة لتروي ظمأ العطاش
إلى كلمة الحياة بعد سنوات من الحرمان والشوق
للحصول ولو على صفحة من صفحات الكتاب المقدس.

رغم المستحيل قصة إيمان نشعر بعد قراءتها
بأننا أمام تحدى إيمان المؤلف وهذا يشجعنا
على الاتكال والاستسلام كليًا بين يدي ال
لنخدمه بقوة وثقة وشجاعة ومحب
هذه هي روح الكتاب.

نعم إنها قصة واقعية ليست من نسج
مع أنها "رغم المستحيل".

Prepare The Way
www.ptwegypt.com